

د. عبد المحسن صالح

النبؤ العلمي ومستقبل الإنسان

دار الشروق

النبؤ العلمى ومستقبل الإنسان

طبعة دار الشروق الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بروكسل: شروق - لكسم: S3091 SHROK UN

بيروت: ص. ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٧١٣

بروكسل: دار الشروق - لكسم: SHOROK 20175 LE

تمهيد

بادئ ذي بدء نقول : إنه من الصعب جدا على العقل أو النفس أن تعيش في زمان غير زمانها الذي عاينت أحداثه ، واستوعبت أفكاره ، وشهدت معاملاته ، وعرفت أدواته ، واندججت مع ناسه ، وتكيفت بعاداته . وقد نرى ذلك واضحا أيضا بين جيلين أو ثلاثة من أجيال البشر في نفس الزمان والمكان ، إذ أحيانا ما نلاحظ فجوة بين ما يساور عقول الشباب . وعقول الشيوخ من عادات وسلوك وتقاليد ، أو هو ببساطة ما نطلق عليه « صراع الأجيال » الذي يتمخض - في أغلب الأحيان - عن عمليات تطوير لإحلال الجديد محل القديم ، وليس في ذلك ما يعيب ، بل هو سنة من سنن الكون والحياة .. لأن التغير تطور ، والتطور تجدد ، والتجدد حياة . ولولا ذلك لأصبح كل شيء راكدا ، ولا حياة مع ركود « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

والعبرة الكامنة في قصة أهل الكهف التي وردت في القرآن الكريم توضح ذلك أعظم توضيح إذ تقول : « وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا » . وعندما بعثوا من رقادهم الطويل ، وذهب أحدهم إلى المدينة ليشتري طعاما ، وجد كل شيء قد تغير .. الناس والمعالن والمباني والعمله والمعاملات ..

الخ . وبالاختصار فقد أحسوا أن ذلك زمان غير زمانهم ، فكان أن قبضهم الله
إليه رحمة بهم .

لو تصورنا - بعد ذلك مجرد تصور - أن قصة أهل الكهف قد تكررت في
زماننا هذا ، وبعث إنسان مات منذ ثلاثمائة أو مائتين أو حتى مائة من السنين ،
ورأى ما نعيش فيه الآن من حضارة علمية وتكنولوجية ، فإن حاله سيكون
أكثر دهشة واستغرابا من حال أهل الكهف ، ولن تستطيع عقليته التي عاش بها
في زمانه أن تستوعب ما تستوعبه عقلية الربع الأخير من القرن العشرين . فن
طائرات تحلق ، إلى صواريخ تنطلق ، إلى حاسبات اليكترونية تقدر وتوجه
وتتكلم ، إلى أقمار صناعية ، إلى غزو للفضاء ، إلى تليفزيونات تنقل بالصوت
والصورة كل ما يحدث في أي منطقة من الكوكب إلى منطقة أخرى تبعد عنها
آلاف الأميال .. وبالاختصار ، فقد تأتيه صدمة نفسية يودع بها حياة لا تستقيم
مع عصره الذي كان يعيش فيه .

ولم نذهب بعيدا وأمامنا قصة واقعية حدثت في بداية هذا القرن ، ونرى من
الأوفق أن نسوقها هنا ، لنذكر كيف أن أي اختراع أو اكتشاف جديد لا
يتمشى مع الأفكار التقليدية السائدة يقابل أحيانا بالتهكم والسخرية .. ليس
هذا فحسب ، بل قد يدان صاحب الاكتشاف بالنصب والاحتيال .

والقصة رواها لنا هارلان مانشستر في كتابه «حملة مشاعل التكنولوجيا» .
لإذ عرضت في إحدى المحاكم الاتحادية بمدينة نيويورك قضية غريبة في الثالث
عشر من شهر ديسمبر عام ١٩١٣ ، وبدأ ممثل الاتهام يتكلم على مخترع شاب ،
هزيل الجسم ، رث الثياب ، وأخذ يكيل له تهما انصبت عناصرها على الخداع
والنصب والاحتيال على عدد من الأبرياء ، لبيتز أموالهم في مشروع وهمي

لا يصدقه إلا كل عقل ضعيف .

وأمسك ممثل الاتهام بيده الدليل ، وهو يلوح به أمام هيئة المحكمة ...
أمسك بانتفاخ زجاجي صغير الحجم .. خفيف الوزن، تبرز من داخله إلى خارجه بعض الأسلاك التي لا تعنى شيئاً في عقول الناس . وبلهجة يشوبها الاحترار والتسفيه شرح للمحكمة كيف أن المتهم « دى فورست » قد وقع بإمضائه قرارات غريبة متعمدة التضليل ، وهي برمتها تشير إلى أن هذا الجهاز سوف ينجح في نقل الصوت البشرى يوماً عبر المحيط الأطلنطي .

ويستطرد ممثل الاتهام قائلاً : إن المحتال دى فورست قد أقنع بعض المستثمرين السذج بدفع أسهم مالية تتراوح قيمتها ما بين عشرة وعشرين دولاراً في شركة حملت اسمه ، وحث ممثل الاتهام هيئة المحكمة أن توقع باسم شعب الولايات المتحدة على هذا الشاب وشريكه - اللذين سانداه في عملية التغرير بالناس - العقوبة التي يستحقونها ، نتيجة لادعاءاتهم المضللة .

وبالفعل اقتيد زميلاً فورست إلى السجن ، أما هو فقد أطلقت هيئة المحكمة سراحه ، بعد أن لقنته درساً قاسياً ، ناصحة إياه بأن يتخلى عن التظاهر بكونه مخترعاً ، ويحاول العثور على وظيفة عادية يأكل بها خبزه وإدامه .

إن ممثل الاتهام وهيئة المحكمة وكل الناس في ذلك الزمان لم تكن عقولهم مهياًة لتقبل فكرة إمكان نقل المكالمات عبر المحيط ، أو أى مكان آخر دون الاستعانة بأسلاك الهاتف التقليدية ، واعتبروا فكرة دى فورست أو أبوبته المتواضعة خيلاً وغباء لا يستقيم مع فكر صائب ، وعقل راجح . ومن أجل هذا كانت تلك المحاكمة الظلمة .

لم يكن هذا الانتفاخ الزجاجي « العديم القيمة » الذي أوشك أن يزعج

بفورست في السجن - لم يكن إلا أنبوية « الأوديون » التي ثبت بعد ذلك أنها أعظم اختراع في القرن العشرين ، وواحدة من الابتكارات المذهلة التي أنتجها عقل الإنسان ، إذ كانت هذه الأنبوية الزجاجية المتواضعة بمثابة النواة أو الأساس الذي قامت عليه التكنولوجيا الأليكترونية بأسرها ، وأدت إلى اختراع مكبرات الصوت ، والاتصالات الهاتفية عبر المحيطات ، ونقل الصور بالموجات ، كما دخلت في صناعة السينما الناطقة ، وفي أجهزة الرادار ، وغير ذلك من ابتكارات أليكترونية عديدة .. لقد كانت أنبوية « الأوديون » بمثابة مصباح علاء الدين الذي سيطر على الأليكترون ، ومنحه قوة جني عملاق .

والواقع أننا قدمنا هذه الواقعة ليس من قبيل رواية الطرائف ، بل لتوضيح ما جبل عليه الناس من رفض الأمور التي لا تتماشى مع الأفكار التقليدية السائدة في زمانهم ، والتاريخ العلمي زاخر بأحداث كثيرة تعرض لها العلماء ، وقوبلت أفكارهم بالإنكار أو التعذيب أو السجن ، أو حتى الموت إعداما وحرقا ، لكننا نرانا في حل من التعرض لسرد هذه الأحداث المؤسفة هنا . فليس ذلك مجالها .

صحيح أننا نعيش الآن في عصر العلم الذي يضع بين أيدينا حصيلة هائلة من الإنجازات العظيمة التي أثرت في حياة الناس ، وغيرت أنماط أفكارهم .. وصحيح أن كل شيء يتطور بسرعة مذهلة .. إذ أن ما حققه العلماء من تقدم وتحصيل في الثلاثين أو الأربعين عامًا الماضية يفوق كل ما حققته البشرية في تاريخها الطويل الذي يرجع إلى الوراثة آلاف وربما عشرات الألوف من السنين . لكن المستقبل سيحمل في طياته مفاجآت ضخمة قد لا تستوعبها عقولنا الحالية . وستبدو اختراعاتنا الحديثة والمتطورة في كل فرع من فروع العلم المختلفة ، كما بدت

أنبوية الأوديون مثلاً - منذ حوالي سبعين عاماً - أمام ممثل الانهام وهيئة المحكمة ، فكما أن هؤلاء لم يستوعبوا فكرتها ولا أهميتها ، كذلك قد لا نستوعب نحن التغيير الجذري الذى سيطرأ على حياة الناس بعد مائة أو مائتين أو ألف عام .

وهذا الكتاب ليس إلا محاولة للتنبؤ بما يحمله لنا المستقبل من مفاجآت ، رغم أننا نعيش أيضاً في عصر يتسم بالمفاجآت . لأن فصول هذا الكتاب ستتناول أموراً قد تحسبها شطحات خيال ، أو كأنما هي أضغاث أحلام . فالتنبؤ في حد ذاته مسألة محفوفة بالريبة والشكوك ، أو قد يحسبها البعض رجاء بالغيب ، والغيب لا يعلمه إلا الله ، لكن التنبؤ العلمى يختلف اختلافاً جذرياً عن التنبؤات التى يدعيها المشعوذون والدجالون والمنجمون ومن في حكمهم . إذ ليس لتنبؤاتهم سند أو أساس . وهنا يحق عليهم قول الحديث الشريف : « كذب المنجمون ولو صدقوا » - بالفاء وليس بالقاف ، لأنهم يصدقون - أى من الصدفة - ولا يصدقون .

إذن .. ما هو الأساس الذى يمكن أن نشيد عليه تنبؤاتنا بمستقبل الإنسان عامة ، والإنجازات العلمية خاصة ؟

الواقع أن « بذرة » أو « بذور » التنبؤ موجودة بين أيدينا ، والبذرة لا شك سليمة ، ولهذا كان لا بد أن تنبت إذا هيأنا لها أرضاً طيبة ، وماء متاحاً ، ومناخاً مناسباً ، والإنبات يؤدى إلى نبات يافع ذى فروع وأوراق وزهور وثمار - نزولاً على نواميس الحياة التى أودعها الله فى كل مخلوقاته .

والإنجازات العلمية الراهنة هى البذرة أو النبتة الصغيرة التى ستنمو وتتفرع وتثمر ثمرات غريبة على عقولنا وزماننا ، وفى كل مرحلة من مراحل نموها ، يغذيها العلماء بعصارة أفكارهم المتجددة والمتطورة دوماً ، وعندئذ ستصبح

شجرة المعرفة «كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء» .

إذن فالتبؤ العلمي بمستقبل الإنسان لا نبنيه هنا على أوهام ، ولا هو نابع من فراغ ، بل إن الأساس فيه يرتكز على ما بين أيدينا من بحوث علمية عميقة تشير إلى إمكان إحداث تغيرات جوهرية ، ليس في الاختراعات التي تطور حياة الإنسان ، بل في أمور أخطر من ذلك بكثير . إذ أنها قد تغير طبيعة الإنسان البيولوجية ذاتها ، فيصبح إنسانا آخر غير إنسان هذا الزمان .

ولا شك أن ذلك قد يصيب بعض العقول بالحيرة الشديدة : فمن ذا الذي يستطيع أن يتخطى الحدود التي ألقناها في الكائنات الحية ، فجعلت هذا نباتا ، وذاك إنسانا ، وغيره حيوانا ، أو ميكروبا أو فيروسا... الخ ؟

الواقع أن الإنسان في عصرنا هذا قد وضع قدمه على أول درجات سلم طويل ، وسوف يخطو عليه نحو التغيير في صفات الإنسان وكل المخلوقات .

وطبيعي أن مثل هذه الأفكار قد تكون غير معقولة في وجدان إنسان هذا الزمان ، وهي بلا شك أخطر مما نادى به جيوردانو برونو عن دوران الأرض حول الشمس (وليس دوران الشمس حول الأرض ، إذ اعتبر القدماء أن الأرض هي مركز الكون ، وأن كل شيء يدور حولها) ، فأحرقوه عقابا له على أفكاره المنحرفة ، أو أخطر من نظريات جاليليو التي حبس وعذب بسببها ، أو أشد غرابة من أنبوية الأوديون التي دفعت بمخترعها إلى ساحة إحدى المحاكم بتهمة الدجل والخداع - كما سبق أن ألقينا .

إن التلاعب بصفات الإنسان ، أو إنتاج نسخة طبق الأصل من ذاته ، أو إكسابه طبيعة غير طبيعته ، أو علمه بما تحمله الأرحام ، أو إنتاج ذرية بطريقة غير « شرعية » .. الخ ، هي أفكار - بلا شك - سابقة لأوانها . ولهذا فقد

تصيينا بصدمة نفسية أو عقائدية أو فكرية قبل الأوان ، ومع ذلك كان لابد أن نتمهد الطريق أمام عقول هذا الزمان ، عليها تتقبل ما قد يتمخض عنه المستقبل من أحداث جسام .. خاصة أن بذور هذا التغيير أو التطوير قد كشف العلماء عنها الحجاب ، وبدأوا يمارسون « اللعبة » الخطرة في خلايا حية تتمثل لنا في الميكروبات ، فأضافوا إليها صفات غير صفاتها .. واليوم ميكروب ، وغداً قد يأتي الدور على الإنسان .

ولكى نخفف من وقع الصدمة ، فلا بد أن نذكر أن الإنسان هو خليفة الله في أرضه ، ولقد منحه فكراً ناضجاً ، وعقلاً راجحاً ، وعن طريق العقل علم ما لم يكن يعلم ، ثم إن الإنسان لم يأت بشيء من عنده ، بل هو يستفيد بالأسرار التي وضعها الله في خلقه .. إذ كلما تعمق فيها ، وأدرك كنهها ، صُقلت أفكاره ، وتطورت معلوماته ، وعلم ما لم يكن يعلم .. وهذا خير يجب أن يوجه لما فيه الخير .. مصداقاً لقوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » سورة الزمر آية (٩)

ثم إن الآية الكريمة « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » سورة العنكبوت آية (٢٠)

... فيها اطمئنان يخفف من وقع صدمة المستقبل التي ستعرض لتفضيلاتها في فصول هذا الكتاب . فالآية تحض على البحث والنظر في أصول الخلق كيف بدأ .. وهذا علم يفتح عقولنا على تفاصيل مذهلة ، ونظم متقنة ، ونواميس محكمة ، ومنها نتعلم ونستوعب . ونلم بأصول « اللعبة » ثم ننطلق بها نحو آفاق أوسع وأعمق وأضخم من آفاق عقولنا الحالية .

ملخص القول : أن التنبؤ العلمي بما قد يصير عليه الإنسان مستقبلاً إنما هو

حصيلة ما توصل إليه العلماء حتى وقتنا الراهن ، وعليها نستطيع أن نبني توقعاتنا .. ولكي يصبح للتنبؤات معنى كان لا بد أن نقدم لكل منها الأساس الذي تمخضت عنه البحوث العلمية الراهنة ، وبهذا نزاوج بين الحقيقة والخيال ، وغالبا ما يتحول الخيال إلى حقيقة قد لا نمارسها في زماننا هذا ، بل نترك هذا لأجيال المستقبل ، وقد تقع نسخة من هذا الكتاب بين أيديهم ، وقد يعلقون على ما جاء فيها بقولهم : « كم كانوا في أفكارهم وتصوراتهم متواضعين ... أولئك الذين عاشوا قبلنا في القرن العشرين » !

دكتور عبد المحسن صالح

الفصل الأول معنى التنبؤ العلمى

معنى التنبؤ العلمى

للعلم رأى حاسم ومعروف فى التنجيم وقراءة الطالع والعرافة ، فهى نوع من الترافات أو الخزعبلات التى مازالت تعشش فى عقول الناس من قديم الزمن ، إذ من المعروف أن بلاط الكثير من الملوك والقيصرة والأباطرة والأمراء كان يعتمد فى تصريف أمور الدولة على العرافين والمنجمين ، خاصة فى أمور الحرب ، والناس على دين ملوكهم على أية حال . ومازال هذا الإرث الثقيل ساريا بين الناس حتى الآن .

وكرأى العلم يكون رأى الدين .. فالغيبات لا يعلمها إلا الله .. ولقد وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى ذلك أوضح إشارة :

« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطَلِّعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ » (آل عمران .. آية ١٧٩)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ » (الأنعام - آية ٥٩)

« عَلَّمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا » (الجن .. آية ٢٦)

إلى آخر هذه الآيات التى حسمت الأمور .. إذن فلا مجال للاجتهاد بعد ذلك لعراف أو منجم أو قارئ طالع ، إذ لو عرفوا الغيب ، لتجنبوا الضير ولاستكثروا من الخير .. كما جاء فى القرآن الكريم « وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ » (الأعراف - آية ١٨٨) .

وإلى هنا قد بطراً على بعض الأذهان تساؤل : أوليست محتويات هذا الكتاب تتناول ما يمكن أن يكون عليه مستقبل الإنسان؟ .. ثم أو ليس المستقبل من الأمور الغيبية المحجوبة عن عقولنا ، ولا يحق لنا أن نخوض فيها ؟ .. وهل التنبؤ - في حد ذاته - لا يحمل في طياته أيضاً بذور الغيبيات التي يعارضها العلم والدين ، ولها فيه رأى قاطع ؟ !

الواقع أن التنبؤ العلمي لا ينبع من فراغ ، بل هو نابع حقا من نوااميس الكون وأحكامه ، ثم إنه يتمشى معها ، ولا يتعارض مع قواعدها ، في حين أن التنجيم والعرافة وما شابه ذلك ليس لها من أساس تركزن إليه ، أو تتأسس عليه ، إذ هي تعتمد - في المقام الأول - على فراسة العراف ، وحذقه ومهارته في استدراج الضحية ، ليعرف منه - أى العراف - أكثر مما يعرف الضحية من عرفته . ثم إن للعرافين خدعاً وحيلاً يتشعب فيها الحديث ويطول ، وليس هنا مجالها (راجع كتابنا - الإنسان الحائر بين العلم والخرافة - ضمن هذه السلسلة ، فهي تتناول جزءاً من هذه الخرافات) .

تنبؤات منطقية :

ولكى نوضح الفرق بين التنبؤ العلمي والتنبؤ الغيبي فلا بد من تقديم عدة أمثلة نميز بها بين الغث والسمين .

لو قلنا إن هذا الإنسان لابد ميت بعد ثلاث دقائق أو أربع من توقف قلبه أو تنفسه ، أو بعد أربعة أو خمسة أو ستة أيام لو أننا تركناه بدون شراب ، أو لابد هالك بعد شهر أو أكثر لو منعنا عنه الطعام ، فإن تنبؤنا بموته ليست بدعة ولا غيبياً ، بل هو أمر طبيعي يتمشى مع شرائع الأجسام الحية ، لأن من مقومات حياتها الهواء والماء والطعام .

إذا تنبأ الطبيب مثلاً بموت مريض بالسرطان بعد عدة أشهر ، أو بموت آخر أصيب بنزيف في المخ ، ولا سبيل إلى وقف نزيفه ، فإن نبوءة الطبيب غالباً ما تتحقق ، وليس ذلك رجماً بالغيب ، ولا هو واقع تحت بند التنجيم .. ونقول غالباً ، وليس حتماً ، لأنه في حالات نادرة للغاية قد يشفى المريض من مرضه ، وعندئذ قد نعتبر ذلك - في حد ذاته - معجزة من المعجزات التي يقف الطب أمامها حائراً ، ولا يجد لها تعليلاً ، لكن المعجزة هنا تعني عجزنا عن فهم الأسباب الكامنة وراءها . ولو استطعنا اكتشافها لانفتحت المعجزة من أنماط تفكيرنا ، إذ قد تشتغل أجهزة المناعة في مريض السرطان ، وتبيد هذه الخلايا الخبيثة قبل أن يستفحل شأنها ، لكنها لا تشتغل بنفس الكفاءة مع كل مريض بهذا الداء . نحن نعرف مثلاً أن الناس تصاب بميكروب التيفود ، فمنهم من يستسلم ويموت ، ومنهم من يقاوم ويعيش .. والفرق بين هؤلاء وهؤلاء يكمن في كفاءة أجهزة المناعة ، فليست هذه الأجهزة حذرة متممة في كل الناس .. أى أن شفاء مريض واحد مصاب بالسرطان من بين كل مليون حالة مصابة بنفس الداء تعتمد على عوامل عدة .. منها مقاومة المريض ، ودرجة المرض ، وتحفز خطوته الدفاعية في إنتاج السلاح المناسب ، ليكسب بها معركة من معارك الموت والحياة .

يعنى هذا أننا كلما تعمقنا في دراسة الظواهر الطبيعية ، والنواميس الكونية ، والشرائع البيولوجية ، ثم جمعنا كل هذا في حصيلة علمية هائلة ، ثم صغناها في معادلات ونظريات وقوانين ، فإن المعادلة والقانون يأخذان بأيدينا ، ويرشدانا إلى توقعات وحقائق كثيرة لا تستوعبها حواسنا ، لأنها تقع فيما وراء حدودها . ثم إن هذه المعادلات والقوانين ليست من بنات أفكارنا ، بل هي منبثقة من النظم التي تمتد فينا وحولنا بغير حدود ، لكنها لا تتجلى إلا لكل من

تأمل ودرس وجمع فأوعى .. والعلم يقوم حقا على هذه الأسس القويمة .

قدما ألبس الناس ثوب الولايات والكرامات والمعجزات لمن ينبتهم عن أمور طبيعية خافية عن مداركهم .. ومثال واحد يكفي لتوضيح ذلك ، إذ عندما يشح المطر الذى تعتمد عليه حياة الزرع والضرع ، كان الناس يتوسلون إلى رجل يعتقدون أنه ذو كرامات ودعوات مستجابة ، ويطلبون منه أن يدعو ربه ليجود عليهم بالمطر ، فينبئهم بأنه سيذهب فى خلوة إلى سفح جبل ، وقد يمكث هناك أياما قد تطول ، وعندما يراقب الجو ، ويتطلع إلى السحب ، فإنه - بخبرته الطويلة - يعرف السحابة المطيرة من السحابة غير المطيرة ، ولا بد أن يكون أيضا على علم باتجاهها ، فإن كانت قادمة نحو أرض قومه ، أسرع بالتزول من سفح الجبل ، وهو يهال بقدم الخير ، ونزول المطر ، وبالفعل يمر السحاب المطر بعد دقائق أو ساعات ، ويسقط من مائه ما يسقط ، ويرجع الناس ذلك إلى بركات وليهم ، فيصبح بينهم ذا شأن عظيم ، أو قد لا يسقط المطر فى أحيان قليلة ، وعندئذ يكون الجواب جاهزا ، والجواب : أن الله غاضب عليهم ، ولا بد من إرضائه ، حتى يرضى عنهم ، ويجود عليهم بما تهواه أفئدتهم .

وطبيعى أن مثل هذه الأمور لا تجد قبولا إلا فى المجتمعات التى لا تعرف عن الظواهر الطبيعية شيئا ، فلأمطار - كما هو معروف - مواسم ، ولسقوطها عوامل ، ولسحبها ظواهر ، فالصياد على شاطئ البحر مثلا يعرف بخبرته الطويلة إن كانت السحب التى تبدو من بعيد فى الأفق مطيرة أو غير مطيرة ، وهل ستصاحبها عواصف رعديّة ، أم أنها ستمر مر الكرام ، وبهذا يقرر إن كان سيتزل إلى البحر بقاربه ، أو لا يتزل ، وليس فى ذلك ما يفضى على الصياد ولايات ولاكرامات .

وطبيعي أن الصياد محدود المعلومات ، وهو لا يعرف من أمور المناخ ما يعرفه العلماء مثلاً ، لأن للطقس وتغيراته وعوامله الكثيرة المؤثرة فيه علماً قائماً بذاته . والتنبؤ بحالة الجو لم يعد يخضع للتكهنات والدعوات . بل إن الإنسان ذاته لم يعد يعتمد على حواسه وخبرته في هذا المجال ، فقد لا يتعدى تنبؤه بالوسائل التقليدية عدة ساعات . لكن الأمر يختلف الآن اختلافاً جذرياً ، إذ أصبح يكمل عمل محطات الأرصاد الجوية التي تسجل سرعة الرياح واتجاهها والضغط الجوي ودرجة الحرارة ... الخ بقمر صناعي أو أكثر من ذلك النوع الذي يسجل كل كبيرة وصغيرة عن حالة الطقس ، ويرصد كل أنواع السحب والعواصف والرياح والضغط والحرارة .. الخ . وكانت الأقمار في البداية تعطي تنبؤات جوية صحيحة لمدة يومين ، زادت إلى ثلاثة فأربعة فسته . حتى وصلت الآن في بعض الأحيان إلى أيام عشرة . أى أن هذه الطرز الجديدة والمتطورة من أقمار الأرصاد تستطيع عن طريق القياسات المستمرة والضخمة أن تبعث إلى الأرض يوميًا بحوالي ثمانية ملايين معلومة أو تسجيل مصور وغير مصور . وطبيعي أن هذا السيل الجارف من المعلومات لا تقدر على تحليله هيئة علمية كاملة ، حتى ولو اجتمعوا لها . فكان لابد من وجود حاسبات إلكترونية متطورة ، « لتهم » هذه المعلومات ، وتبعث بنتائجها في التو واللحظة . فتنبأ ... عن طريق ملايين العمليات الحسابية والمعادلات - بسقوط الأمطار أو صفاء الجو ، أو رصد الأعاصير المدمرة ودرجاتها وتحركاتها ، وتحذير الناس من أخطارها ، في البر والبحر والجو . وعن طريق هذا التنبؤ العلمي القائم على أساس متين يثق الناس في المعلومات الواصلة إليهم ، فكثيرها يصيب ، وقليلها يخيب . وترجع خيبتها إلى الإنسان نفسه ، لأنه لا يستطيع أن يبلغ نهاية علومه ، أو يزود قمر الأرصاد الصناعي بكل صغيرة وكبيرة . ومع ذلك ، فبمزيد من

الدراسات والبحوث والتحصيل ، سوف تتطور المعلومات . وينعكس ذلك على إتقان في التنبؤات .. صحيح أننا لا نهم بذلك كثيراً . لأن الطقس في منطقتنا لا يشكل لنا أخطاراً كبيرة . لكن هذه المعلومات هامة جداً بالنسبة للمطارات والطائرات والبواخر والرحلات . كما أنها تحذر الناس من الأعاصير العاتية . والفيضانات المدمرة ، فيتخذون حيطتهم . أو قد يهجرون مواطنهم ، حتى يمر كل شيء دون أن تتعرض حياتهم للأخطار .

إذن فالتنبؤ هنا بما سيصير عليه الطقس العام لكوكب الأرض لأيام قادمة ليس زجراً بالغيب . بل ينبع كل هذا من علوم لها أصولها وتطبيقاتها وحساباتها ومعادلاتها . ثم هي فوق ذلك تتبع النواميس الطبيعية التي أرساها الله في جو الأرض ليسرى فيه كل شيء بحساب ومقدار . ثم إنه من الأسباب الأساسية التي تؤدي إلى عدم دقة تنبؤاتنا الجوية في بعض الدول العربية ما يرجع أولاً إلى قصور في أجهزة التسجيل المتطورة ، أو عدم وصول المعلومات الدقيقة إلى إداراتها المركزية في حينها (نتيجة لعطل في الخطوط الهاتفية أو غياب العامل أو الراصد من منطقته النائية) . ثم إن المعلومات ذاتها قليلة . ولا تَمَسُّحُ إلا مناطق محدودة ، وهذا من شأنه أن يزيد نسبة الخطأ على الصواب ، في حين أن العالم المتقدم يضع نصب عينيه صقل أجهزته ومعلوماته . بحيث تصبح نسبة صحة التنبؤ في كل الحالات ٩٩ ٪ . أو ربما أكثر . ثم إن المعلومات جاهزة في أية دقيقة أو ساعة بالليل والنهار . وميسرة لأية بقعة في البر والبحر والجو . وكل ما يطلبه الإنسان هنا يستجاب ، ليعرف في أسفاره رأسه من قدمه ، ثم يقدر لرجله قبل الخطو موضعها .

التنبؤ بالحركة والزمن :

كان الأقدمون فى صلواتهم وصيامهم يعتمدون على الرؤية المباشرة فى رصد الشمس والقمر ، وكانت المواقيت تقريبية .. أى ليست بالثانية والدقيقة كما هو الحال معنا الآن .. ونحن نعتمد كل الاعتماد على نتائج الحائط أو الجيب ، ونتق بها ثقة تامة فى مواعيد الصلاة وأوائل الشهور العربية خاصة ، وأيام الأعياد . ليس هذا فحسب ، بل إن هذه المواعيد تختلف من دولة إلى دولة ، أو من بلد إلى بلد فى الدولة ذاتها . ولهذا نسمع كثيرا هذه العبارة من أجهزة الإعلام « مع مراعاة فروق التوقيت » .

والواقع أن هذا نوع من التنبؤ الزمنى ليس لعام واحد فقط ، بل أنه يمكن حسابها لألف عام قادمة ، أو ربما للمليون أو حتى لألف مليون عام . هذا لو استمرت حياتنا أو حياة كوكبنا وشمسنا كل هذا العمر الطويل . لكن التنبؤات تدل على أن شمسنا سوف تبقى ساطعة قائمة لخمسة آلاف مليون عام قادمة ، مما يترتب عليه وجود الأرض بما عليها من صور حياة قد تختلف فى قليل أو كثير عن صور الحياة التى نعرفها فى أرضنا الآن .

أوليس هذا إمعاناً فى الخيال ، أو ثقة فى العلم ليس لها ما يبررها ؟ .. ثم ما يدرينا أن الشمس سوف تعمر « بكامل صحتها » لخمسة آلاف مليون عام قادمة ؟

الواقع أنه تنبؤ علمى له أيضا أساس .. إن علماء الفلك الآن لهم مراصد جبارة متطورة ، ذات عيون فائقة ، أقوى من العين البشرية بمليون مرة ، ولهذا تستطيع أن ترصد وترى « ما لا عين رأت » ، وتعمق فى الكون الضخم لمسافة ١٥ ألف مليون سنة ضوئية (هذا والسنة الضوئية هى حاصل ضرب عدد الثوانى

فى السنة الواحدة \times سرعة الضوء وتساوى ١٨٦ ألف ميل فى الثانية - أى أن السنة الضوئية مسافتها حوالى ... ر... ر... ر... ر ٦٠ ميل - أى ستة ملايين مليون . ثم اضرب هذا فى ذلك ، أى الرقم الضخم السابق فى ١٥ ألف مليون سنة ، تحصل على أرقام كونية لا تتصورها عقولنا القاصرة) .. وبهذه المناظير الفلكية يرصدون ملايين البلايين من المجرات والنجوم . فمنها ما يحتضر ، ومنها ما يولد ، ومنها ما زال شاباً .. ثم إن التنبؤ بموت هذه الشمس أو النجوم الضخمة له معادلات وقوانين تتمشى مع نواميس كونية لا خلل فيها ولا فروج .

نعود إذن إلى حالة ذلك الرجل الذى إذا منعنا عنه الشراب أياماً ، أو الطعام شهراً أو شهرين فلا بد أن يستهلك مخزونه ويموت .. إن ذلك أمر طبيعى .. وكذلك الحال مع النجوم ، فلها أيضاً مخزون ضخم جداً من غاز الأيدروجين . وهو بمثابة طعامها الذى تعيش عليه وتستهلكه بمعدلات ثابتة ، فإن كانت فيه مسرفة ماتت بسرعة . وكلمة « سرعة » هذه نسبية ، لأنها تعنى فى حياة النجم أو الشمس عشرات ومئات الملايين من السنين . فى حين أن عمر شمسنا الشابة الآن يقع فى حدود خمسة بلايين من الأعوام ، ولديها رصيد ضخم من الأيدروجين تعيش عليه لمدة خمسة بلايين عام أخرى . ثم إنها من النجوم المتوسطة وزناً وحجماً ، كما أنها لا تبذر ولا تقتر فى مخزونها ، ومع ذلك فلا بد أن تسرى فيها الشيخوخة بطيئاً ، إلى أن تستهلك معظم رصيدها . وعندئذ لا تستطيع أن تدير دفة حياتها ، فتبرد وتتحول إلى نجم عملاق أحمر ، وهنا يحل الموت بأرضنا تبعاً لذلك ، فنحن نعتمد عليها - أى الشمس - بما « ترضعه » لأرضنا من ضوء وحرارة . فإذا انقطع هذا الرصيد من الطاقة ، جاءتنا الطامة ، وتحول كوكبنا إلى كتلة من الجليد الذى لا يساعد على أية صورة من صور الحياة .

إن كتلة الشمس معروفة ، وحجمها مقدر ، ومخزونها من الأيدروجين معلوم ، واستهلاكها محسوب .. فهي مثلاً تستهلك في كل ثانية ثمر من عمرها حوالى أربعة ملايين طن من غاز الأيدروجين .. احسب بعد ذلك ما تستهلكه في عام ، أو في مليون عام ، أو ما استهلكته في خمسة بلايين عام حتى الآن .. تجدها كميات ضخمة غاية الضخامة . ومع ذلك فلا يزال لديها مخزون من الأيدروجين يصل إلى حوالى ٩٨ ٪ من كتلتها الحالية . هذا وتشير الحسابات الدقيقة إلى أن كتلة الشمس تقع في حدود رقم خيالى هو ر..... ر..... ر..... ر..... ر..... ر..... ر (أى بليون بليون بليون طن) ، وقطرها في حدود ١٤ مليون كيلومتر. أى أنها أكبر من أرضنا بحوالى ٣٣٠ ألف مرة .

ونحن لا نريد أن نسترسل هنا في مزيد من الحسابات ، ولا أن نعرض عليك العناصر الأخرى التى تتكون منها الشمس ، ونسب هذه العناصر .. فكل هذا مدروس ومعروف عن طريق وسائل علمية ، تساعدنا أجهزة حساسة تسجل ما يجرى فى الشمس . وتقدر النفايات التى ستجعلها تختصر بعد بلايين السنين ، تماما كالنفايات التى تتجمع فى الدماء ، ولا تستطيع لها الكليتان المعطوبتان تصريفاً ، فتصيب الإنسان بغيوبة تؤدى إلى موت .. هذه صورة ، وتلك أخرى :

اليوم سيصبح ٣٦ ساعة :

إن علماء الفلك مثلاً يستطيعون التنبؤ بما سيصير عليه الليل والنهار بعد خمسة آلاف مليون سنة مثلاً . إنهم يتنبأون بأن اليوم بعد هذا العمر الطويل لن يكون ٢٤ ساعة بحساباتنا الحالية . بل سيصير ٣٦ ساعة كاملة . وهذه الحسابات

لا تأتي هكذا اعتباطا ، لأن العوامل الكثيرة التي تتسلط على أرضنا تؤدي إلى إبطاء سرعة دوران الأرض حول نفسها . ومن هذه العوامل يبرز الاحتكاك الكائن بين غلاف الهواء والأرض ، والمد والجزر الذي ينتج من جذب الأرض للقمر أو القمر للأرض .. الخ . وإبطاء الحركة ينعكس على إبطاء في الزمن . وبحيث يؤدي ذلك إلى جعل يومنا هذا أقصر من غدنا بحوالى ٢٥ . ر ... ر ... ر . ثانية (أى ٢٥ جزءا من ألف مليون جزء من الثانية) . أو أن اليوم الآن سيكون أقصر من اليوم الذى سيأتى فى عام ٢٠٨٠ بجزءين اثنين من ألف جزء من الثانية . وبعد ألف عام يطول اليوم ليصبح أطول من يومنا بجزءين اثنين من مائة جزء من الثانية .. الخ .

إن العلماء الذين يتعاملون مع قوانين الكون ، ونواميس الوجود ، هم وحدهم الذين يعلمون أنهم أمام أفلاك متقنة ، وأزمنة محدودة ، ودورات مقننة .. ثم إنهم يعلمون أيضا أن الزمن حركة . وأن الحركة زمن .. فلولا حركة الأرض أو دورانها حول نفسها لما عرفنا شيئا اسمه زمن ، ولا كان هناك ليل أو نهار ، ولا شروق أو ظهيرة أو غروب ، ولا مواعيد صلاة أو فصول ، ولعشنا فى ليل سرمدى ، أو نهار سرمدى . وعندئذ لن يكون لحياتنا معنى ، ولا للزمن مغزى .

ولقد اقتبسنا من حركة الأرض أو زمنها (أى تعاقب الليل والنهار والفصول .. الخ) حركة أخرى أودعناها فى تروس وعقارب لتتحرك بدورها حركات إيقاعية تفصلها فترات زمنية نعرفها فى حياتنا بالثانية (أو حتى جزء من الثانية) والدقيقة والساعة واليوم والشهر . وعندئذ نشعرنا بمرور الزمن إذا غم علينا سريان هذا الزمن فى ليل أو نهار ، أو حتى لو كنا فى بروج مشيدة .

وكما تعتمد تروس الساعة على بعضها ، وتؤثر في ميكانيكيته ، كذلك تكون الأجرام السماوية . فكيفها ووجودها وزمنها يعتمد على حركات وجذب وطرده وغير ذلك من قوى تجعل كل ما في الأرض والسماوات موزونا وقائما بغير عمد تروتها . وعلى أساس هذا التعادل أو التوازن المتقن جرت معادلات العلماء وحساباتهم ، لتوضح لنا أن كل شيء في الكون يسرى بحساب ، ويجرى بمقدار .. ولهذا كانت تنبؤات علماء الفلك ذات شأن يذكر ، لأنهم يبنون حساباتهم ومعادلاتهم على أساس نظام متقن .. « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »

(يونس .. آية ٥)

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا » (١٢) .

(الإسراء .. آية ١٢)

« وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ^(٣٨) . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ^(٣٩) . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ^(٤٠) »

(يس آية ٣٨ - ٤٠)

إلى آخر هذه الآيات التي توضح أن كل شيء مقدر تقديرا مذهلا . ومنه نستطيع أن نحسب الزمن ، ونعرف عدد السنين والحساب .. والحساب هنا قد يعنى المعادلات التي نستخدمها في التنبؤ بأمور لا يستطيع أن يجادل فيها مجادل إلا بالحق ، لأنها تقوم على الحق .

فن الحسابات المعقدة التي يجرها العلماء على « ميكانيكا » الأجرام السماوية المتقنة ، يستطيعون التنبؤ مقدما بعدد مرات الكسوف والخسوف التي ستحدث في كل سنة ، أو ربما لعشرات أو مئات السنوات القادمة – لو أرادوا ذلك – ليس هذا فحسب ، بل بمقدورهم التنبؤ بموعد هذا الكسوف أو الخسوف بالشهر واليوم والساعة والدقيقة والثانية . بل وتحديد مكان حدوث هذا أو ذاك ، وتقدير الزمن الذي يستغرقه الكسوف والخسوف ، وهل سيكون كلياً أو جزئياً ، ومن سيراه من أهل الأرض .. الخ . وكل هذا نعرفه ونعاينه ونعيش فيه ، ولا نستطيع أن نجادل في صحة هذا التنبؤ .

ولكى ندلل على صحة ذلك ، كان لابد من تقديمنا لكسوف شمس سوف يحدث في عام ٢١٨٦ ، أى بعد مرور ١٩٨ عاما من الآن . ففي موقع محدد بجنوب المحيط الأطلنطي سوف يسجل العلماء في هذا الزمان أطول كسوف لم يحدث مثله منذ مئات السنوات ، إذ ستكسف الشمس لمدة سبع دقائق و٢٨ ثانية في يوم ١٦ يوليو عام ٢١٨٦ – أطال الله في أعماركم .

وحتى المذنبات التي تقترب من الأرض كل عشرات أو مئات أو آلاف السنوات لها حساباتها وتقديراتها ودورانها في أفلاكها . ومن هنا يمكن التنبؤ بموعد ظهورها لتمر قريبة من أرضنا .. هناك مثلاً أكثر من مليوني مذنب ، تختلف سرعتها ما بين ١١٢٥ كيلومتراً في الساعة إذا سبحت في فضاء المجموعة الشمسية ، لتبتعد عنها بعشرات البلايين من الأميال ، ثم تدور وتعود إلينا بعد أزمنة مختلفة . كل هذا يتوقف على سرعتها واتساع مداراتها ، حتى إذا اقتربت من أرضنا أو شمسنا زادت سرعتها بحيث تصل إلى حوالى مليوني كيلومتر في الساعة الواحدة .. والتنبؤ بعودة هذه المذنبات لتمر بالقرب من الأرض ليس

تهريفا . فذنب « هالى » المعروف سوف يظهر فى تمام الساعة التاسعة والنصف من مساء ٩ فبراير عام ١٩٨٦ ، ثم يتعد ويختفى ، ويعود مرة أخرى بعد ٧٦ عاما فى المتوسط ، فى حين أن المذنب المعروف باسم « أ » لن يعود إلينا إلا بعد مرور أربعة ملايين عام .

والمعادلات تنبأ بأمور مجهولة :

ومن أروع النبوءات التى تحققت ، وكشفت عن ألغاز لم يهتد الإنسان إليها بفكره أو حواسه ، تلك التى تنبأت بها بعض المعادلات الرياضية .. أى كأنما المعادلة هنا بمثابة « حجر رشيد » الكون . فعن طريق حجر رشيد الذى سجلت عليه بعض اللغات القديمة ، واكتشفه شامبلون أثناء الحملة الفرنسية على مصر ، ثم فك رموزه ، تكشفت لنا فيه أصول اللغة الفرعونية القديمة ، واستطعنا أن نعرف تاريخ الفراعنة ، ونقرأ آثارهم .. صحيح أن هذه اللغة لا تعنى شيئا لمن يجهل أصولها . وكذلك تكون لغة المعادلات الرياضية لمن لا يعرف فحواها . وأحيانا ما تشير هذه المعادلات إلى حقائق لا يستطيع من توصل إليها التنبؤ بما يمكن أن تنطوى عليه من تطبيقات لها خطورتها . وهنا يحضرنا قول جاليليو « لقد كتبت الطبيعة كتابها المجيد بلغة المعادلات الرياضية » .

خذ على سبيل المثال معادلة البرت اينشتاين الخاصة بالمادة والطاقة . والمعادلة بسيطة للغاية ، وهى إحدى نواتج نظرية النسبية الشهيرة . ومضمون المعادلة نكتبه هكذا :

$$ط = ك \times س^2$$

إنها هنا تشبه البلازم ، لكن دعنا نترجم هذه البلازم إلى لغتنا لتصبح
هكذا :

$$\text{الطاقة} = \text{الكتلة} \times \text{مربع سرعة الضوء}$$

وهذا يعني أننا لو حصلنا على كتلة من أية مادة ، ولتكن كيلو جراماً واحداً ، ثم ضربناها في سرعة الضوء بالسنتيمتر في الثانية (وهذه معروفة) ، ثم ضربنا هذه السرعة في نفسها مرة أخرى ، فإن ذلك يساوي كمية الطاقة الناتجة من كيلو جرام من المادة مقدرة « بالأرج » .

دعنا إذن نترجم ذلك بالأرقام ، ولتكن الكتلة بالجرام وسرعة الضوء في الثانية بالسنتيمتر :

$$\text{الطاقة في كيلو جرام} = 1000 \times 300000000000 \times 300000000000$$

$$= 900000000000000000000 \text{ أرج}$$

والأرج وحدة من وحدات قياس الطاقة .. فإذا يعني هذا الرقم الضخم حقاً ؟

• يعني أن كل كيلو جرام من المادة لو تحول إلى طاقة لمنحننا ٢٥ ألف مليون كيلوات ساعة .

• ويعني أنها أيضاً تعادل الطاقة التدميرية الناتجة من تفجير ٢٢ ألف مليون طن من مادة ت . ن . ت . شديدة الانفجار .

• ويعني أن الطاقة الناتجة من كيلو جرام من المادة كافية لتموين سيارة بطاقة تكفيها للدوران حول العالم ٤٠٠ ألف مرة . وتقطع بها ١٦ ألف مليون

كيلومتر ، ولو سارت السيارة بسرعة ١٠٠ كيلومتر في الساعة ، فإنها تظل تدور وتدور لفترة ١٦ ألف عام وبدون توقف .

وعندما خرج اينشتاين بهذه المعادلة ذات الحروف أو الرموز الثلاثة عام ١٩٠٥ سأله سائل : أنت يا سيد اينشتاين تزعم أن الطاقة الكامنة في حفنة من الفحم أكبر من طاقة (أو قوة) كل سلاح الفرسان بالجيش البروسي (الألماني) .. فإذا كان ذلك صحيحا .. كما تدعى من خلال معادلتك الغربية - فلماذا إذن لم نلاحظ ذلك ؟ .. ويجب اينشتاين : لأنها طاقة كامنة ولا أحد يلحظها .. ثم يتساءل آخر : وهل تتنبأ بأن المادة ستتحول إلى طاقة ، لتعطينا قوة دافعة لا يحلم بها أحد ؟ .. ويرد اينشتاين : ليست لدى نبوءات أو أفكار أو أدلة على إمكان تحقيقها .

ولقد تحققت النبوءة التي لم يكن يحلم بها اينشتاين ولا غيره . فالطاقة النووية الآن ملء السمع والبصر . كما أن حياة الشمس والنجوم ، وما ينطلق منها من إشعاعات عاتية ، تقوم أساسا على ما تنبأت به تلك المعادلة .

وفي عام ١٩٢٨ خرج العالم الإنجليزي الشاب بول ديراك بمعادلات رياضية تتناول حركة أليكترون وحيد في الفراغ .. إنه نوع من التصور المنطقي الذي يتناول أسرار المادة والطاقة عن طريق صياغتها في معادلات رياضية . ولقد جاءت معادلة واحدة من معادلاته الأربعة لتطرح بكل ما وقر في العقل ، أو حدثنا به المنطق . ولن نتعرض لأصول المعادلة هنا ، لأن معناها أعمق وأعوص مما تتصوره العقول ، لكن يكفي أن نذكر أن المعادلة قد تحدثت عن إمكان وجود أليكترون ذي زمن معكوس ، أو أنه يسير إلى الوراء ضد الزمن . كما أن الطاقة التي تحركه طاقة سالبة . ونحن لا نعرف في حياتنا ، أو لم نشهد شيئا ينطلق

بطاقة سالبة ، فعنى أنك تركل كرة قدم بشدة ، معناه أن الكرة سوف تندفع إلى الإمام بطاقة موجية ، لكن المعادلة التي تشير إلى طاقة سالبة ، تعنى أنك إذا ركلت الكرة بطاقة سالبة لتدخلها داخل الملعب فإنها لا تدخل ، ولا تطيع أصول قوانين الحركة المعروفة . بل نراها تنطلق في الاتجاه المعكوس ، أى خارج الملعب ، رغم أنك ركلتها لتدخل الملعب .

وهذه بلا شك نتيجة غير معقولة ، وديراك نفسه لم يستطع أن يهضم هذه النتيجة كثيرا ، وحاول أن يخرج من هذا المأزق العويص ، خاصة أنه يعلم أن تحليلاته الرياضية لا غبار عليها . ولقد اعتبرها علماء الرياضة بمثابة « نكتة » رياضية لا طعم لها ولا معنى ، وظل يبحثه على رف في إحدى المكتبات طوال سنوات أربع ، فلا فائدة فيه ولا مأرب . ولقد كان يساور ديراك الشك في إمكان وجود لغز خفي في الكون لم تفتح عليه العقول بعد ، إذ كان يظن أن معادلاته الغريبة ربما تشير إلى وجود أليكترون آخر ، لكنه ينجح نهجاً مختلفاً ومعاكساً ومضاداً للأليكترونات التي نعرفها في عالمنا .. أى أنه ببساطة معكوس الصفات .. تماما مثل الصورة «السالبة» Negative والصورة «الموجبة» Positive ، فاليمين في هذه يبدو يساراً في تلك ، والأبيض في إحدهما يظهر أسود في الأخرى .. ليس هذا فحسب ، بل إن ديراك تنبأ أيضا بأن الأليكترون وضده أو نقيضه أو صورته الأخرى المعكوسة إذا تقابلا «أكل» أحدهما الآخر وأفناه ، لكن لا شيء إلى فناء ، إذ أن هذا اللقاء العنيف يجعلها يتخيلان عن تجسيدهما المادى ، وينطلقان على هيئة موجات كهرومغناطيسية لا زمان لها ولا مكان .

إنها نبوءة لا شك غريبة . ولهذا كتم ديراك السر بين جوانحه على مضمض ..
لكن هل تحققت نبوءته ؟

نعم .. فبعد أربع سنوات إكتشف ثلاثة من العلماء فى الأشعة الكونية أن للأليكترون الذى نعرفه فى عالمنا نقيضا . ولقد ظهر هذا النقيض على الألواح الحساسة ، لكنه ما لبث أن تلاشى فى لحظة خاطفة ، تلاشى عندما تقابل مع نقيضه .. أى الأليكترون الذى يدخل فى تكوين ذرات عالمنا ، وتخليا بذلك عن صورتها المادية إلى صورة موجية .

إن هذا يعنى ببساطة شديدة أن الموجات الكهرومغناطيسية ذات الطاقات العالية يمكن أن تتجسد فى جسيمات بعضها لبعض عدو مبین .. أى أن الطاقة مادة ، وأن الماد طاقة ، أو أنها وجهان لحقيقة واحدة .. أى أن الطاقة تتجسد ، والمادة تتموج .

وتحققت النبوءة ، واستحق ديراك على ذلك جائزة نوبل .

ورغم أن الذرة دقيقة غاية الدقة ، إلا أنها كون عظيم قائم بذاته .. كون تحكمه المعادلات والقوانين الراسخة . وطبيعى أن أحدا لم يشهد ذرة على حقيقتها ، حتى لو كبرناها مئات الألوف من المرات . ولهذا يتعامل العلماء معها على أساس من المعادلات التى لا يقدر على صياغتها إلا عقول على درجة كبيرة من الألمعية والذكاء والإلهام . ولقد تنبأت هذه المعادلات بوجود نظم وجسيمات ذرية كثيرة . وطبيعى أن هذه المعادلات تبقى حبرا على ورق ، ولن تظهر أصلاتها إلا إذا تحققت .

خذ لذلك مثلا للتوضيح .. تخير العلماء مثلا فى النظام الذى يمكن أن توجد عليه نواة الذرة ، فهى تتكون من عدد من الجسيمات ذات الشحنتات الموجبة . ومعروف أن الجسم الموجب يطرد الموجب من مجاله بقوة جبارة ، فكيف إذن يجتمع شمل هذه الجسيمات المتنافرة فى نواة الذرة ، ودون أن تنفجر

وتتحطم ؟ .. ليس هذا فحسب ، فالقوى التي تمسك هذه الجسيمات وتؤلف بينها قوى ضخمة غاية الضخامة ، ويكفى أن نعرف ماذا يعنيه تفجير الطاقة النووية ، وما ينتج عن ذلك من طاقات رهيبية يحسب لها العالم ألف حساب وحساب .

وأمسك علماء الرياضيات بورق وأقلام ، وانسابت عصارة أفكارهم لتسجل بالمعادلات والحسابات الدقيقة أسرار هذا الكون غير المنظور . لعل ذلك ينبئهم بوجود شيء لم يتوصل إليه علماء الذرة التجريبيون .. وفي عام ١٩٣٥ خرج عالم الرياضيات الياباني الشاب هيديكي نبوءة عن جسيم جديد يقوم في النواة « كرسول » سلام يجمع بين « قلوب » الجسيمات المتنافرة ، ذات الشحنات الكهربائية المشابهة ، ويؤلف بينها في نظام مذهل لا تستوعبه عقول الرجال .

الغريب أن هيديكي قد حدد أن كتلة الجسيم المرتقب تتراوح ما بين ٢٠٠ - ٣٠٠ مرة قدر كتلة الأليكترون (كتلة الأليكترون تساوى جزءًا واحدًا من ألف مليون مليون مليون جزء من الجرام - المليون مكررة أربع مرات) ، وأنه أصغر من كتلة البروتون بحوالى ٦ - ٩ مرات . ولهذا أطلق عليه اسم « الميزون » ، والميزون كلمة يونانية معناها « الوسط » أى أن كتلته جاءت وسطًا بين هذا وذاك ... ليس هذا فحسب ، بل إن نبوءة معادلاته أشارت إلى أن هذا الجسيم لو خرج من نواة الذرة إلى عالمنا ، فلن يستطيع أن يعيش فيه إلا فترة زمنية جد قصيرة .. أى جزءًا واحدًا من أربعين مليون جزء من الثانية .. وأسرار أخرى ليس لها هنا مجال .

ولقد كانت معادلات هيديكي صعبة عويصة ، وكانت تعقيداتها تصيب رءوس علماء الرياضيات بالصداع . ولهذا حور الظرفاء منهم اسم هيديكى إلى

هيديك Headache أى الصداع. لكن هذا الصداع قد حصل على جائزة نوبل بعد ١٤ عاماً ، إذ تحققت نبوءته عندما حطم العلماء التجريبيون « قلب » الذرة ، وخرج منها الميزون المرتقب ، وبالمواصفات التى تنبأ بها اليابانى .
والواقع أن هذه التنبؤات كثيرة ، إذ يكفى أن نذكر أن عدد الجسيمات الذرية قد وصلت حتى الآن إلى أربعين جسيماً ، ومعظمها كان غير معروف ، لكن الفضل يرجع فى اكتشافها إلى التنبؤات الرياضية التى قام بها علماء أفذاذ . وكثير منهم حصل على جائزة نوبل تقديراً واعترافاً بفضلهم فى اكتشاف هذا العالم المجهول .

ثم إن بعض كواكب المجموعة الشمسية البعيدة لم تكتشف بالمرصد الفلكية مباشرة ، بل إن المعادلات الرياضية قد تنبأت أيضاً بوجودها مقدماً .. فكوكب « أورانوس » قد اكتشف بالمرصد الفلكى عام ١٧٨١ على يدى العالم الفلكى سير وليام هرشيل ، لكن هذا الكوكب الذى يبعد عن الشمس ١٧٨٢ مليون ميل ، كان يبدو فى حركته ودورانه وكأنما هو « بهتر » و « يترنح » .. أى أن مساره لم يكن دقيقاً ، وقد يرجع ذلك إلى وجود كوكب آخر غير معروف ، وربما كان هو المسئول عن ذلك . ولقد تنبأ عالم رياضى انجليزى شاب يدعى جون آدامز فى عام ١٨٤٥ بوجود كوكب آخر فيما وراء « أورانوس » . وبالمعادلات الرياضية حدد مكانه ، وأسر إلى اثنين من أساتذته بتنبؤاته ، إلا أن أحداً منها لم يحمل نبوءته على محمل الجد ، ربما لحدائثة سن الشاب ، أو لأنه فلكى مغمور . لكن عالم الفلك الفرنسى جان جوزيف لوفيريه توصل إلى نفس الحسابات بعد ذلك بعام واحد . وعندما أعلنتها ، لم يشك أحد فيها ، لأن لوفيريه كان فلكياً مرموقاً . وعندئذ قام عالم الفلك الألمانى يوهان جوتفريد جال بتوجيه نظاره الفلكى إلى الجهة التى تنبأت بها حسابات العالم الفرنسى .

وبالفعل وجد الكوكب وأطلق عليه اسم نبتون . وتحققت بذلك النبوءة .
وذهب شرف الاكتشاف إلى الفرنسي دون الإنجليزي . ومع ذلك فلا يزال
علماء الفلك الحاليون يعترفون بالأفضال للشباب الإنجليزي .

ومرة أخرى يلاحظ علماء الفلك حركة نبتون في مداره . وكأنما هذه
الحركة تتأثر بجسم آخر غامض . ودرس عالم الفلك الأمريكى بيرسيفال لوييل
الأمر ، وأجرى في ذلك حساباته . وكانت نبوءته تنصب على وجود كوكب آخر
فيما وراء نبتون ، واقتنع معه بهذا الرأى البروفيسور ويليام بيكرنج من جامعة
هارفارد . وقام الاثنان بتحديد موقع الكوكب على الورق فقط . وأطلقا عليه
اسم كوكب « أكس » أو « س » . وظل لوييل يبحث بمظاره الفلكى الخاص
عن الكوكب المزعوم ، وطال بحثه دون أن يتوصل إلى شيء . ثم وافته المنية عام
١٩١٦ . لكن بعد أن نشر بحثه الذى ضمنه موقع الكوكب ، والحسابات
الفلكية الدالة على ذلك .. وبعد ١٤ عاما من وفاة لوييل ، تحققت نبوءته ،
واكتشف عالم الفلك كلايد تومباو من جامعة أريزونا آخر كوكب من كواكب
المجموعة الشمسية وأبعدها ، وأطلق عليه اسم « بلوتو » . ولقد كان بعده عن
الشمس ، وصغر حجمه (نصف حجم الأرض) من الأسباب التى جعلته
لا يرى إلا بصعوبة بالغة ، إذ أن دورته حول الشمس كانت تتم كل ٢٤٨
عاما ، وكان يدور في مدار يضاوى يبعد عن الشمس في المتوسط بمقدار
٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٣٧٠٠٠ ميل .

التنبؤ الصعب والمثير :

والواقع أن التنبؤ بكثير من الاكتشافات العلمية قد لا يستلزم الإمساك بورق
وأقلام لتنصب عصارة الأفكار على هيئة معادلات رياضية ، لتوضح النظر

البديعة التي تقوم عليها الأكوان الصغيرة والكبيرة - أى الذرات والأفلاك - بل إن التصور أو الخيال قد يلعب دوراً هاماً في ذلك ، خاصة فيما يتعلق بمستقبل الحياة على هذا الكوكب . لكن الخيال هنا نوعان .. نوع منه خيال محض ، أو هو ممعن في تصورات لا تقوم على أساس متين . وهذا قد لا يتحقق على الاطلاق ، لأنه فوق طاقة الإنسان ، أو يقع فيما وراء حدودنا العلمية . ومجال ذلك يقع في الروايات السينائية التي تسلي الناس وتثيرهم ، وتشخذ خيالهم .. فالتنبؤ الذى يشير مثلاً إلى نجاح العلم في المستقبل في نقل الإنسان أو الأشياء من مكان إلى مكان بسرعة الضوء - أى بسرعة ١٨٦ ألف ميل في الثانية ، هو نوع من التنبؤ الخرافى ، حتى ولو تأسس ظاهرياً فقط على فكرة علمية .. فن ذا الذى يستطيع أن يحول الإنسان مثلاً من صورته المادية الحية ، إلى موجات كهرومغناطيسية ، تنطلق بدورها بسرعة الضوء ، ثم تتجمع في مكان آخر ، وتحول من حالتها الموجبة إلى جسيمات فذرات فجزئيات فخلايا فأنسجة فأعضاء ، فخلق حى كامل بشحمه ودمه ولحمه وعظامه ؟ .. إن مجرد تصور ذلك يصيب العقل الناضج بالدوار . ثم إن فكرة عودة إنسان ميت إلى الحياة مرة أخرى بعد أن تحلل إلى غازات وعناصر وتراب ستكون أيسر شأنًا ، وأقرب منالاً من فكرة تحويله إلى موجات ، ثم جمعها على هيئة مادة حية بعد ذلك .. فالعلم يعجز حاضراً ومستقبلاً عن تحويل جسيمات ذرة كربون أو نيتروجين أو فوسفور .. الخ إلى موجات كهرومغناطيسية ، ثم يعيدها سيرتها الأولى .. أى إلى جسيمات في نواة ، تدور حولها أليكترونات .. فبالك بخلية حية واحدة تتكون من بلايين فوق بلايين من الذرات والجزئيات التي تنتظم بطريقة فذة لا نستطيع حتى الآن محاكاتها .. ودعك إذن من انتظام الموجات في أنسجة وأعضاء لتصبح كائناً سويًا ... إن هذا - بلا شك - نوع من التنبؤات الرديئة ، وإن كانت تفوح منها

بعض رائحة العلم الخاصة بالطاقة والمادة .. أو ربما تكون أردأ من قصة « طاقة الاخفاء » التي رأيناها في الروايات السينمائية .. إن هذا وغيره خارج عن نطاق التنبؤ العلمى السليم .

ومن النبوءات الحالية الرديئة أيضا تلك التي تشير إلى إمكان اختراع جهاز حساس ليلتقط الموجات الصوتية للبشر الذين سبقونا على هذا الكوكب بمئات أو آلاف السنوات .. أى كأنما أصواتهم ما زالت موجودة و « مجمدة » فى الهواء . وهذا - بلاشك - هراء ، فبمجرد خروج الموجات الصوتية (أو الأصوات) ، فإنها تضيع هباء . هذا ما لم نلتقطها فى التواللحظة بواسطة أجهزة استقبال ، أو نحفظها على أسطوانات أو أشرطة تسجيل ، ثم نسمعها بعد ذلك .. أى أن حفظ الأصوات فى الهواء لا يمكن أن يكون . وليسألوا أهل العلم إن كانوا لا يعلمون .

ومع ذلك ، فهناك نبوءات كانت تبدو فى عصرها خيالية تماما . وكان الناس وبعض العلماء لا يأخذونها على محمل الجد ، بل كانت فى نظرهم نوعاً من الترف الفكرى ، أو التصور المسلى . لكنها قد تحققت ، فبرغم أنها تبدو غير منطقية ولا عادية فإنها قد اعتمدت على بعض أسس علمية يمكن تحقيقها مستقبلاً .

فمن التنبؤات العظيمة التي ذكرها لنا دكتور اسحق آزيموف فى كتابه « نحو الغد » تلك النبوءة التي نشرها الكاتب العلمى المعروف آرثر كلارك فى مجلة « عالم اللاسلكى » عام ١٩٤٥ . وفيها يشير إلى أنه بالإمكان تصميم شبكة من الاتصالات الأليكترونية ذات الكفاءة العالية ، ليس هنا على الأرض ، بل على ارتفاع ٢٢ ألف ميل فى مكان ما بالفضاء ، يقع بالتحديد فوق خط الاستواء ،

وأنه بالإمكان تثبيت مكان هذا التصميم الإلكتروني فوق بقعة محددة من سطح الكوكب في حالة دورانه حول الأرض مرة كل ٢٤ ساعة . ليس ذلك فحسب . بل يمكن تغطية سطح الكرة الأرضية كلها بشبكة من الاتصالات بثلاثة فقط من هذه التصميمات موزعة في الفضاء على مسافات محددة .. هذا بالإضافة إلى إمكان تشغيل هذه التصميمات في إرسال البرامج التليفزيونية على قنوات مختلفة . واستخدامها كذلك للاتصالات الهاتفية عن طريق عدد كبير من الموجات ذات الأطوال المختلفة .

إن مثل هذه النبوءة كانت تعتبر حلمًا في ذلك الزمان . لكنه حلم نابع من مفكر المعنى وبعيد النظر . ولقد تحقق الحلم بالفعل في خلال عشرين عامًا عندما نجح الإنسان في إطلاق أول قمر صناعي للاتصالات - هو الطائر المبكر (إيرلي بيرد Early Bird) في عام ١٩٦٥ . وبه أمكن نقل ٢٤٠ دائرة صوتية (أو هاتفية) . وقناة تليفزيونية . ثم تطورت الأمور بعد ست سنوات إلى الأحسن . فوصلت كفاءة الإرسال إلى ٦٠٠٠ دائرة صوتية . و ١٢ قناة تليفزيونية . وأصبحت الأقمار الصناعية التي تدور فوق سطح الأرض على ارتفاع ٢٢ ألف ميل من أعظم إنجازات التكنولوجيا . بحيث جعلت كوكبنا وكأنما هو يعيش بين أيدينا ، ويقع تحت أبصارنا .

ولقد تصور أجدادنا القدماء مثلاً قصة ماردارد أو جني جبار محبوس في قفص ، وأن هذا الجني إذا تحرر من قفصه فستكون له طاقة جبارة يحطم بها الحصون . ويدمر المدن . أو قد يتحول إلى الخير والتعمير ، بدلاً من التخريب .. كل هذا يتوقف على ترويض الإنسان لهذا الجني العجيب . وطبيعي أن ذلك كان محض خيال ، لكنه تحقق الآن في القنابل الذرية والأيدروجينية التي يحسب لها العالم الآن ألف حساب وحساب . إذ لو انطلقت الطاقة النووية من « قفاها » .

لكان من المحتم أن يعزل بالأرض الحراب . وفي الوقت ذاته روض الإنسان الطاقة النووية . وأصبحت منبعاً لا ينضب لخدمة البشرية .

أى أن تنبؤ القدماء بوجود قوة جبارة محبوسة في « فاقم » . ثم تصورهم لها على هيئة « عفاريت » ذات بأس شديد . لم يكن في حقيقته إلا وهما أو تصوراً يناسب أتماط تفكيرهم في زمانهم . ولم يكن قصدهم بذلك التنبؤ بقنابل ذرية . أو طاقة نووية . لكنه تصور وارد على الخاطر ليشير إلى نوع من طاقة كامنة ذات قوة بالغة العنف والضراوة . ولو بعث أحدهم من مرقده . ورأى عن بعد السحابة الجبارة . والطاقت العاتية التي تصاحب تفجير واحدة من هذه القنابل لما تردد لحظة واحدة في اعتبارها انطلاقة للجني الذي كان حبيسا في قفمه على حد تصوره .

وحتى قبل التوصل إلى صنع أول قنبلة ذرية . تنبأ القليل جدا من العلماء وبعض كتاب الخيال بإمكان تحرير الطاقة الكامنة في المادة . ولقد كان هـ . ج . ويلز أول من تعرض لذلك في عام ١٩٠١ . بل وأطلق على تلك الطاقة اسم القنبلة الذرية . لكن نبوءته قد بنيت على خيط واه . إذ لم يكن أحد يعرف شيئا عن تكوين نواة الذرة قبل ذلك مثلا بعشر سنوات . وكل ما عرف هو أن بعض الذرات غير المستقرة تطلق إشعاعات . لكن ذلك لم يكن يعنى شيئا ذا بال .. لا للعلماء التجريبيين . ولا للنظرين . فواحد مثل اينشتاين قد توصل إلى المعادلة التي أشرنا إليها قبل ذلك عن تحرير الطاقة من المادة . لكنه لم يتنبأ بإمكان تحقيقها . ورغم أن ويلز قد كتب عنها . فإنه لم يتعرض لخطوة واحدة من الخطوات التي يمكن أن يتم بها إنتاج القنابل الذرية . إن التنبؤ بذلك قد جاء في الثلاثينيات من هذا القرن عندما نجح العلماء في فلق نواة الذرة . لكن فلق

نواة الذرة شىء ، وصنع قنبلة نووية شىء آخر.. إذ المهم أن نصمم لذلك تصميمًا مناسبًا للتخريب أو التعمير. وقد استلزم ذلك سنوات طويلة. وكان للحرب العالمية الثانية دور كبير في الإسراع بإنتاج أول سلاح نووى للتخريب. ثم مرت سنوات أخرى قبل أن تروض الطاقة النووية للتعمير.

وكقصة ماردم القمم ، كانت قصة علاء الدين والمصباح السحري المعروفة.. صحيح أن ذلك كان خيالًا محضًا ، لكن الخيال قد تحقق الآن في أجهزة التليفزيون ، إذ بواسطتها نستطيع أن نرى ونسمع الأحداث ، حتى ولو كانت في أفاصي الأرض .

تنبؤات لها جذور من الواقع :

وقد تنشأ التنبؤات المستقبلية من حصيلة المعلومات التي تتجمع بين أيدينا ، وقد تتحقق هذه النبوءات في أجيالنا الحالية ، فيكون لها تأثير مباشر على حياة الناس ، أو قد تكون هذه التنبؤات بعيدة المدى . ولهذا قد لا تلفت انتباهنا ، لأنها لا تؤثر في حياتنا تأثيرًا مباشرًا .

فالتنبؤ مثلًا بزيادة عدد سكان الأرض بمرور الزمن ، ثم تحديد نسبة هذه الزيادة في أية فترة ، هو تنبؤ صحيح إلى حد كبير . وكان لابد والحال كذلك أن تضع الهيئات المعنية في الدول ذلك في حسابها ، وتخطط للمستقبل على أساسه . ثم إن هذه التنبؤات نابعة أساسًا من إحصائيات علمية ، مع أخذنا في الاعتبار العوامل المؤثرة فيها .. خذ على سبيل المثال تلك الإحصائيات التي ذكرها زهير الكرمي في كتابه « العلم ومشكلات الإنسان المعاصر » (العدد ٥ من هذه السلسلة) ، إذ يذكر « أنه في كل عام يولد ١٢٠ مليون طفل جديد ، أى بمعدل ٢٢٨ طفلًا كل دقيقة ، وتحدث الوفيات بمعدل ١٠٢ كل دقيقة . وعلى

ذلك تكون الحصيلة زيادة عدد سكان العالم في المجموع بمعدل ١٢٦ نسمة في كل دقيقة ، أى ما يزيد عن ٦٦ مليون نسمة كل عام .. وفي فقرة أخرى يشير إلى عدد سكان الأرض في الماضي والحاضر والمستقبل ، فيذكر أنه « قبل مليون سنة تقريبا تكاثر الإنسان حتى أصبح عدد الناس في الكرة الأرضية قبل ١٠٠٠ ر ٣٠٠ سنة حوالى مليون نسمة . وقبل عشرة آلاف سنة أكثر من خمسة ملايين نسمة . وعند ميلاد المسيح - عليه السلام - كان عدد سكان الأرض أكثر من مائة مليون نسمة . وفي القرن السابع عشر الميلادى أكثر من خمسمائة مليون نسمة . وفي القرن الثامن عشر أكثر من سبعمائة مليون نسمة . وفي عام ١٨٣٠ وصل عدد السكان إلى بليون نسمة (ألف مليون) .. وفي عام ١٩٣٠ تضاعف العدد إلى بليونى نسمة . وفي عام ١٩٦٠ - أى بعد ٣٠ سنة فقط - زاد العدد إلى ثلاثة بلايين نسمة . ومن المنتظر إحصائيا . أن يصل عدد سكان الأرض في عام ١٩٩٠ - أى بعد ٣٠ سنة أخرى - إلى أكثر من ضعف العدد المسجل عام ١٩٦٠ ، أى أكثر من ستة بلايين نسمة .. ثم نراه يعلق على ذلك بقوله « وليس غريبا أن يتساءل المرء : وماذا بعد ؟ .. وكم سيزداد عدد السكان بعد مائة عام مثلا ؟ .. وبعد ألف عام ؟ .. وليس هذا بعيدا إذا قيس بعمر البشرية .. » الخ .

وطبيعى أن الزيادة المطردة في عدد سكان الأرض يمكن توضيحها برسم بياني يدخل فيه عامل الزمن .. وفيه نلاحظ ارتفاعا مطردا في عدد السكان اعتمادا على ما بين أيدينا من أرقام في الماضي والحاضر . ثم بالإمكان أن نتتبع اتجاه خط الزيادة ، وتكلمته نظريا في عشرات أو مئات أو آلاف السنوات القادمة . وعند كل نقطة على هذا الخط « الوهمى » ، نستطيع أن نعرف على وجه التقريب ما سيصير عليه عدد سكان العالم في المستقبل .

ومثل هذه الأشكال البيانية مستخدمة على نطاق واسع في مجال العلوم المختلفة . وهي تنبئنا مقدما بالاستهلاك والانتاج . والحديث فيها قد يتشعب ويطول ، وليس هذا مجاله ، لكننا أشرنا إلى ذلك إشارات عابرة ، حتى يتبين لنا معنى التنبؤ الاحصائي من خلال الأرقام والحسابات التي تحكمها في أغلب الأحيان معادلات رياضية نعرف بها مؤشرات المستقبل .

ومع ذلك فكلمنا كان التنبؤ بالمستقبل أكثر عمقا في الزمن كانت التوقعات أصعب منالا .. إن معدل الزيادة في سكان العالم الآن تقع في حدود ٢٪ ، ومن المتوقع أن تستمر حياة البشر على هذا الكوكب لآلاف أو حتى ملايين السنوات القادمة ، وكأما نحن نعود بدورنا إلى نفس السؤال الذى سألته قبل ذلك زهير الكرمي : كم سيزداد عدد السكان بعد مائة أو ألف عام مثلا؟

ليس هناك ما هو أدعى للفرع من تلك الصورة الرهيبة التي قدمها لنا الدكتور اسحق آرميوف في العدد ١٥٨ - ١٥٩ من مجلة « رسالة اليونسكو » (أغسطس - سبتمبر ١٩٧٤) .. ففي مقال بعنوان : لنفترض حكاية لعام ٣٥٥٠ ، يتساءل في صدر المقال : كم عدد الناس الذى يمكن لمثل هذا العالم أن يعيله؟ .. ويجب : لقد اقترحت عدة حدود ، إلا أن أعلى رقم رأيته هو ٢٠ بليون .. كم من الوقت سوف ينقضى قبل أن يحتوى العالم على مثل هذا العدد من الناس؟

ويستطرد قائلا : لنفرض أن معدل الزيادة السكانية سوف يظل على ما هو عليه الآن (أى ٢٪ سنويا) .. بهذا المعدل سوف يتضاعف التعداد السكانى في مدى ٣٥ عاما .. أى أن التعداد العالمى الآن (أى فى عام ١٩٧٤) البالغ

والموضوع بعد ذلك طويل . لكن يكفينا منه هذه الفقرات .. وطبعي أن مثل هذه الأرقام تصيب العقل بالدوران ، إذ لا يمكن أن يحدث ذلك على أية حال .. لا في الإنسان ولا الحيوان ولا النبات ، ولا حتى في الميكروبات . فهناك موازين منصوبة على الأرض سواء رضى الإنسان أم لم يرض .. ربما مصداقا لقوله تعالى .. « والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » (الحجر.. آية : ١٩) .. فكل شيء يزيد عن حده يتقلب إلى ضده . وكذلك يقولون (راجع الفصل الأول بعنوان « مشكلة الانفجار السكاني والنمو الإنساني » من كتاب زهير الكرمي الذى أشرنا إليه ففيه مناقشة هادفة لهذا الموضوع) .

إن ما يعيننا في هذا الموضوع ، هو ألا نأخذ بعض التنبؤات على علاتها ، لأن ذلك قد يؤدي إلى استنتاجات مضللة .. وحتى آزيوف يعترف بذلك « إن العالم لا يستطيع أن يستمر بمعدل الزيادة السكانية الحالية ، حتى لعشرات السنين ، فضلا عن المئات أو الآلاف » .

ومن أمثلة التنبؤ البعيدة المدى جدا ، تلك التى تتناول حركة القارات ، وانفصالها بعضها عن بعض ، أو تقارب بعضها من بعض .. إن التنبؤ مثلا بما ستكون عليه القارات بعد عشرة ملايين عام من الآن يشير إلى تغير جذرى فى جغرافية العالم الذى نعيش فيه . ثم ما سيصير عليه حاله بعد عشرة ملايين عام من الآن ، مع مقارنة الماضى البعيد بالمستقبل البعيد بشكل العالم الحالى . وعندئذ ستلحظ أن الأرض كانت وستكون غير الأرض التى نعرفها الآن .. فنظرة سريعة إلى جغرافية المنطقة التى نعيش فيها الآن توضح أن الخليج العربى ذاته سوف

يختفى ، لأن شبه جزيرة العرب تتحرك «كصفحة» إلى الشرق نحو إيران . وسوف يضيق الخليج ويضيق إلى أن تصبح شبه الجزيرة ملاصقة لإيران .. كما أن البحر الأحمر سينفتح على البحر الأبيض . وسوف تخنق بالطبع قناة وخليج السويس ، وكذلك خليج العقبة ، لتصبح المنطقة بحرا مفتوحا يبلغ اتساعه مئات الكيلومترات .. وسوف تظهر في المحيطات جزر كبيرة ، وخنق أخرى . وسوف يخنق بحر الشمال ، وتلتصق بريطانيا بقارة أوروبا ، ولن يكون لإيطاليا من وجود . وكذلك تركيا ، والبحر الأسود ، والبوسفور ، والدردينيل .. الخ .. الخ .

إن مثل هذا التنبؤ - رغم غرابته - ليس نابعا من خيال . فالأبحاث العلمية الحديثة التي تمت (وما زالت سارية) في قاع البحار والمحيطات تشير إلى أن اليابسة مقسمة إلى عدد من الصفائح أو البلاطات الضخمة . وبعض هذه الصفائح كبير جدا ، بحيث قد يشمل قارة بأكملها ، وبعضها صغير ، مثل صفيحة شبه جزيرة العرب ، وصفحة إيران . وهي جميعا تتحرك في اتجاهات شتى بسرعات تتراوح ما بين ثلاثة وثمانية سنتيمترات كل عام ، والحركة ناتجة من شقوق أرضية تقع في قاع المحيطات ، وتمتد فيها عشرات الألوف من الكيلومترات . ومن هذه الشقوق تندفع من باطن الأرض كميات رهيبية من المصهورات ، فتضغط على الصفائح في جميع الاتجاهات ، ولقد حدد العلماء ذلك بشيء من الدقة . وعلى هذا الأساس استطاعوا أن يقرأوا أحداث الماضي . وباختصار شديد نقول إنهم استنتجوا أن القارات كانت كلها كتلة واحدة . وعن طريق هذه الشقوق تباعدت القارات ، وأصبحت على وضعها الحالي . ومن أنباء الماضي البعيد والحاضر المائل يستطيعون التنبؤ بما ستصير عليه جغرافية هذا الكوكب وتضاريسه بعد ملايين السنوات القادمة .

استقرارات وتنبؤات بيولوجية :

لقد تعرضنا في هذا الفصل لنوعيات مختلفة من التنبؤات التي تحققت في مجالات كثيرة ، وسردناها سردا سريعا ، آملين أن نمهد الطريق لنوع آخر من التنبؤ الصعب الذي سيؤثر في حياة الناس تأثيرا مباشرا ، لأن هذا التنبؤ ينصب أساسا على الكشوفات المتشعبة والمذهلة في علوم الحياة .. فعلم الحياة (البيولوجى) منذ عشرات السنوات كان علما لايجوز في تفاصيله إلا علماء حياة متخصصون ، لكنه الآن قد استقطب حوله العديد من التخصصات الأخرى ، لتقدم له كل مالديها من خبرات دقيقة تساعد على اكتشاف خبايا هذا المجهول ، فمن علماء كيمياء إلى فيزياء إلى أليكترونيات إلى رياضيات إلى هندسة إلى مواد .. الخ ، وكل هذا قد طور معلوماتنا عن جزئيات الحياة الأساسية ، وعن الخلية الحية ، فتمخض عن ذلك علم جديد يعرف باسم هندسة الوراثة Genetic Engineering . ولقد أصبح هذا العلم الآن هو جوهر علم الحياة .. صحيح أنه علم وليد ، ولا يتعدى عمره بضع سنين ، إلا أن النتائج التي حققها العلماء أصبحت بمثابة مؤشرات تشير إلى كل ما هو مثير ومرعب وغريب . ثم إن هذه المؤشرات هي دليلنا إلى التنبؤ بما سيصير عليه حال الإنسان ذاته في المستقبل القريب أو البعيد .

وما لاشك فيه أن أعظم ظاهرة في هذا الكون على الإطلاق هي ظاهرة الحياة نفسها . إن الشمس مثلا ضخمة غاية الضخامة ، والخلية الحية بالمقارنة ضئيلة غاية الضآلة .. ولقد عرفنا السر الذي تقوم عليه حياة الشمس ، والتفاعلات النووية الجبارة التي تمنحنا فيضا من الضوء والحرارة . ثم استطعنا

تقليد مايجرى فى أتون الشمس من تفاعلات نووية ، وطبقناه فى القنابل الأيدروجينية . وما يجرى فى الشمس ، يجرى فى نجوم الكون كله .. لكن الحال يختلف مع الخلية الحية .. إنها وحدة الحياة التى انشقت منها كل المخلوقات ، ورغم أن هذه الخلية تقع بين أيدينا ، ورغم أننا نتناوّلها بالتشريح والتكبير والتحليل الكيميائى والفيزيائى ، فإنها مازالت تطوى بجزء من الأسرار المتلاطمة . وكلما تعمقنا فى أسرارها أكثر ، كانت دقة تنبؤاتنا أعظم . ومع ذلك فإن الحصيلة العلمية التى تحققت فى علوم الحياة - خاصة فى السنوات الأخيرة - قد قدمت لنا زادا علميا كثيرا ، لنؤسس عليه تنبؤاتنا . وبهذا يكون للنبوءة أرض صلبة ترتكز عليها ، وتركن إليها . ومن هنا فقد يمكن تحقيقها مستقبلا ، خاصة وأن علوم الحياة تقفز قفزات سريعة وغريبة فى كل المجالات .

الفصل الثاني
مستقبل التكاثر بالخلايا الجسدية
لا الجنسية

مستقبل التكاثر بالخلايا الجسدية .. لا الجنسية

من عادة الكائنات الحية أن تجدد نوعها باستمرار عن طريق خلط المكونات الوراثية في عمليات التزاوج . فيحل الجديد محل القديم . وبهذا تستمر الأجيال في كل الأنواع مابقيت على الأرض حياة .. وتلك سنن الطبيعة في مخلوقاتنا من قديم الأزل .

لكن البحوث العلمية التي يقوم بها العلماء في زماننا هذا قد تخطت هذه السنن . وحادت بها عن طريقها المشروع .. فبدلا من تقابل الخلايا الجنسية بين ذكور النوع وإناثه . لتؤدي إلى إنتاج ذرية جديدة . يمكن أن تنشأ الذرية من خلايا المخلوق الجسدية .. لا الجنسية .

إن بلوغ هذا الهدف قد يدعو إلى الفرع حقا .. فهذا يعني أن الإنسان يستطيع أن ينسخ من ذاته نسخة جديدة هي صورة طبق الأصل منه . وبحيث لا نستطيع أن نفرق بين ذاته البيولوجية القديمة ، وذاته الجديدة . اللهم إلا بالفترة الزمنية التي تفصل بين هنا وذاك .

ولكى نوضح أكثر نقول : إن زيادا من الناس قد يبعث مرة أخرى على الأرض بخلية وحيدة من جسمه . وكأنما ذاته البيولوجية قد عادت مرة أخرى في الزمن إلى الوراء ، وبحيث يرى نفسه ، وكأنما هو قد عاد طفلا فصيبا فشابا بكل

صفاته التي نشأ عليها قبل ذلك .. ثم إن الناس الذين يعاصرون شخصية زيد المتقدمة في العمر ، وشخصيته الحديثة الأصغر عمرا ، سوف تتأهبهم الحيرة والارتباك عندما يرون هذا صورة مصغرة من ذلك ، أو كأنما هما توأمان متطابقان ومتشابهان تماما . رغم أن الفترة الزمنية التي تفصل بين عمرهما قد تكون ثلاثين أو أربعين عاما ، لا كما هو الحال بين ولادة توأمين متطابقين يفصل بين مولدهما عدة دقائق أو ساعات .

ولاشك أن مثل هذه التصورات الجريئة غريبة على عقولنا وزماننا . لكنها لن تكون كذلك بالنسبة لمن يأتي بعدنا بأجيال ... ثم إن عملية إنتاج نسخ مكررة من خلايا جسم زيد ، ليست تصورات ولا خيالات ، لأن ذلك النسخ قد حدث في زماننا هذا .. صحيح أنه لم يحدث في الإنسان ، بل حدث في الضفادع . ويقال أيضا في الفئران .

واليوم ضفادع وفئران ، وغدا قد يأتي الدور على الإنسان . ثم إن « غدا » قد تعني خمسين أو مائة أو مائتي عام ، أو ربما أكثر .. كل هذا يتوقف على مجهود العلماء في هذا المجال .

والواقع أن كل إنجاز علمي كبير له سمات ومقدمات ، وغالبا ما تكون البداية متواضعة ، لكنها تتطور إلى الأحسن والأتقن دائما . ومادامت الفكرة قد نجحت في الضفادع ، فإن ذلك قد يفتح الباب أمام العلماء لتطبيقها مستقبلا على الإنسان .

لكن .. ماذا نعني ببعث أو إنتاج نسخة طبق الأصل من الإنسان في زمان غير زمانه ؟ .. وكيف يتأتى ذلك من جزء من شفته أو لسانه أو أمعائه أو أية خلية أخرى من جسمه ؟

لكي نجيب على ذلك ، كان لابد أن نبدأ القصة من أولها ، لنعرف إلى أى عصر من عصور المستقبل نحن سائرون .

إن الناموس الطبيعي لإنتاج ذريات من البشر لا يختلف عن ذلك الذى يحدث فى القرد والحمر والفئران والضفادع والحشرات .. أو حتى فى النبات .. فكل هذه الكائنات تنشأ من عمليات تلقيح تتم بين ذكور النوع وإناثه . وفيها تندمج أنوية الخلايا الجنسية الذكورية (الحيوانات المنوية للحيوان ، وحبوب اللقاح فى النبات) بأنوية الخلايا الجنسية الأنثوية (البويضات) . ومن هذا الاندماج بين أنوية الخلايا الجنسية للنوع الواحد ، تنتج ذريات جديدة تحمل صفات أبويها .. وبهذا يختلف البشر بشرا ، والققط ققطا ، والبادنجان بالبادنجانا ... الخ .. الخ .

وبرغم أن البشر بشر ، إلا أنهم ليسوا جميعا نسخا مكررة بعضهم من بعض . فاختلف أصواتهم وأصواتهم وألوانهم وبصاتهم وفصائل دمائهم وبروتيناتهم وطباعهم وأمزجتهم .. الخ ، هو خير دليل على ما نقول . وبهذا نستطيع أن نفرق بين زيد وعبيد ، أو زينب وفاطمة . والذى يحكم عدم التكرار بين صفات البشر أو أى كائن آخر هى عوامل وراثية محددة تكمن فى أنوية الخلايا الجنسية للنوع الواحد .. فخلطها يؤدي إلى عدم تكرار ما ينتج منها على الإطلاق . وبهذا يحتفظ كل فرد بصفات كثيرة جدا تميزه عن غيره . وقد يحدث بعض التشابه بين أفراد العائلة الواحدة ، لكنه ليس تشابها مطلقا ، لأن الظاهر هنا غير الباطن .. والباطن هو الأساس ، والأساس ينصب على البروتينات . ويتضح لنا ذلك أعظم اتضاح عند عملية زرع عضو أو نسيج من إنسان فى إنسان آخر ، حتى ولو كانا أخوين أو أختين ، إذ تبرز أجهزة المناعة فى الأجسام الحية ، وتحارب الجزء المزروع حتى تبيده . وسر ذلك لا يخفى على

ليب ، فبروتينات جسمى غير بروتينات جسمك ، غير بروتينات جسم أى إنسان آخر منذ أن جاء جنسنا على هذا الكوكب ، إلى أن يرث الله الأرض بمن عليها .. « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » (الروم - آية ٢٢) .. واختلاف الألوان أو أية صفة أخرى إنما تحكمها خطط وراثية وبروتينية . وهى علامات دالات على قدرة « الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى » (الأعلى - آية ٢ - ٣) .

ونود أن نضيف هنا أن علماء الرياضة البيولوجيين قد أوضحوا بالحساب والمعادلات أن محجى اثنين متشابهين شها مطلقا (يستثنى من ذلك التوائم المتشابهة - وهذه قصة أخرى سنعود إليها فى حينها) احتمال نادر غاية الندرة . ونحن لانستطيع أن نكتب رقمه هنا ، لأن ذلك قد يستوعب عدة صفحات ، لكن يكفى أن نذكر أن هناك احتمالا وحيدا من بين .. بين ماذا ؟ .. عليك إذن أن تكتب الرقم واحداً وتضع على يمينه ٩٠٣١ صفرا . وعندئذ قد يأتى احتمال واحد لمحجى اثنين متشابهين تماما من بين هذا العدد الكونى الجبار الذى لا يستوعبه العقل البشرى مها بلغت تصوراته .. وفى هذا الاختلاف تكمن حكمة بالغة أرسى الله قواعدها فى كل المخلوقات يوم أن بدأت تدب على هذا الكوكب .

ولكى يتضح ذلك أكثر ، فلنتصور أن زيدا من الناس يمسك بين يديه مجموعتين مختلفتين فى اللون من أوراق اللعب (الكوتشينة) . ولتكن كل مجموعة مرتبة بنفس الترتيب الذى خرجت به من المطبعة (أى مسلسلته من ١ - ١٠ ، بالإضافة إلى الصور طبعا) ولنفرض بعد ذلك أن زيدا قد بدأ فى خلط المجموعتين عشوائيا ، وكرر هذه العملية دون أن يرى الورق ، عله يعيد المجموعتين إلى نفس نظامها السابق . وعن طريق الخلط العشوائى .. فكم مرة يكرر هذه العملية عله يعيد التسلسل الذى بدأ به إلى أصوله ؟ .. إن هناك احتمالاً وحيداً بين

عدد هائل جدا من الاحتمالات . وربما يقضى العمر كله دون أن يصل إلى نتيجة .. وطبعي أنه مع كل عملية خلط (أو تفنيط) يتخذ الورق نظاما مختلفا .. كذلك الحال مع خلط المكونات الوراثية بين الذكر والأنثى من نفس النوع ، ومع هذا « التفنيط » الوراثي يخرج البشر دون أن يأتي اثنان متشابهان تماما ، ولما بين السنين القادمة .

نعود لنقول : إن إنتاج أفراد النوع الواحد يعتمد على التزاوج بين الذكور والإناث ، لتلتقي الخلايا الجنسية وتندمج ، وباندماجها تتحدد البداية الحقيقية لأي مخلوق يأتي على هذا الكوكب . لكن التجارب التي أجراها علماء النبات على النبات ، أو تلك التي قام بها علماء الحيوان على الحيوان ، قد حادت عن هذا الطريق ، أي خلط الخلايا الجنسية عند التزاوج ، وحلت محلها الخلايا الجسدية . وقد نمر على هذه العبارة مرور الكرام . وقد لانتبه إلى الخطورة الكامنة فيها . ففي فكرتها يكمن الأساس الذي نعتد عليه في إنتاج نسخة جديدة طبق الأصل من ذات الإنسان .. إذ تكفي خلية من أمعاء ضفدع ، لتعطي ضفدعا طبق الأصل في مورثاته وبروتيناته من الضفدع الذي عزلت منه . أو قد نحصل على خلية جسدية من ذيل ذئب ، لتعطي ذئبا جديدا هو « طبق الأصل » من الذئب البالغ ، أو قد تكون من عين عصفور . لتعطي عصفورا .. وما يجري على الضفادع والذئاب والعصافير قد يجري - من حيث المبدأ - على الأسماك والقروود والبهائم والبشر .. فالأساس في الخلق واحد ، وإن اختلفت أماننا الصور .

هذه اللعبة الخطرة قد أمكن تحقيقها بالفعل مع بعض النباتات والحيوانات . وقد تنجح مع الإنسان في المستقبل ، لأن إنتاج نسخة من خلاياه الجسدية (ودعك إلى حين من الخلايا الجنسية التي هي سنة الله في خلقه) يحتاج

إلى تفهم أعمق . و « تكنيك » أقوم . ونحوث أعظم . وإمكانيات أضخم .
لا علينا من كل ذلك الآن . فسنعود لتوضيحه . ولنبدأ ببعض ماتوصل
إليه العلماء في هذا الزمان . ثم ماذا يعني ذلك على مستقبل الإنسان .

الندرية بالخلايا .. لا بالبدور :

لتقدم أولاً مثلين من الأمثلة التي نجحت فيها بعض هذه التجارب . ولنبدأ
بنباتين معروفين : نبات التبغ ، ونبات الجزر .. إن كليهما يتكاثر - كما هو
معروف - عن طريق البذور . والبذرة عموماً هي بمثابة جنين نائم أو ساكن في
مهد من غذاء مختزن . وهي - أي البذرة - نتيجة حتمية لاندماج حبة لقاح مع
بويضة في مبيض زهرة . وهذا هو الأمر الطبيعي في حياة هذين النباتين أو أي
نبات آخر يتكاثر عن طريق البذور . لكن بعض العلماء قد تخطوا هذه الحدود
إلى ما هو أغرب . واستطاعوا إنتاج نباتات طبق الأصل من النبات الأصلي
البافع عن طريق خلايا خضرية أو جسدية .. لاجنسية .

في جامعة كورنيل بالولايات المتحدة الأمريكية كانت تجارب نبات الجزر -
وهناك نجح عالم النبات اف . س . ستوارد في إنتاج النبات عن طريق غير طريق
زراعة البذور . ولقد أحضر لذلك جزرة . وجهاز منها شرائح عدة . ومن أية
شريحة أخذ خلايا نسيج يعرف باللحاء . وهو المسئول عن نقل العصارة الغذائية
من الأوراق إلى جميع أجزاء النبات . ثم وضع أنسجة اللحاء في دورق به غذاء
خاص معقم (في البداية كان هذا الغذاء يتكون من العصارة اللبنية لثمره جوز
الهند) . وثبت الدورق بمحتوياته على جهاز ميكانيكى رجراج - أى من ذلك
النوع الذى يرج الدورق بمحتوياته ويهزه هزا شديداً - وبهذه الطريقة انفصلت

خلايا اللحاء المتناسكة ، فأصبحت ساجحة في الغذاء فرادى ، أو في مجموعات .
وبواسطة الميكروسكوب يمكن سحب خلية واحدة بأنبوبة زجاجية شعرية دقيقة
غاية الدقة ، ثم تنقل هذه الخلايا من الدورق إلى أطباق أو دوارق أو أنابيب
زجاجية معقمة ، بها محاليل غذائية معقمة كذلك . وبعدها يترك كل شئ في
مكانه ساكنا ، وتحت ظروف ملائمة .

المهم أن ستوارد لم ينجح في تجاربه من أول ولا ثاني ولا ثالث مرة ، بل
ظل يثابر ويحرب . وأخيرا نجح . ودليل نجاحه أن الخلايا « الجسدية » لنبات
الجزر قد بدأت تتكاثر في محاليلها . والغريب أنها تحولت إلى أنسجة شتى ، ومن
الأنسجة برزت جذور . وعندما نقلت بجذورها إلى أطباق بها غذاء هلامي
متصلب كالجيلاتين تفرعت الجذور هنا وهناك ، وبدأت في امتصاص العناصر
الغذائية ، ودفعت بها إلى الأنسجة التي لم تتشكل بعد ، لكنها بمرور الأيام قد
تشكلت ، فظهر فيها الساق والأوراق ، ونقلت هذه النباتات الصغيرة إلى أرض
زراعية مناسبة ، فنمت سوقها وأوراقها وجذورها إلى الحدود التي أصبحت بها
نباتات يافعة تسر الناظرين . وأهم من ذلك أنها كانت من الوجهة البيولوجية
عموما ، والوراثية خصوصا نسخا طبق الأصل من النبات الذي حولناه إلى
شرائح .. فأنسجة .. فخلايا متفرقة .. فأعطت كل خلية نباتا يافعا ، مختلفة
بذلك عن طريق التكاثر التقليدي .. أى التي تبدأ باندماج خلايا جنسية .

وبعد ذلك ، قام كل من ف . فاسيل و أ . هيلد براندت بتحقيق ماتوصل
إليه ستوارد . فلقد كانت نتائج تجاربه خارجة عن المألوف . ولهذا أحدثت في
الأوساط العلمية إثارة فكرية لها مغزاها ، وربما ساور الشك كلاً من فاسيل
وهيلد براندت في صحة النتائج التي توصل إليها سلفهما . ومن أجل هذا قاما

يأجرء سلسلة من التجارب تختلف فى الخطوات ، لكنها تتشابه فى المضمون مع ما قام به ستىوارد . ولقد استخدما فى تجاربهما نبات التبغ بدلا من نبات الجزر . وحصولا منه على شرائح من نسيج غض يعرف بالنخاع ، ولا يهم إن كان هذا النسيج من عتق ورقة ، أو جذر أو ساق . ولقد وضعت أجزاء من النسيج على مادة جيلاطينية مغذية ، وبدأ كل جزء فى التكاثر حتى وصل إلى كتلة خلوية غير مميزة ، وتم نقلها بعد ذلك إلى دوارق بها محاليل غذائية تحتوى على أملاح غير عضوية (مثل أملاح الفوسفات والنترات التى تستخدم فى الأرض كسماد) . هنا بالإضافة إلى بعض الفيتامينات والسكر ولبن ثمرة جوز الهند ، وعلى جهاز الريح الميكانيكى رجت اللدوارق بمحتوياتها رجاً شديداً ، فانفصلت خلاياها ، وعامت فى المحلول المعقم فرادى ، وأخذ العالمان منها خلية واحدة ، ووضعها على شريحة زجاجية بها فجوة صغيرة تحتوى على قطرة من محلول مغد . وتحت عدسات ميكروسكوب مزود بآلة تصوير خاصة ، تم تصوير فيلم بطىء استمر عدة أيام . وعندما عرض فى بضع دقائق بواسطة آلة عرض سينمالي رأت العين منظرا فريدا لا ينسى ، إذ كأنما هناك يد سحرية تضغط على « زناد » الخلية ، فتنتطلق فيها قذيفة التكاثر ، لتصبح اثنين ، فأربعة فثمانية .. الخ . وفى النهاية تكونت كتلة خلوية ، ثم نقلت هذه الكتلة غير المميزة إلى برطمان زجاجى به مادة جيلاطينية مغذية ومعقمة ، وبدأت الكتلة تتميز إلى جذور وساق وأوراق ، ثم أخرجت هذه النبتة الصغيرة ، وزرعت فى تربة مناسبة ، فواصلت النمو ، حتى أزهرت وكونت ثمارا ذات بذور نبتت فأنتجت بدورها نباتات يافعة .

ولقد نجح بعض علماء النبات بعد ذلك فى تحويل الخلايا الجسدية لنباتات مثل الهندباء (نبات بقولى يؤكل) والبقدونس والحور (شجرة كبيرة) .. الخ إلى نباتات كاملة .

هذا باختصار ماحدث في عالم النبات ، فماذا تم في عالم الحيوان ؟

شيء آخر يختلف في التكنيك والتفاصيل . لكن الجوهر واحد .. فكل الكائنات من خلايا .. لا يختلف في ذلك النبات عن الحيوان .. لكن الأمور في عالم الحيوان أكثر تعقيدا . والوصول إلى النتائج يحتاج إلى صبر جميل . وأساس في العلم عميق ، وحساسية في الأداء لا يقدر عليها إلا كل باحث ذوووب . وبحوار ذلك ، فإن النتائج غير مضمونة . ونسبة النجاح فيها ضئيلة . لكن المتفائلين من العلماء يقولون : ليست كل بداية موفقة . ثم إن كل بحث يبدأ صغيرا ومتواضعا . وبعده يصقل ويتطور إلى الأحسن دائما بفضل الأفكار والاضافات التي تقوم بها الأجيال المتابعة من العلماء .

صحيح أن العلماء يستطيعون الحصول على أى نسيج يريدون . من أى مخلوق يشاءون . وبوسائل خاصة يفككون هذه الأنسجة إلى خلايا . ومن الممكن أن تزود هذه الخلايا الهائمة بمحاليل غذائية معقمة ، فإذا بها تنقسم وتتكاثرت وتتغذى وتنفس وتخرج فضلاتها في المحلول . وهذا مانعرفه باسم زراعة الأنسجة أو تربيتها في الدوايق والأنابيب Tissue Culture . لكنها - رغم ذلك - لن تشكل وتحول إلى مخلوقات جديدة . ولو حدث هذا - كما حدث في عالم النبات - لاستطعنا أن ننتج نسخة طبق الأصل أو حتى نسخا متشابهة من الذات البيولوجية لمن يريد أن ينسخ ذاته ، إذ تكفي خلية جسدية واحدة لتربيتها في أنبوب معقم به غذاء معقم . حتى إذا انقسمت وتحولت إلى كتلة صغيرة من الخلايا . كان من الممكن أن نزرعها بعد ذلك في رحم أنثى جهاز خصيصا لاستقبالها . أو ربما تتقدم البحوث في المستقبل ، وتتوصل إلى تجهيز « أرحام » صناعية ، لتصبح « معامل » تفرخ للنسخ البشرية . وبهذا نستغنى

عن « تأجير » الأرحام الطبيعية لكل من أراد أن يعيد نسخة من ذاته مستخدما في ذلك خلية من جسده .

إن طفلة أنبوب الاختبار التي مازالت تعيش حتى اليوم بكامل صحتها قد تعيد إلى الأذهان ما نتعرض له الآن في موضوعنا هذا . لكن طفلة الأنبوب قد جاءت عن طريق تلقيح بين الخلايا الجنسية لأمها وأبيها . ليس على فراش الزوجية . بل في أنبوب الاختبار . وتمكن كل من الطبيب سبتو والعالم الفسيولوجي ادواردز من السيطرة على التجربة عدة أيام . تم فيها انقسام البويضة الملقحة إلى عدة خلايا ، ثم نقلت بعد ذلك إلى رحم أمها . ليواصل الجنين نموه وتطوره .. لكن الوليدة هنا ليست نسخة طبق الأصل من الأب ، ولا نسخة طبق الأصل من الأم . بل هي خلطة أو « سبيكة » وراثية تجمع بين صفات الوالدين . لكن الأمر يختلف مع الخلية الجسدية اختلافا جذريا . فخلية معزولة من حلق ذكر . تعطى نسخة متقنة من ذات الذكر . وكأنما هذه الخلية تعيده جنينا فطفلا فشابا فرجلا . أو كأنما هو يعيد ذاته في زمان غير زمانه .. كذلك فإن خلية معزولة من معى أنثى . لا بد أن تعطى نفس الأنثى مرة أخرى .. صورة طبق الأصل منها .

فالإنسان وسائر الحيوانات الثديية الأخرى (أى التي تحتضن أجنحتها في أرحامها ، ثم ترضعها بأثدائها بعد ولادتها) كائنات ذات أنسجة معقدة . وأعضاء متباينة ، ومرافق حيوية يخدم بعضها بعضا . لكنها تشترك مع الحيوانات الأدنى منها في إنتاج ذرية جديدة عن طريق خلايا جنسية .. ذكورية وأنثوية . لكن الحيوانات الدنيا قد تتكاثر جسديا . وتعطى نسخا طبق الأصل من ذاتها - أى أنها تعيد إلى أذهاننا قصة بعض النباتات التي يمكن أن تتكاثر تكاثرا

خضرىا ، أى تكاثرها لاجنسىا .. وهذا ما يعرفه الإنسان من قديم الزمان .. فمن الممكن مثلا أن نقطع عود قصب السكر إلى عقل ، وعندما نزرع العقلة ، فإنها تتمخض عن عود قصب جديد . وكذلك الحال مع نبات النجيل أو البطاطس أو القلقاس أو العنب أو الورد ... الخ . فكل قطعة من النبات الأصيل تحتوى على برعم ، والبرعم هو الذى ينمو ليعطى نسخة طبق الأصل من النبات الذى فصلناه إلى أجزاء .. أى أن التكاثر هنا لا يتم عن طريق البذور ، بل عن طريق جزء من « الجسد » النباتى ذاته .

لكن أغرب حالات التكاثر اللاجنسى أو الخضرى تتمثل لنا فى بعض نباتات جد قليلة . منها على سبيل المثال نبات السحلية (الأوركيد Orchid) . وهو من النباتات التى تنبت على قلف الأشجار ، وتصبح معلقة على سيقانها وفروعها .. وغرابة التكاثر هنا أنه لا يتم عن طريق برعم كما هو الحال فى النباتات التى ذكرناها . بل تتكاثر السحلية عن طريق خلايا الورقة . وبالتحديد فى قمة ورقة كاملة التكوين ، وعليها تبدأ بعض الخلايا الجسدية فى الانقسام والتكاثر ، وكأنما هى خلايا سرطانية ، لكنها فى الواقع ليست كذلك ، إذ تتكون منها كتلة نسيجية جنينية صغيرة ، وقد تنفصل هذه الكتلة تحت تأثير الرياح أو الأمطار . وعندئذ تستطيع النمو لتعطى نباتا كاملا - هو نسخة طبق الأصل من النبات البالغ .. أى كأنما هذا النبات يقوم بنفس العمل الذى يقوم به العلماء فى الدوايق والأنابيب لإنتاج نسخ كاملة لنباتات من خلايا جسدية ، ثم ما يتبع ذلك من تجهيزات وتغذية وتكثيف معقد .. لكن نبات الأوركيد قد فعلها ببساطة شديدة حتى قبل أن يظهر الإنسان على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين ، وكأنما الطبيعة تعلمنا درسا مفيدا مؤداه « لاجديد تحت الشمس » .

إنها تحدث في الكائنات الحيوانية البسيطة :

والدرس ذاته تقدمه لنا بعض الحيوانات الدنيا .. صحيح أنها تتكاثر جنسيا نزولا على الناموس الطبيعي الذى يحكم الكائنات الحية . لكنها تستطيع تحت ظروف خاصة أن تتكاثر جسديا أو خضريا كبعض أنواع النبات .

خذ لذلك مثلا .. ولتبدأ بكائن بدائى التكوين يعرف باسم الهيدرا Hydra وهو يسكن عادة فى المياه العذبة . وقد لايتجاوز طوله سنتيمترا واحدا لاغير . وله قدم يرتكز بها على الأعشاب والأحجار المائية . وفوق القدم يمتد جسم اسطوانى مجوف . والجسم يتكون من عدة أنواع قليلة من الخلايا ، وفى أعلى الجسم توجد فتحة نطلق عليها تجاوزا فتحة الفم . وحوها عدد من اللوامس أو الأذرع أو الأقدام الكاذبة . وبها يتحرك الكائن « كالأكروبات » أو لاعب السيرك الذى يتلوى ويسير أحيانا على يديه ، وأحيانا أخرى على قدميه ورجليه فى وضع مقلوب .. وبهذه اللوامس أيضا يستطيع الهيدرا أن يصطاد طعامه ، ويدقعه به إلى فمه .

وعلى هذا الحيوان البسيط التكوين بدأ العالم البيولوجى ابراهام تريمبلى فى إجراء سلسلة من التجارب المثيرة عام ١٧٤٠ . وانتهى منها بعد أربع سنوات من عمل متواصل يتطلب صبرا وبراعة وذكاء وحسن تصرف . والنتائج التى حصل عليها كثيرة ، ولقد ضمنها مجلدا قائما بذاته ، لكن يكفى أن نذكر هنا أن تريمبلى عندما شطر الهيدرا إلى نصفين ، لم يمت الكائن ، بل استطاع كل نصف من الجسد أن يكمل ذاته ، ويتحول كل منهما إلى كائن كامل . ودعش تريمبلى لهذه النتيجة كثيرا ، فحفزه ذلك إلى إجراء مزيد من التجارب . وفيها شطر الكائن إلى أربعة أجزاء ، فما كل ربع وتحول إلى كائن لا يختلف فى قليل أو كثير عن

الكائن الأصلي . ثم شطر كل نسخة جديدة إلى أجزاء . فتكررت « المعجزة » - على حد تعبيره - ، وأعجبتة اللعبة واستمر فيها . حتى وصل به الأمر في النهاية إلى شطر الكائن أو تقطيعه إلى خمسين جزءا ، أعطت خمسين كائنا كاملا ، وجاء من بعده خلف استطاعوا أن يبتروا الكائن إلى مائتي قطعة ، لتعطي كل قطعة جسدية حيوانا مستقلا .

وعندما نشر تريمبلي نتائج بحوثه أحدثت دويا هائلا في الأوساط العلمية وغير العلمية . وتحدثوا بها في القصور والنوادي والاحتفالات العامة . وكأنما العقول وقها لم تكن مهياة لمثل هذه التجارب . ولهذا لم يقبلها الناس قبولا حسنا . في حين أنها كانت بمثابة الشرارة التي أوقدت نار البحوث . فتفتحت أذهان العلماء على الأسرار الكامنة في الخلق .

ولقد تساءل الناس وقتها أسئلة نراها الآن في غير موضعها . وكان أهم هذه التساؤلات . وأكثرها إثارة للجدل بين العامة والخاصة هو : إذا كان الهيدرا كائنا حيا متكاملا فلا بد أن تكون له روح . فإذا انشطر هذا الجسد إلى أجزاء . فهل يتبع ذلك أن تنشطر الروح بدورها إلى أجزاء . ويحل كل جزء من الروح في جزء من الجسد الجزأ . لتكتمل معه في كائن كامل ؟ .. أو دعنا نضعها بصيغة أبسط : هل يمكن أن تتجزأ الروح ، ونحن نعرف أنها كل أو وحدة لا تتجزأ ؟

الواقع أن العلم التجريبي لا شأن له بالبحث في الروح . لأنها من الأمور الغيبية التي يجب أن تترك لعقيدة الإنسان في المقام الأول . والعلم لا يبحث في الغيبيات . وكأنما هو يسير على هدى المعنى العميق الذي جاء في الآية الكريمة : « ويسألونك عن الروح . قل الروح من أمر ربي . وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (الإسراء - آية ٨٥) .. وأمر الروح هنا بمعناه العلمي هو أمر نظام حي معقد

غاية التعقيد . وكلما تعمقنا في هذا النظام زادت أمام عقولنا المتاهات . وكأنما نحن نغوص في بحر من الأسرار ليس له من قرار .. وهنا يحق القول الكريم : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وما يسرى على الهيدرا . يسرى أيضا على دودة مفلطحة أعقد تكويننا من الهيدرا . وتعرف علميا باسم دودة البلاناريا . وهي تعيش في الماء . ولها عدة أنواع مختلفة . وجسم الدودة هنا يحتوي على رأس به عينان ومخ بدائي وفم يؤدي إلى ما يشبه البلعوم . ثم ينتهي بالجهاز الهضمي البسيط الذي يحتوي على خلايا إفرازية وماصة للغذاء المهضوم . وللدودة ذيل .. الخ . ومع ذلك فقد قام أحد العلماء بتقطيع هذه الدودة إلى مائة قطعة . فأنتجت كل قطعة دودة . لتصبح مائة دودة كاملة بكل أنسجتها المختلفة .

والأمثلة بعد ذلك كثيرة . وكأنما هي تعيد إلى الأذهان تلك المحاور التي تمت بين سيدنا إبراهيم وربه :

« وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليظمن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم »

(البقرة - آية : ٢٦٠)

لا علينا من كل ذلك . فظاهرة تكوين جسد كامل من جزء من جسد قائم معروفة في بعض الحيوانات التي قدمنا منها نوعين اثنين ، ولم نقدم مئات الأنواع الأخرى لضيق المجال ، وإن كانت الفكرة فيها جميعا واحدة .. أى أن الإنسان - وهو يحاول الاستفادة من الميكانيكية البيولوجية التي تنتهجها بعض الكائنات الحيوانية الدنيا في عمليات تشبه التكاثر الحضري أو الجسدي في بعض

النباتات لم يأت مجدد ، لأن بذور الفكرة قائمة . ولهذا يحاول أن يتعلم من أسرار الطبيعة الحية ، عله يطبق ذلك في حيوانات أعلى ، ومنها الإنسان .

وطبيعي أننا لانستطيع أن نقطع الضفدع ولا الطير ولا الفأر .. الخ قطعاً صغيرة ، ثم نحاول أن نسيطر على هذه القطع بوسائل مبتكرة ، لتنتج القطعة ضفدعا أو فأرا . فليس ذلك واردا على التفكير العلمي . إنما ينصب الاهتمام كله على خلية جسدية واحدة ، لأن كل خلية في الجسد تمتلك نواة . وبالنواة كروموسومات ، وعلى الكروموسومات جينات ، والجينات هي المورثات التي تورث الكائن كل صفاته التي يأتي بها إلى الحياة .. لكن دعنا من هذه التفاصيل الآن ، وسنعود إليها فيما بعد لنعرف المزيد من أسرارها .

بدايات ناجحة مع ضفدع :

وفي الضفادع توجد الذكور والإناث . ولكي تفد على هذا الكوكب أجيال من وراء أجيال من هذا الحيوان البرمائي (أى الذى يعيش فترة من حياته فى الماء ، ثم يقضى الفترة الباقية على البر أو الأرض) ، كان لابد من تزاوج يتم بين ذكور الضفادع وإناثها ، ويتم إخصاب البويضات بالحيوانات المنوية فى الماء . ثم تبدأ البويضة الملقحة فى الانقسام والتكاثر لتنشأ منها خلايا متشابهة تتميز فيما بعد إلى أنسجة وأعضاء متباينة ، هى التى نراها فى الضفدع البالغ .

والضفدع من الحيوانات الفقارية (أى التى تمتلك هيكلًا عظميًا داخليًا) . وله أنسجة وأعضاء معقدة التركيب . لكن الذى يهمنا فى الموضوع كله خلية واحدة من أى جزء فى جسمه . ولهذا فقد سارت البحوث فى جامعة أكسفورد بإنجلترا على غير ما وقر فى النفس ، وصدقه العقل ، إذ أعلن الدكتور ج . ب .

جيردون أنه تمكن من إنتاج صفادع كاملة التكوين بغير طريق الخلايا الجنسية ، واستعاض عن ذلك بنوى الخلايا الجسدية . ولكي يبلغ هذا الهدف لأول مرة في التاريخ ، كان لزاما عليه أن يقضى فيه سنين عدة ، أجرى خلالها ٧٠٧ محاولة ، ولم يكتب له النجاح إلا في إحدى عشرة محاولة . أى أن نسبة النجاح لم تتجاوز ١,٦٪ .. هذا بالرغم من أن جيردون كان يستفيد من أخطائه ، ويحاول دائما أن يطور أدواته وإمكانياته ، ويستخدم كل ما وضعه العلم بين يديه من أجهزة دقيقة تتناسب مع هذا النوع من الجراحة الذى يتم على مستوى الخلية التى لا ترى بالعين المجردة .

ولاشك أن نسبة النجاح مع الحيوانات الأرقى مثل الفئران والقطة والقرود ستكون أضال من ذلك بكثير . وربما لا يتحقق فيها النجاح على الإطلاق . فاختيار الصفادع لمثل هذه التجارب له ما يبرره ، لأن بويضة الصفدع يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، أى أنها أضخم بحوالى ٧٥ مرة من بويضة أى حيوان ثديي . وهذا من شأنه أن ييسر كثيرا إجراء التجارب على بويضات الصفادع .

لقد جهز جيردون المئات من هذه البويضات الناضجة ، وذلك بالضغط على جسم أنثى متخممة بها . وبطرق مختلفة استطاع أن يستخرج نوى هذه البويضات ، أو يدمرها فى مواقعها (بالأشعة فوق البنفسجية مثلا) وفى الوقت ذاته كان يقوم بعزل أنسجة من الصفدع ، واختار لذلك نسيجا من الأمعاء . وبطرق معروفة فصص النسيج إلى خلايا . ثم بدأ فى استخراج نواة كل خلية جسدية وسحبها بأنبوبة شعرية مجوفة ، ودقيقة غاية الدقة . وتحت عدسات الميكروسكوب قام بحقن النواة الجسدية فى سيتوبلازم البويضة المفرغة .. ويكرر هذه العملية كلما سَمَحَ وقته بذلك . وعند هذا الحد تنتهى مهمته ، إذ يترك

البويضات - المزودة بنوى الجسد - في الماء لقدرها . فإن كان قد أصاب في « تكتيكه » . انقسمت البويضة . وسارت في طريقها . لتتطور بعد ذلك إلى ضفدع يافع هو صورة طبق الأصل من الضفدع الذى عزل منه نواته الجسدية . ونحن بطبيعة الحال لا نستطيع أن نفرق بين النسخ المتشابهة بالعين المجردة . فليست للضفادع تقاطيع وجه . ولا شعور ولا عيون ولا أنوف ولا ألوان بشرة ولا أصوات وبصمات كما هو الحال في البشر ، إذ لو تمت هذه التجربة مثلا على بيكاسو أو اينشتاين أو انديرا غاندى . بنفس الطريقة التى تمت في الضفادع لنتج لنا بيكاسو جديد بكل بصماته وتقاطيع وجهه ولون بشرته وصوته .. الخ . ولكان الفرق الوحيد بين بيكاسو القديم والجديد هو الفرق في الفترة الزمنية التى تفصل بينهما ليس إلا .

لكن .. كيف نعرف أن النسخ الضفدعية الناتجة هي صور طبق الأصل من بعضها ؟ .

إن ذلك أمر ميسور . فلو أننا عزلنا عضوا أو نسيجا من ضفدع إلى ضفدع آخر من نفس « النسخ » الناتجة . لوجدنا الضفدع المستقبل للعضو المزروع لا يلفظه . بل يتقبله قبولاً حسناً . لأن بروتيناته هي نسخة طبق الأصل من بروتينات الآخر . في حين أن نقل الأعضاء بين الضفادع التى جاءت عن طريق التزاوج لا يكتب لها النجاح . للاختلاف بين بروتينات هذه وتلك .. تماما كما هو الحال مع الإنسان وسائر الحيوان . فكل كائن من هذه الكائنات بمثابة « امبراطورية » بروتينية قائمة بذاتها . وكل منها تستطيع أن ترصد أى بروتين غريب على « ملكوتها » . على أنه ليس من نفس « ملة » بروتيناتها . ولهذا تحاربه وتلفظه . ثم إن صناعة البروتينات في أى كائن حي لا تأتى هكذا جزافا . بل لها

مخططات وراثية تسكن نواة الخلية . وهى المستولة عن كون الإنسان إنسانا . والأسد أسدا ، والتفاح تفاحا .. إلى آخر هذه الملايين من الأنواع التى تسكن الأرض .. كما أن هذه المخططات الوراثية هى التى تعطينا كل صغيرة وكبيرة من صفاتنا التى نجيء بها إلى الحياة . وبهذا لا يتشابه إنسان مع إنسان تشابها مطلقا - كما سبق أن ذكرنا - ، اللهم إلا فى حالة التوائم المتشابهة تماما . فهذه التوائم تنشأ من بويضة واحدة ملقحة . وعندما تنقسم هذه البويضة إلى خلايا . فإن كل خلية منها تحتوى حتما على نواة بها نفس المخطط الوراثى الذى اشتق من الخلية الملحقة . ولوانفصلت هذه الخلايا المشتقة من أصل واحد ، فإن كل خلية منها تتممخص عن جنين فولود شبيه بتوأمه الآخر شها مطلقا .

المغزى الخطير فى اللعبة :

إن مصير إنتاج نسخ بشرية من الخلايا الجسدية للإنسان ذاته ممكن من حيث المبدأ ، إلا أن ذلك يحتاج إلى بحوث طويلة ، وأفكار جديدة ، وفهم أعظم لكل صغيرة وكبيرة من أسرار الحياة . ولهذا أخذنا جانب الحذر ، وذكرنا أن هذا الهدف الخطير لن يتحقق مع الإنسان إلا بعد مائتين أو ثلاثمائة من السنين . لكن بعض العلماء المتحمسين يذكرون أن هذا الجليل قد يشهد « المعجزة » فى بداية القرن الواحد والعشرين . والبعض الآخر يقول : إن ذلك قد يكون ممكنا بعد عشرين أو خمس وعشرين من السنين .. وطبيعى أن التجارب ستم أولا على بعض الحيوانات الثديية . وهناك أدلة مبدئية تشير إلى أن ذلك قد أمكن تحقيقه مع الفئران ، والفئران من الحيوانات الثديية ، وكذلك الإنسان .. إذ أمكن تفرغ بويضة فأر غير ملقحة من نواتها . ثم وضعت فى مزارع خاصة فى الأطباق مع خلايا جسدية من الفئران ، فالتحمت البويضة المفرغة مع

الخلية الجسدية . وبدأت « الخلطة » فى الانقسام والتكاثر لتؤدى إلى بداية جنينية . لكنها توقفت بعد ذلك إذ حدث بها تشوه واضح لا تستقيم معه حياة الجنين .. لكن الفشل لن يوصل الأبواب فى وجوه العلماء . بل يدفعهم إلى الكشف عن سر الفشل ، فإذا اكتشف السر ، توارى الجهل ، وتحقق النجاح .

لكن السؤال الملح الذى قد يطراً على الأذهان هو : كيف يمكن أن ينشأ مخلوق من خلية كبد أو جلد أو مخ أو معدة . أو أى نسيج آخر فى الجسم الحى ؟

إن شرح ذلك قد يتشعب ويطول . لكن السر كله موجود فى الأصول .. فأصل كل هذه الخلايا المختلفة كان فى الأساس واحداً .. ألم تنشأ جميعاً من بويضة واحدة ملقحة .. أى من خلية واحدة اجتمعت فيها « نسخة » كاملة من صفات الأم « فى البويضة » مع نسخة كاملة من صفات الأب (فى الحيوان المنوى) ؟

الجواب - بالتأكيد - نعم ، والناموس نفسه يسرى على كل المخلوقات حيوانات كانت أو نباتات .

إذن .. فالبداية تتمثل فى خلية مخصبة . ولكى ينشأ منها جنين . كان لابد من عمليات انقسام وتكاثر ، فتصبح الخلية خليتين ، فأربع ، فثمان ، فست عشرة .. فعشرات .. فمئات .. فألاف ، فملايين ، فعشرات ومئات وآلاف الملايين .

إن جسم الإنسان مثلاً يتكون من حوالى ٦٠ - ١٠٠ مليون مليون خلية . ولكل خلية نواتها (عدلات الدم الحمراء) . ولقد اشتقت هذه الأعداد الهائلة من الخلية الأولى الملقحة ، ثم نراها وقد تميزت بعد ذلك إلى خلايا عظام وعضلات ومخ وأمعاء وكبد وطحال .. الخ .. الخ . ولاشك أن هذه الخلايا

تختلف عن بعضها في الشكل والحجم والوظيفة .. فوظيفة خلايا الأمعاء مثلا تفرز وتهضم وتمتص ، ولا يمكن والحال كذلك أن تصلح لوظيفة أخرى .. أى أنها لا تستطيع أن تقوم بعمل خلايا المخ أو العين أو الرئة .. الخ . فإذا كان الأمر كذلك ، فهل يمكن أن تصلح لإعطاء نسخة كاملة من المخلوق الذى منه قد عزلت ؟

ممكن جدا .. لأن الأصول كلها موجودة في نواتها .. بمعنى أن أية نواة في أية خلية جسدية تحمل في طياتها كل الأصول الوراثية التى اشتقت من الخلية الملقحة .. لكن دعنا نوضح هذا الأمر بمثال من واقع حياتنا .. فهذه النسخة من الكتاب الذى بين يديك لها أصول من أفكار . ثم جمعت كلماتها وفقراتها وصفحاتها في المطبعة . ومن الممكن بعد ذلك أن نطبع منها مائة أو ألف أو مائة ألف نسخة .. كل نسخة منها طبق الأصل من النسخ الأخرى .. وكذلك تكون الخلية الملقحة . ففي نواتها فكرة الخلق كله .. أى أنها تحتوى على « برنامج » وراثى كامل . فإذا تكاثرت إلى مئات أو آلاف الخلايا ، فإن كل خلية ناتجة تمتلك في نواتها نسخة طبق الأصل من البرنامج الوراثى المشتق من الخلية الأولى . وكأنما هذه الخلية بدورها تطبع نسخا طبق الأصل من ذاتها .

إذن .. كيف تحولت هذه الأصول المتشابهة في بدايات الأجنة إلى تكوينات خلوية قد نحسبها - لاختلافها - شيئا آخر غير الأصل الذى منه قد جاءت ؟ .. وما الذى حول هذه الخلية الجنينية لتكون عينا ، أو تلك لتصبح لسانا أو غدة أو كبدا أو جلدا أو عظاما ؟

الواقع أن هذه التساؤلات وغيرها لمن أعظم التحديات التى تواجه العلماء حتى الآن . فلقد عرفوا من أسرار تشكل الأجنة القليل . لكن بقى أمامهم الكثير ، وكلما اكتشفنا سرا ، وعرفنا لغزا ، عظمت في عقولنا سنن الله في

خلقه ، وإبداعه في تلك التكوينات الدقيقة التي تتمخض عن إنسان مدرك ناطق عاقل يبحث في أسرار الكون والحياة .

إن الجنين - أى جنين تشاء ، من أى نوع من المخلوقات تريد - يمر بأطوار محددة .. نراها تبدأ بسيطة ، وبخلايا متشابهة تماما في أصولها الوراثية ، ثم بعد فترة زمنية - قدرت تقديرا لكل نوع من الأنواع - نشهد فصول تمثيلية متقنة أشد الاتقان . وكأنما هناك عصا سحرية ، أو دافع خفي يحرك ويبدل ويغير ، ويبرز جزءا هنا ، ويحدث فجوة هناك ، ويشكل هذه الخلية أو الخلايا إلى عضلات أو عظام أو أعصاب .. الخ .. وكل هذا التشكل يتبع برنامجا زمنيا متقنا . أى كأنما الخلايا تحمل في طياتها آلة غير متطورة لقياس الزمن ، فتحدد الفصل القادم من تمثيلية تتابع حلقاتها في دقة وإبداع .

والعلماء يعلمون تماما أن هناك « لغة » سرية تنساب بين الخلايا الجنينية المتشابهة ، فتدرك مغزاها ، وتنفذ مضمونها ، وتستجيب لنداءاتها ، فتغير ما بداخلها ، لينعكس هذا التغيير على شكلها ونمطها وسلوكها . وقد تهاجر الخلايا من مواقعها ، لتنفذ رسالتها في جيرتها ، فتستجيب الجيرة للأمر الصادر إليها ، فتصبح سلالة خلوية جديدة ، لتهيئ نفسها للوظيفة التي تشارك بها في تكوين بدايات المخلوق . وبهذا تتميز الخلايا المتشابهة إلى خلايا مختلفة ، هي التي نراها في أنسجتنا المتباينة .

لكن ذلك لم يوضح لنا كيف تصبح هذه الخلية عينا ، وتلك كبدا أو كلية أو لسانا ، رغم أن كل خلية منها تحمل في نواتها البرنامج المتكامل المنسوخ من الأصل .. أى من الخلية الأولى الملقحة . ومع ذلك نرى كل خلية مميزة تخصص في عمل محدد ، وأمر مقدر .

الأمر أبسط مما نتصور .. فكل خلية تدبر شئونها بجزء صغير من البرنامج الوراثي المسجل في نواتها .. أى أنها لاتستخدم البرنامج كله ، ولو استخدمته كله لكانت الفوضى . والحياة لايمكن أن تقوم على فوضى .. بل إن النظام هو الناموس الأول من نواميس الحياة .. وهو سنة من سنن الله التى أرساها فى كل المخلوقات .. فمن طريق الحث الكيميائى الذى تقوم به الخلايا حسب برنامج زمنى محدد - كما سبق أن أسلفنا - تقفل خلية العين مثلا معظم البرنامج الوراثى ، وتبقى على جزء من هذا البرنامج ليصبح مفتوحا وصالحا للعمل . وبهذا يهيبها من أمرها رشدا .. وكذلك تفعل خلايا الكبد أو العظام أو البنكرياس أو المعدة .. الخ ، أى أن كلاً من هذه الخلايا أو الأنسجة المختلفة تشتغل فقط بجزء محدد من الحطة الوراثية المتكاملة التى ورثتها من الخلية الأم ، أى البويضة المحبسة .

ولكى نبسط هذا الأمر دعنا نتصور مجلدا ضخما من مجلداتنا التى نكتبها بعصارة أفكارنا ، ولتكن محتويات هذا المجلد هى المرشد الأساسى الذى تسير عليه دولة متقدمة فى إدارة كل شأن أو خطة من الخطط التى تنظم بها إداراتها وإنتاجها وصناعاتها المختلفة .. ولكى يحدث ذلك ، كان لابد من تخصص دقيق . إذ لو قام كل أفراد الدولة بنفس الوظائف ، لكانت الفوضى . ومن أجل هذا كان حتماً أن توزع الدولة العمل والوظائف على هيئات متخصصة .. كل هيئة تستخدم فقط الحطة أو البرنامج الخاص بها فى هذا المجلد الضخم ، ولا شأن لها بغيره . وعلى هداه تنظم خطة عملها ، لتنتج ماتخصصت فيه . ولكى لاتوه الهيئة فى بنود هذا المجلد الضخم ، كان لابد من شطب البرامج الأخرى التى لاتهمها . وترك البرنامج الذى يدخل فى تخصصها .. فهئية تخصصت مثلا فى الإنتاج الزراعى لها خطتها فى هذا المجلد الضخم ، ولا شأن

لها بتشغيل خطة الإنتاج الصناعي ، أو الحيوانى ، أو الكهربائى ، أو التعدينى .. الخ ، فهذا موقوف من المجلد الأساسى الذى بين يديها .

كذلك يكون الحال مع البرنامج الورائى « المكتوب » أو المسجل فى نواة الخلية الجسدية للإنسان .. مع الفرق طبعا بين ماخطط الإنسان وقدر ، وبين ماخطط الله فأبدع .. فن الميسور جدا أن نفهم خططنا ، لكن من الصعب جدا أن ندرك التكوينات المذهلة ، والتنظيمات الهائلة ، والخطط المقدرة تقديرا رائعا فى نواة خلية أى كائن حى ، لأنها المستولة عن ترجمة هذه الخطط إلى أنسجة متباينة ، وأعضاء متألفة ، ومخلوقات متناسقة . فنواة الخلية الجسدية فى الإنسان تحتوى على أكثر من مائة ألف وحدة وراثية « جينات » . وفى تقدير آخر تحتوى على مليون منها . والجينة تعنى مورثة ، أو هى وحدة الوراثة ، أو هى التى تحمل خطة متكاملة لعملية واحدة من العمليات الكثيرة جدا التى تتم فى أجسامنا . ومما لاشك فيه أن هناك نظما مذهلا لاستتوعبه العقول البشرية ، ولا الحاسبات الأليكترونية التى يتباهى بها الإنسان ويفاخر . وعلى أساس هذا التنظيم البديع جدا تؤثر مائة ألف أو مليون الجينة فى بعضها البعض ، لتنظم العمل بينها ، وتنفذ الخطط التى أوكلت إليها ، لتمخض فى النهاية عن مخلوق بديع .. هو الإنسان العظيم .

ثم إن مائة الألف أو مليون الجينة موجودة فى كل خلية جسدية .. فخلية الكبد تحملها ، وخلية المخ تحتفظ بها ، وكذلك الحال مع سائر الخلايا الأخرى .. لكن خلية الكبد مثلا لا تستخدم من هذه الجينات إلا نسبة ضئيلة (حوالى ٥% فقط) ، لتصبح بها خلية كبدية مميزة . أما الغالبية العظمى من البرنامج الجينى المتكامل فمجمد ومنوع عن العمل بنوع خاص من البروتينات ..

أى كأنما هذه البروتينات بمثابة الأغلال أو الأقفال الكيميائية التى تقفل معظم ملفات البرامج فى خلية ، لتسمح بتشغيل نسبة محددة فيها ، فتجعل العين عينا ، والقلب قلبا ، والمخ مخا .. الخ . وطبيعى أن الموضوع أعظم مناهات من ذلك بكثير ، لكن يكفى ماقدمنا فأوجزنا لتتخذنا لنا مدخلا نلج منه إلى موضوعنا العويص .

قصة أهل الكهف مرة أخرى :

على أن قصة أهل الكهف التى نام فيها بضع من البشر بضع مئات من السنين ستكرر مرة أخرى فى الخلية . ولكن بطريقة تناسب حياتها .

خذ لذلك خلية من أمعاء ضفدع ، أو أخرى من لسان طير ، أو ثالثة من خلق لإنسان أو أصبعه أو أى نسيج آخر جسدى ، تجد أن معظم الجينات فيها « نائمة » .. أى أنها لا تؤدى عملا . فعليها - كما ذكرنا - أغلال كيميائية تجعلها فى حالة سبات عميق يختلف زمنه باختلاف عمر النسيج أو المخلوق الذى يحتويه .

والفكرة التى يسعى إليها العلماء هى « إيقاظ » الجينات النائمة فى أية خلية جسدية من سباتها لتعيش أو تعمل من جديد .. فإذا تحقق ذلك ، اشتغل برنامج الخلية كله ، وكأنما هى تعود إلى حالتها الجينية ، أى كأنما ترجع فى الزمن إلى الوراء ، لتكتسب صفات الخلية الملقحة . ولكى يتم ذلك ، فما علينا إلا أن نزيل الأغلال الكيميائية التى تشل معظم الجينات عن العمل ، وبهذا نعيدها سيرتها الأولى .

وهل يمكن تحقيق ذلك ؟

لقد تحقق بالفعل في حالة الضفادع والنباتات التي أشرنا إليها . إذا استطاعت أن تنتج كائنا سويا ، وكأتما هي نفس الخلية الجنينية التي نشأ منها الكائن أول مرة .

إن زرع نواة الضفدع الجسدية في سيتوبلازم بويضة غير مخصصة ومفرغة من نواتها ، يعنى أن هذا السيتوبلازم بالذات تكمن فيه عوامل بيولوجية أو كيميائية . وربما كانت هذه العوامل بمثابة المفاتيح التي فتحت الأقفال البروتينية الكامنة على جينات نواة الخلية الجسدية . وعندما تحررت الجينات من أغلالها ، قامت من سباتها ، وكأتما هي تفتح خططها أو سجلاتها الوراثية لتبدأ العمل من جديد ، ولتعطى نسخا من الضفادع شبيهة شها مطلقا بالضفدع الذى عزلنا منه نواة خليته الجسدية .. والذى يؤثر بلوغ هذا الهدف فى الإنسان هي عقبات بيولوجية ضخمة يجب التغلب عليها أولا ، لأن هناك بونا شاسعا جدا بين حياة الضفدع وحياة الإنسان ، فبويضات الضفادع المخصصة لا تحتاج إلى أرحام كما هو الحال فى الإنسان . بل هي تنقسم وتتكاثر فى الماء .. كما أن التكوين الوراثى للإنسان أعقد بكثير من التكوين الوراثى للضفادع ، رغم أن فكرة الجينات وأغلالها لا تختلف بين إنسان وطفدع ونبات وحيوان .. أضف إلى ذلك أن تكوين نسخ مكررة من ذات خلايا النبات الجسدية أيسر تجريبيا من تكوينها فى عالم الحيوان .

على أن بعث الخلايا الجسدية من سباتها ليس بدعة ابتدعها العلماء . بل إن ذلك يحدث ، فى أجسامنا كلما تعرضت بعض انسجتها لمكروه .. فى حالة كسور العظام ، أو الجروح أو الحروق أو ماشابه ذلك ، نرى الخلايا « النائمة » بجوار الكسر أو الجرح وكأتما هي قد استيقظت وبدأت فى الإنقسام والتكاثر لتعوض ماتهنك . وعندما يصبح كل شىء على مايرام تتوقف ، وتعود إلى سباتها . لكن

هذا التوقف لايعنى أنها لاتعمل شيئا ، ولو فعلت لمات ، بل إن أجهزتها الخلوية الدقيقة تشتغل باستمرار . فهي تأكل وتنفس وتخرج فضلاتها الكيميائية في تيار الدم ، وتعوض ماقد يهدم من جزيئاتها الحيوية .. الخ . ثم إذا حدث مايدعوهوا إلى الانقسام والتكاثر ، فإنها تنشط نشاطا غير عادي ، وتكون نسخا من ذاتها .. أى أن خلايا الجلد تتكاثر لتعطى جلدا ، والعظام عظاما ، والكبد كبدًا .. وهذا يعنى أنها مازالت خلايا متخصصة ، ومازالت تشتغل بجزء صغير من البروجرام الوراثى الذى يناسب تخصصها . وكل هذا يشير إلى أنها لم تتحول إلى خلايا جنينية كالتى نشأت منها أول مرة ، ولو كان الأمر كذلك لسهلت الأمور أمام العلماء . فهم يتوقون إلى مثل هذه الخلايا التى لو حطمت كل الأغلال الكيميائية التى تغل معظم البروجرام الوراثى لأدى هذا التحطيم إلى تحررها ، وعودتها سيرتها الأولى .. أى خلايا جنينية . وعندئذ تكفى أية خلية منها لتتكاثر وتعطى جنينا طبق الأصل من المخلوق الذى منه ستعزل . وعند عزها توضع فى ظروف ملائمة لتواصل حياتها .. تماما كما حدث أو يحدث فى أطفال أنبوب الاختبار الذين نجح الأطباء والعلماء فى انتاجهم أخيرا .

الفرق كبير بين فكرتين :

وحتى لا يختلط الأمر فى بعض الأذهان بين فكرة أطفال أنبوب الاختبار ، وبين فكرة إنتاج ذات الإنسان من خلاياه الجسدية ، كان لابد أن نشير إلى أن الفرق كبير بين الفكرتين .. فالتجارب التى تمت فى السنوات الماضية ، وأدت إلى إنتاج بداية جنينية فى أنبوب الاختبار ، ثم زرعها فى رحم الأم بعد تهيئته لحمل تلك البداية الجنينية الصغيرة ، ثم سير الأمور بعد ذلك سيرا طبيعيا ، حتى تمت ولادة الطفلة الأنثى سليمة ، وماتبع ذلك من اهتمامات عالمية كان لها

صلى كبير بين العامة والخاصة ، هذه التجارب - رغم حساسيتها ودقتها وصعوبتها - تعتبر شيئا بدائيا أو طبيعيا . وقد تنظر إليها أجيال القرن الواحد والعشرين أو مابعدة بقرن ، كما ينظر مثلا هذا الجيل إلى بدايات العلوم التجريبية التي تمت في القرن التاسع عشر ، أو ما قبله بقرن .

فالطبيب سبتو وعالم الفسيولوجيا ادواردز اللذان نجحا في عملية الانخصاب في أنبوب الاختبار ، ثم نقلا بداية الجنين إلى الرحم ، قد تغلبا فقط على الصعوبات التي لازمت مثل هذه التجارب . فالحصول على حيوانات منوية من رجل أمر ميسر ، لكن « شفت » بويضة من تجويف بطن المرأة أمر صعب . وهو يحتاج إلى دقة ومهارة و « تكنيك » مبتكر . ثم إن وضع البويضة مع الخلايا الجنسية للرجل في أنبوب الاختبار . ثم تهيئة الوسط المناسب للانخصاب خارج الأرحام ، ليس فيه خروج على النواميس الطبيعية . فما دامت هذه الخلايا قد اجتمعت بتلك . فلا شيء يمنع من التلقيح الطبيعي . ثم ما يتبع ذلك من انقسام البويضة الملقحة وتكاثرها إلى عدة خلايا . وهذه هي البداية الحقيقية للجنين . وعندئذ يتم نقله بعناية بالغة إلى رحم مهيا مقدما لاستقباله . ليلتصق . بعد ذلك بجداره . وبعدها تسير الأمور سيرها الطبيعي ، حتى تتم الولادة . أي أن الإنسان هنا يقلد أصول عملية طبيعية . ولكنى ينجح في تقليدها . كان لا بد من معرفة أسرارها ، ومحاكاة ظروفها .

لكن الضفادع والأسماك تفعلها دون الحاجة إلى معامل أو أنابيب اختبار ، أو أوساط غذائية مناسبة .. الخ . لأن التلقيح يتم في الماء ليس إلا . وكأما هذا الماء بمثابة أنبوب اختبار كبير .. ففيه تلتقي بويضات الإناث ، مع الحيوانات المنوية للذكور . وبعدها يتم نمو الأجنة في الماء ، حتى تكتمل وتصبح حيوانات يافعة .

وكل هذه أمور طبيعية ، مادامت تقوم على أساس خلايا جنسية ، ينشأ منها كائن يجمع بين صفات الأبوين الوراثية .. أى أن الجنين أو المولود هنا ليس نسخة طبق الأصل من أبيه ، ولا نسخة طبق الأصل من أمه . بل هو سبيكة وراثية جديدة لا يمكن أن تتكرر أبدا بين بلايين بلايين .. الخ المخلوقات . ذلك أن المولود هنا هو بعث لاثنين في واحد .. أى بعث جيل جديد ، على أنقاض جيل قديم .

لكن بعث الخلية الجسدية ، وتحويلها إلى خلية جنينية ، هو عودة بالخلق إلى الوراء في الزمن . وهذا أمر خطير حقا ، وهو يشكل قضايا فكرية وعلمية وفلسفية واجتماعية وعقائدية عويصة . لكن دعنا من هذه الآن ، فسنعود إليها . فخطورة البحوث هنا أنها ستطرح بالنواميس الطبيعية التي فطر الله الناس عليها . هذا لو نجحت التجارب في الإنسان كما نجحت في بعض النباتات والأصناف . ويقال إنها حققت نجاحا مبدئيا مع الفئران ، وهى من الحيوانات الشديدة ، كما سبق أن أشرنا .

هناك مثلا علم قائم بذاته يعرف باسم زراعة الأنسجة في الدوارق والأطباق والأنابيب . وفيه يعزل العلماء الأنسجة ، ويفصصونها بطرق خاصة إلى خلايا . ولا شئ يمنع من انقسام هذه الخلايا وتكاثرها ، ما دامت تعيش في أوساط غذائية مناسبة . وفي هذه المزارع يقوم العلماء بدراسات عميقة ومعقدة ومنتشعبة على الخلايا السرطانية أو الخلايا العادية ، ويفحصون محتوياتها بكل ما وضعه العلم بين أيديهم من وسائل تكنولوجية متطورة ، علمهم يدركون بحر الأسرار الكامن في داخلها . ولقد حقق العلماء في ذلك نتائج باهرة ، لكننا لانزال في بداية الطريق ، لأن الألبغاز المطوية أعقد وأعظم مما تتصور . لكن كل شئ يتطور . وقد تتمخض هذه البحوث في السنوات القادمة عن نتائج

مذهلة ، ومنها قد نعرف سر تحول الخلايا الطبيعية ، إلى خلايا سرطانية مدمرة . وقد نضع يدنا على سر المفتاح أو المفاتيح الكيميائية والوراثية التي أطلقت في الخلية السرطانية شرارة الانقسام والتكاثر الذى مخرجت به على قانون الحياة .. ذلك أن كل خلية جسدية موضوعة تحت رقابة صارمة ، فإذا انقسمت فإنها تنقسم بحسب ومقدار ، ثم تتوقف بعد أن تكون قد أدت مهمتها التى من أجلها حدث التكاثر (كما فى حالة الكسور والجروح .. الخ) ، أى كأنما هناك أحكام وضوابط على برنامجها الوراثى . وبه تسير على الطريق الصحيح .. لكن يبدو أن الخلية السرطانية قد ضرت بتلك الأحكام والضوابط عرض الحائط ، وانطلقت فى عريضة ليس لها من دافع . اللهم إلا من جراحة مبكرة تستأصل الورم من جذوره ، وإلا عم التدمير ، وحل الموت .

إن الاعتقاد السائد بين العلماء الآن أن جنون الخلية العادية يرجع إلى تحررها من بعض الأفعال الكيميائية التى تقف على جنباتها كالحارس الأمين ، أى كأنما هذه «الأفعال» بمثابة صمام الأمان الذى يوقف انفجارها فى عمليات انقسام وتكاثر ليس له ما يبرره .

وربما يبدو أننا خرجنا من موضوع إلى موضوع ، وما ذلك بخروج ، بل إن عناصر الموضوع متداخلة ومتشابهة . فدراسة الأنسجة والخلايا فى هذه المزارع الخاصة ، وبعيدا عن متاهات الجسم الحى ذاته ، قد حققت هدفين عظيمين ، أولهما : معرفة سر انفلات عيار الخلايا العادية ، لتصبح سرطانية ، وهل ذلك يرجع مثلا إلى إزالة «الأغلال» الكيميائية التى توقف كل شئ عند حدوده ، ولماذا أو كيف أزيلت .. لأن الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها ، ستمهد لنا الطريق إلى مكافحة غول السرطان الرهيب مستقبلا . وبهذا تتخلص البشرية فى هذا الجيل أو الأجيال القادمة من عدو البشرية الأول .

ثم إن تفهمنا للكيفية التي « تتعري » فيها الجينات من « ستارتها » البروتينية ، أو أفعالها التي توقف نشاطها قد يقود إلى الهدف الثاني .. أى إعادة الخلية الجسدية إلى خلية جنينية . وعندئذ يمكن السيطرة عليها بعمليات كيميائية أو بيولوجية لم تفتح عليها بعد عقول علماء هذا الزمان . فإذا تفتحت وسيطرت فما أيسر إعدادها بعد ذلك إلى رحم أنثى مهياً للحمل ، وكأنا هي نفس البويضة الملقحة التي تمخضت عن ذلك الرجل أو تلك المرأة التي منها قد عزلت .. فقد يكون عمر هذا الإنسان مثلاً خمسين عاماً ، فإذا أخذنا منه خلية أو عدة خلايا جسدية ، وحررناها من أغلالها البروتينية ، وزرعناها في رحم طبيعي أو صناعي ، فإننا نكون كمن عاد بالزمن إلى الوراء خمسين عاماً ، لأن الخلية الجسدية ذات الخمسين عاماً ، سوف تتمخض عن جنين هو صورة طبق الأصل لهذا الرجل ، أو تلك المرأة ، وكأنا هو أو هي قد عادا إلى طفولته الأولى مرة أخرى . وبنفس الشكل والصوت واللون والبصمات والبروتينات .. الخ .. الخ .

ولكى نوضح أكثر نقول : إن بعض المطابع المتقدمة تستطيع الآن أن تجمع أصول أى كتاب على شريط من الورق بطريقة التثقيب (والثقوب هي شفرات أو كودات لحروف لغتنا) . وعندما يوضع هذا الشريط في آلة طباعة أليكترونية ، فإنها تحيله إلى كتاب .. ثم لنفرض بعد ذلك أننا احتفظنا بهذا الشريط عشرات السنين ، وأردنا أن نخرج منه طبعة أخرى ، فإن الطبعة الجديدة تكون نسخة طبق الأصل من الطبعة القديمة .. إن المعلومات واحدة ، لكن الزمن مختلف . وكذلك يكون الحال مع النسخ البشرية ، لأن الجينا الموجودة في نواة أية خلية جسدية ، هي أيضاً بمثابة أشرطة وراثية عليها شفرة كيميائية تصل إلى البلايين . لكن دعنا من ذلك الآن ، وسوف نعود إليه في

فصل قادم لمزيد من التوضيح ، إذ يكفي أن نذكر هنا أن كل خلية جسدية من ملايين الملايين التي يحتويها جسدك أو جسدى ، تحوى نفس الطبعة الوراثية من الخلية المنحصة ، لأنها مشتقة منها . وقد تصلح أية خلية من الجسد بعد زمان يطول أو يقصر ، لإعادة طبع نسخة أو نسخ من ذات الإنسان الذى أخذت منه الطبعة القديمة ، نعى نواة الخلية الجسدية فى الجسم البالغ . على شرط أن تحرر الأشرطة مما يطمسها ، لتعطيك طبعة متقنة من نفس الطبعة الأولى .

ليس ذلك لكل من هب ودب .

على أن فكرة العلماء فى إعادة طبع محتويات الأشرطة الوراثية لن يكون لكل من هب ودب . فما أكثر البشر الواردين على هذا الكوكب ، لكن ما أقل العقول العظيمة التى أثرت فى حياة البشر ، ورسمت لهم المناهج الفكرية والعلمية والفلسفية والجمالية والقيادية التى أصبح لها بين الناس شأن يذكر . والحق أن هذه القلة القليلة من البشر قد خلد التاريخ ذكراها العطرة ، حتى لكأنما هم بأفكارهم المبدعة - رغم موتهم - مازالوا أكثر حياة فى عقولنا من حياة البلايين التى تجىء وتذهب . ثم لانتربك فى هذا الكوكب تراثا فكريا له قيمة تذكر .. إن ابن خلدون وابن سينا والفارابى وديكارت واينشتاين وذر فوررد ومدام كورى وأم كلثوم وغيرهم مازالوا أحياء فى وجداننا وعقولنا . صحيح أنهم قد ذهبوا ، لكن آثارهم باقية ، وكأنما هى مصابيح وضاءة على جبين البشرية .

ثم إن الحياة فى مشوارها الطويل « تفضى وتغير وتبدل . واهداف من ذلك هو اختيار الصالح والمحافظة عليه . فى حين أنها تترك الطالح ليقضى على نفسه ، أى إن البقاء دائما للأصلح .. لكن الحياة تهتم بالأنواع لا الأفراد .. أى أن النوع باق ، والفرد زائل .. لا يختلف فى ذلك الملوك عن الصعاليك ،

ولا الأذكىاء عن الأغبياء . لكن يبدو أن إنسان القرن العشرين قد بدأ يتحدى هذا المبدأ ، أى أنه لا يريد أن يترك الأمر للطبيعة . فالتطور فيها إلى الأحسن عملية جد بطيئة . وهى تحتاج لأجيال طويلة . ومع ذلك فالعباقرة والموهوبون فى هذه الأجيال قلة قليلة ، فلماذا لانعيد تكرارهم ، أو طبع نسخ طبق الأصل منهم ، ليجودوا على البشرية بالمزيد من انتاجهم ؟

لكن .. هل من حق العلماء أن يفعلوا ذلك على هواهم ، دون أن تتدخل الحكومات والهيات للحد من طموحهم ، علمهم يتركون مالله الله ، ومالقيصر لقيصر ؟

إن هذا السؤال سابق لأوانه ، ولاشك فى أنه سيرطح مستقبلا . لأن ذلك ليس هدفا فرديا بقدر ما هو هدف قومى واجتماعى وأخلاقى وسلوكى ، مما قد يترتب عليه نتائج غريبة .. ثم إن الفرد حر مثلا فى اختيار شريك حياته ، وحر فى اختيار جنس المولود الذى تقر به عينه .. فإن كان يريد ذرية من البنين ، فسيمنحه العلم ما يريد ، أو ذرية من البنات ، فلاشئ يمنع ذلك .. ولاشك أن هذا أيضا قد يكون هدفا سابقا لأوانه . لكن الهدف قد تم بلوغه مع المواشى والطيور . لأن إناث هذه الحيوانات مرغوبة ، وذكورها فى حكم المرفوضة . فثور واحد قوى يكفى لتلقيح عشرات أو مئات من الأبقار ، لأن البقرة تمنحنا لبنا وزبدا ومريدا من الذرية التى تزيد بدورها الثروة الحيوانية ..

ولد أوبنت لا يهم العالم الآن بقدر ما يهمه مزيد من الإنتاج الغذائى . ولهذا لجأ العلماء إلى زيادة الإناث فى هذه الحيوانات عن طريق فصل الحيوانا المنوية بطرق مختلفة إلى نوعها - أى الأنثوية والذكورية - فالمعروف أن نصف هذه الخلايا الجنسية الذكرية يحمل عامل الأنوثة ، ونصفها الآخر يحمل عامل

الذكورة .. وقد تطبق هذه التجارب على الإنسان ، لكن عملية الفصل قد تعرض الخلايا الجنسية إلى تغيرات طفيفة ، قد تؤدي إلى ولادة أجنة غير سوية . وعندئذ تكون قضايا ومحاکمات وثورات في الرأى العام . وهذا مالا يعرفه الدجاج أو الأبقار . ومن أجل هذا أوصد العلماء الباب في وجه البشر ، وفتحوه لتجارب البقر .. الآن على الأقل .

لكن مما لاشك فيه أن علماء المستقبل سوف يضعون نصب أعينهم محاولة تطبيق التجارب التي نجريها في زماننا هذا على الضفادع والفئران أو على غير ذلك من حيوانات ونباتات سيطبقونها على الإنسان فلاشئ يثنى العلماء عن طموحهم مادامت الفكرة قد اشتعلت ، وتمخضت عن تجارب طيبة يمكن تطبيقها على البشر ، أسوة بما يحدث الآن من تلقيح بين الخلايا الجنسية في أنابيب الاختبار ، ثم زرعها بعد ذلك في الأرحام . فهناك في عالمنا الآن عدة مواليد من البشر قد جاءوا عن طريق غير طريق عملية الجماع التقليدية بين الرجل والمرأة .

ولاشك أن الذى سيدفع علماء المستقبل إلى إعادة نسخ الإنسان كما نسخ جيردون أو غيره ضفادع من أمعاء ضفدع ، هو أن بعض البشر لهم صفات ممتازة .. عبقرية نادرة في العلم أو الفن أو الأدب أو الطرب ، مع قوة في الأجسام ، ومقاومة للأمراض ، وجمال في التقاطع .. وهذه أو غيرها قد تجذب اهتمامهم لتكرارها ، ثم أنهم سيأخذون في الاعتبار مبدأ النوع .. لا الكم .. فرب واحد يساوى مائة أو ألفا أو أكثر .

صحيح أن هذه الأفكار قد لانستسيغها الآن . أو قد تبدو أضغاث أحلام ، إذ أن كل فكرة جريئة سابقة لأوانها ، قد تعتبر إفكاً وشذوذاً عن العرف السائد .. فلو أن أحداً قال منذ نصف قرن إن الإنسان سوف يخطو على

القمر لكان كلامه لإحدى الكبر. لكن ذلك قد تم ، وأحدث في العالم وقتها ردود فعل عنيفة . ومن الناس من صدق ، ومنهم من كذب ، ثم بهت الاهتمام بغزو الفضاء في عقولنا لدرجة أنه أصبح الآن شيئا عاديا في حياتنا . فالصواريخ الفضائية ، والأقمار الصناعية .تنطلق كل آن وحين ، دون أن يحرك ذلك اهتمامنا ، أو يثير وجداننا .. وكذلك كان الحال مع تفجير أول قنبلتين ذريتين صغيرتين على هيروشيما وناجازاكي في نهاية الحرب العالمية الثانية ، أو انطلاق أول صوت من قارة لتسمعه قارة أخرى عبر المحيط ، أو إنتاج أول مذياع ، أو رؤية علمنا على شاشات التلفزيون ، أو زرع قلب أو كلية مكان قلب أو كلية معطوبة .. كل هذا وغيره كان يثير موجة هائلة من اهتمام الناس في البداية ، ثم يصبح أمرا عاديا في النهاية .

والتنبؤ هنا يبعث الإنسان مرة أخرى على الأرض بكل صفاته التي عاش بها بيننا ، لا ينبع من فراغ ، وليس هو محض خيال . بل إن بذرته بالفعل موجودة .. وتجارب الضفدع هي التي ستقودنا إلى تجارب على الإنسان . لكن بعد أن يصبح « التكنيك » أكثر تطورا ودقة وحساسية .. وهذا يحتاج إلى زمن .

لكن مما لاشك فيه أن المستقبل سيكون أغرب مما نتصور .. كل ما هنالك أن عقولنا لا تستوعب ، ذلك أن القانون الدستوري لجنوب كاليفورنيا لم يأخذ مثل هذه الأمور على أنها مزاح أو خيال بل وضع لأئحة مكونة من ١٠٤ صفحات عن الأصول والمشاكل القانونية وحق العلماء في إجراء تجارب التكاثر « الحضري » أو العذرى أو اللاجنسى (أى تحويل الخلايا الجسدية إلى نسع بشرية كالأصل الذي منه عزلت) .. ثم تحديد وتقنين أسلم الطرق التي تقوم عليها هذه التجارب .

ثم إن علماء البيولوجيا البارزين عامة والأجنة والوراثة خاصة (وبعضهم قد حصل على جوائز نوبل في العلوم البيولوجية) بدأوا يتحمسون لمثل هذه التجارب . لكن أقلهم حماسا هو عالم الأجنة البروفيسور ليون كاس Kass . إذ يذكر في تقرير له نشر في عام ١٩٧٢ ويضم ٣٨ صفحة ، فقرة نقلها بنصها .. يقول كاس « لو أننا أخذنا في الاعتبار تخطى العقبات القائمة في مثل هذه التجارب ، والعدد المتزايد من العلماء المتخصصين الذين سيشاركون في علم الأجنة التجريبي ، لكان من المتوقع أن نشهد إنتاج أول حيوان ثديي من خلايا الجسد في السنوات القليلة المقبلة . وعندئذ لا بد أن يتبع ذلك دفعة قوية لإنتاج حيوانات أخرى أهمها الدواجن والماشية .. فبواسطة زراعة الخلايا الجسدية في الأطباق والأنابيب (وهذا ماسبق أن أشرنا إليه) ، وعن طريق إتقان تكنولوجيا هذه المزارع في الوقت نفسه ، فإن الخطوة التي تلي ذلك سوف تتمخض عن إنتاج أول إنسان بالتكاثر اللاجنسي أو العذري وهذا لا يستلزم إلا بضع سنين أخرى » ... فإذا كان هذا رأى عالم غير متحمس ، فما بالنا بآخرين يأخذون الأمور مأخذ الجد ، وبقعون أنهم بالغوا في الهدف الكبير لاحتمال ؟ .

وعالم مرموق مثل سنشايمر Shinsheimer - وهو من الأسماء اللامعة في علم جزيئات الوراثة - يذكر « أن التكاثر اللاجنسي أو الجسدي (Cloning) سوف يتيح لنا أن نحفظ ونخلد أروع وأبدع الطرز الوراثة التي تنتشر في نوعنا ، أسوة بما حدث في الاحتفاظ بالتراث الفكري للعباقرة عن طريق اختراع الكتابة » .. وهو يعنى بذلك انتقاء أحسن مافي البشر من صفات عن طريق « السجلات » الوراثة في نوى الخلايا ، لأنها محفوظة فيها ، وسوف تحفظ عن طريق نسخها بالتكاثر الجسدي .

وعالم مرموق آخر مثل ليدريرج يقول « لماذا لانسخ من العبقري إنساناً مثله

تماما بدلا من الاعتماد على صدفة مجيء مولود قد لا يكون عبقريا كأبيه» .. وهو يقصد بذلك أن الإنسان العبقري يحمل في خلايا جسده الأسس الوراثية لذلك ، وأنه من الممكن نسخها ، لتعطي منه صورة طبق الأصل . وهذا يختلف عن عملية الزواج التي تؤدي إلى «تحقيق» هذه الصفات الممتازة مع الأصول الوراثية لزوجته (فرمما كانت جميلة .. لكنها غبية) .. أى أن الأصول النقية سوف تبقى على حالها لو أننا «نسخنا» منه خلية جسدية أو أكثر.

لوان ألدوس هكسلي الكاتب العلمى ذا الخيال الخصب قد اطلع على هذه الأنباء ، لعرف كم كان خياله متواضعا ، فى عام ١٩٣٢ قدم روايته العلمية الخيالية «عالم جديد شجاع» وتصور أن العلماء بعد ستة قرون من عصره سيكون بمقدورهم أن ينتجوا ٩٦ إنسانا من واحد فقط . وهو لم يذكر لنا كيف سيتم ذلك ، أو ربما كان خيالا محضا . لكن الخيال قد بدأ يتحول إلى حقيقة ، ليس بعد ستمائة عام ، ولكن ربما بعد أقل من قرن واحد بداية من تاريخ تخيله لذلك .

عالم قد نتمقته :

والسؤال الذى قد يلح الآن على الأذهان ، وما أكثر الأسئلة الحائرة فى هذا المجال .. السؤال هو : هل تستحق تلك التجارب - تجارب بحث الذات البيولوجية للإنسان أو الحيوان - كل هذه الاهتمامات ، وما تتطلبه من جهد ووقت ومال وإمكانات خاصة وأنه لا يمكن أن تقوم بها إلا معامل على مستوى هائل من التجهيزات ، بما فيها أيضا من علماء على درجة كبيرة من الذكاء والإلهام ؟

الواقع أن التقدم فى مجال العلوم قد يكون سلاحا ذا حدين .. المدنية

الحديثة ذاتها قد قدمت لنا تسهيلات في حياتنا لا يمكن أن تنكر. لكنها في الوقت ذاته قد أخلت بنظم البيئة ، وأدخلت فيها عنصر التلوث الذى ندق له نواقيس الخطر. وكذلك الحال مع الطاقة النووية ، ففيها يكن التعمير ، وفيها يكن التخريب .. والأمثلة بعد ذلك كثيرة . ونفس القصة قد تتكرر مع النسخ البيولوجى ، لكن التنبؤ بما ستأتى به الأيام ، قد يكون أغرب من الخيال ، وعلينا أن نقدم هنا أكثر من مثال :

إن زراعة الأعضاء البشرية السليمة مكان الأعضاء التالفة ، يستلزم تصحية إنسان بإحدى كليتيه ، ليمنحها لآخر. وهذا يستوجب أن نكسر شوكة أجهزة المناعة ، لكي لتحارب العضو المزروع . ثم إن النتيجة هنا غير مأمونة العواقب دائما .. وزراعة الكلى هى الثقيلة السائدة ، لأن الإنسان يمتلك كليتين . ومن الممكن أن يعيش بكلية واحدة ، ويضحى بالأخرى لإنسان يحتاجها ، لكن الأمر يختلف مع القلوب ، فلا أحد يستطيع أن يضحى بقلبه لغيره ، أو قد تتزعزع قلوب من يموتون في بعض الحوادث ، ونحتفظ بها لفترة تحت ظروف خاصة ، لحين زراعتها في إنسان يحتاجها . لكن أجهزة المناعة تقف للقلب المزروع بالمرصاد ، وعالم الغد لن يقع في حيص بيص عند تناوله لهذه المشاكل العويصة .

إن عالم ألدوس هكسلى الجديد الشجاع سوف يكون مرعبا ، لا شجاعا ، فما يدرينا أن نجاح إنتاج نسخ بشرية جديدة طبق الأصل من القديمة ، ما يدرينا أنها لن تستخدم في تمويل « قطع غيار » بشرية بدل الأعضاء التالفة في الإنسان البالغ ؟.

ولكى نوضح ذلك أكثر ، دعنا نضرب له مثلا : لنفرض أن زيدا من

الناس قد مول عملية إنتاج نسخة طبق الأصل من ذاته ، وذلك بالطريقة التي سبق أن أشرنا إليها في أكثر من مناسبة . عندئذ ستكون النسخة الجديدة متماثلة تماما مع طرازه الوراثي والبروتيني . أى لو توقفت فيه كليته أو كليته ، أو عطبت صمامات قلبه ، أو أصبح قلبه لا يستطيع أن يواصل الحياة ، أو أن كبده قد تليّف ، ولا بد من تغييره . عندئذ قد يستولى على هذه الأعضاء من النسخة الجديدة ، ولو زرعت في جسمه محل الأعضاء التالفة لما عرف الجسم أنها غريبة . ولهذا فلن يلفظها أو يحارها ، بل يتقبلها قبولا حسنا . وبهذا تكتب الحياة للنسخة القديمة على حساب النسخة الجديدة .

لاشك أن هذه تصورات سيئة وردية . وهى بلاشك أيضا جريمة . وقد يطرأ على أذهاننا بسببها أسئلة جديدة : هل سيسمح مجتمع المستقبل أو قوانينه بذلك ؟ .. وهل الأفضل أن تحل النسخة الجديدة ضيفا على الحياة لتواصل مشوارها ، ولتذهب النسخة الأخرى إلى الجحيم ؟ .. وكيف تسول النفس للنفس أن تصل بها الأنانية إلى هذه الدرجة ، فتميت ذاتها الجديدة لتكتب الحياة لذاتها القديمة مرة أخرى ؟ .. الخ .. والجواب على ذلك ينبع من أنماط تفكير أجيال المستقبل . فلكل جيل أفكاره وتقاليده .. كل هذا متروك لتقديرهم ، لا لتقديرنا .

من ناحية أخرى قد يأتي طفل إلى الحياة بالطريقة الشرعية أو الطبيعية ، فيصبح قرة عين والديه ، ففيه من الصفات الطيبة كل ما هو مرغوب ومحجب إلى والديه وأهله وعشيرته . لكن الطفل قد يموت لسبب من الأسباب ، فيصبح ذلك في عرفنا كارثة على والديه . لكن بعث نسخة منه جديدة ، وبنفس صفات الذى مات سيعوض الوالدين عن فقده . فعند الموت لأموت خلايا الجسم فى التواللظة . بل إن بعضها قد يستمر حيا ساعات . ومن الممكن

عزل بعض خلايا من أمعائه ، ثم زراعة خلية واحدة وإعادتها إلى حالتها الجنينية في أنابيب الاختبار ، وبعدها تنقل إلى رحم أمه ، وكأنما خلية الطفل الجسدية قد أصبحت هي ذات البويضة الملقحة التي حملتها الأم منذ سنوات (هي عمر الطفل الذي مات) . وعندما تشكل في جنين كامل بعد أشهر تسعة ، تم ولادة مولود ، صورة طبق الأصل من الطفل الذي راح .

أو قد تتبنى الدول إنتاج نسخ طبق الأصل من عباقرتها الموهوبين في الفن والعلم والطب وماشابه ذلك . ولاشئ يمنع ذلك خاصة بعد أن يكون « التكنيك » قد أصبح ميسورا بفضل التطور الهائل في العلوم البيولوجية ، أو بالأخص علوم الأجنة والوراثة وزراعة الخلايا والسيطرة عليها .. الخ ، وعندئذ تمتلك الدول رصيذا دائما من خيرة رجالها ونسائها ، فتعوض النسخ المفقودة ، بنسخ جديدة لها نفس المميزات .

ثم إذا تحقق شيء من ذلك ، رغم أن الدلائل تشير إلى إمكان تحقيقه ، فإن ذلك قد يضعنا في مأزق فكرية لانحسد عليها ، خاصة إذا حدث هذا الشيء على مستوى العائلة .. إذ كيف سيتعامل الأفراد فيها إذا ماحدث وأصبح للأب من ذاته نسخة ، وللأم من ذاتها نسخة كذلك .. إن ذلك يعنى ببساطة وكأنما الوالدان قد عادا طفلين ، فشاين .. حقا ، كيف سيتعامل أفراد الأسرة مع هاتين النسختين الجديديتين ؟ .. هل من حق الأب الكهل مثلا أن يستحوذ على النسخة الشابة من زوجته القديمة أو الكهلة ، خاصة أنها ستبدو أمامه صورة طبق الأصل من القديمة أيام أن عقد عليها قرانه منذ ثلاثين أو أربعين عاما مثلا ؟ .. وماهو وضع الأولاد بالنسبة لهاتين النسختين الجديديتين ؟ .. فهل يعتبر الشاب الذي بلغ من العمر مثلا خمسة وعشرين عاما أن النسخة الجديدة من

ايه بمثابة أبيه أيضا ، وهل يناديها بقوله : يا أبي رغم أنها أصغر منه عمرا ، أو : يا أمي ، رغم أن النسخة الجديدة من أمه مازالت عذراء ؟.. إن الأمور قد تذهب إلى ما هو أسوأ عندما يصبح الرجل جلدًا ، وله أحفاد ، فهل ينادى الحفيد على النسخة الجديدة من جده ، فيقول لها : يا جدي ، رغم أن جده هذا قد يكون أصغر منه عمرا ؟.. ثم ما هو الوضع شرعا بين النسخ الجديدة التي جاءت بطريق التكاثر الجسدي مع الأبناء الذين جاءوا بطريق التكاثر الجنسي ؟.. إن مثل هذه الأسئلة الرديئة على عقولنا الحالية لها حقا ما يبررها . وهي توضح لنا صورة لما يمكن أن يكون عليه المستقبل لو أن التكاثر الجسدي قد أصبح أمرا شائعا كشيوع قطع الغيار البشرية في زماننا هذا .

إن هذه الأسئلة أو غيرها قد تكون نواة لتشريعات جديدة تفرض نفسها على مثل هذه المجتمعات الغريبة . أو قد يتناولها كاتب خيالي واقعي ، لينبئ عليها قصة مثيرة تهون بجوارها قصة الدوس هكسلي عن عالمه الجديد الشجاع . أو قد يكون لعالم المستقبل قصصه وأحداثه وسلوكه وتقاليده التي لو اطلعنا عليها ، لكان الموت هو الوسيلة العادلة التي تريحنا من معاناة فكرية أكثر هولا من معاناة أهل الكهف . وعندئذ يريحنا الله كما أراحهم .. فزمانهم ليس فقط غريبا ، بل سيكون أغرب مما نتصور .

إن نواة إنتاج نسخة بشرية جديدة ، من نسخة قديمة ، قد دفعت الكاتب العلمي المتمكن دافيد رورفيك Rorvik إلى كتابة كتاب ممتع يقع في أكثر من مائتي صفحة ، ومزود بجوالى مائتي مرجع علمي ، وعنوانه « على صورته In His Image » . والكاتب يحكي كيف أنه في الليلة التي كان يتسلم فيها جائزة الصحافة العلمية ، تلقى مكالمة من أحد المليونيرات الذي أسر إليه بأنه متتبع لبحوث هندسة الوراثة والتكاثر الجسدي أو الخضري . وطلب منه أن يتصل

بالعلماء المتخصصين في ذلك ، لكي ينتجوا له نسخة من ذاته ، وأنه مستعد لتحويل هذه البحوث . والكاتب يريد أن يقنعنا بأن المعجزة قد تحققت بالفعل منذ ستين ، لأن الوصف التفصيلي (الذي قدمه باقتدار يحسد عليه) للخطوات التي قام بها العلماء لإنتاج نسخة جديدة من المليونير ، توحى لعامة الناس بأن ذلك قد تم إنجازه حقيقة لا خيالاً . لكن ذلك لا يجوز على العلماء الذين يعرفون أن ذلك لا يمكن أن يتم في الإنسان في القرن الحالى ، ولا حتى في القرن الذى يليه .. لكن لادخا ن بدون نار .

ولنفرض هنا أنه أمكن « نسخ » الإنسان من جديد . فهل يعود بطباع وميول وعلوم وفنون النسخة القديمة ؟

بالتأكيد أن صفاته الوراثية الأصلية ستعود طبق الأصل للصفات التي منها قد نشأت ، وغير ذلك يتأثر بالبيئة التي ستعيش فيها النسخة الجديدة .. أى لا بد أن تتعلم من جديد ، وتعى من عالمها ماتريد .

الهدف مايفيد :

على أن مثل هذه التجارب « الجهنمية » سوف تحدث في بادئ الأمر صدمة أعنف من أية صدمة أخرى أصابت الناس عندما سمعوا عن تحقيق أهداف بيولوجية وتكنولوجية لم تكن لتزد على خواطرهم .. لقد كتم مثلاك من ادواردز وستتو الانجليزيان تجارب الإخصاب خارج الأرحام ، وظلا يعملان ويجريان ويفشلان سنين عديدة ، دون أن يعرف الرأى العام مايدور وراء جدران معامل البحوث . وفجأة أعلننا عن قرب نجاح ولادة طفلة بدأت حياتها الأولى في أنبوب الاختبار ، فأحدث ذلك فرقة هائلة في كل أجهزة الإعلام .

والشئ نفسه يحدث الآن وراء جدران كثير من المعامل المتقدمة. ومجرد ذكر الأهداف التي حققها وسيحققها العلماء مستقبلا ، قد تصيبنا بصدمة ، خاصة في الرأى العام الذى لا يتعامل إلا مع الأمور التقليدية ... لكن طموح العلماء وشغفهم الشديد بالكشف والمعرفة والتطبيق ، يدفعهم دائما وبجاس إلى بلوغ المراد . وسوف نقدم فى الفصل القادم بعض ماجرى فى المعامل البيولوجية ، ثم ماقد يتمخض عنه فى الأجيال القادمة من تغيير فى صفات الإنسان نفسه ، أو تخليق سلالة جديدة ما أنزل الله بها من سلطان .

لكن الصدمة ستكون أقل وطأة لو عرفنا أن إنتاج نسخ من الحيوان والنبات طبق الأصل من هذه الكائنات ، هو الهدف الذى يسعى إليه العلماء الآن وقد يتحقق ذلك قبل نهاية هذا القرن .. لكن هذا النسخ أو البعث الجديد سيفيد البشرية ، ولن يخلق فى عقولنا تلك التصورات الرديئة التى تختص ببعث نسخ من زيد وعمرو وعبيد . ذلك أن تلك الكائنات الحيوانية والنباتية لاتدرك كما يدرك الإنسان . ولهذا فالأمر عندها سيان أى أنها لاتستطيع أن تقيم وزنا بين التكاثر الجنسى ، والتكاثر اللاجنسى .

إن الإنسان - من أجيال طويلة - يحاول دائما أن يحتفظ بأحسن السلالات النباتية والحيوانية . لكن لإنتاج هذه السلالات يعتمد - فى المقام الأول - على عملية التزاوج بين ذكر وأنثى لها صفات وراثية ممتازة ، لكن الإنتاج قد لايتحقق المراد . فمن بين عدد كبير من الذرية قد ينشأ ثور أو بقرة أو خروف أو حصان له صفات وراثية تفر بها الأعين ، وتطمئن لها الأنفس .. أى أن عملية الاختيار والانتقاء هنا بطيئة ، وتعتمد على الحظ أو الصدفة .

فكما يباع لاعب الكرة الممتاز بنصف مليون أو مليون دولار أو أكثر ، وغيره

لايساوى أكثر من ألف دولار ، كذلك يكون الحال مع المواشى والدواجن .. خذ على سبيل المثال ذلك الثور الممتاز - جو الأبهة ، أو المفخرة - الذى بيع بمبلغ ٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار ، واشتره د . س . باسولو من كاليفورنيا من شركة يقالو لتربية الماشية (البرتا - كندا) - وكان ذلك فى يوم ٩ سبتمبر عام ١٩٧٤ - وهذا المبلغ الخيالى لم يدفع هكذا جزافا ، بل إن الثور له صفات وراثية ممتازة ، ولايجاربه فيها أى ثور آخر . لكن استخدام الحيوانات المنوية لهذا الثور فى تلقيح أبقار ممتازة (التزاوج أو الإخصاب التقليدى) لن ينتج صفات الثور ذاتها ، لأن البقرة سوف تشارك فى إنتاج الذرية بنصف مكوناتها الوراثية ، والثور الممتاز كذلك . أى أن الناتج سيكون خليطا بين الاثنين . وقد تكون المواليد ممتازة ، لكن صدفة أن يأتى ثور آخر بنفس صفات « جو الأبهة » صدفة نادرة ، نتيجة لعملية الخلط التى تؤدى إلى ذرية لاتشبه الأبوين .

مثل هذا الثور « الكتر » يستحق البحث من جديد .. ليس نسخة واحدة ، بل مئات وآلاف النسخ ، إذ تكفى قطعة من نسيجه الحى ، ولتفحص إلى خلاياه الجسدية ، ثم بعث البروجرام الوراثى المطموس ، ثم زراعة الخلايا فى الدوايق ، ثم نقلها إلى رحم أبقار . وعندئذ نحصل على مئات أو آلاف النسخ من جو الأصيل ، وبكل صفاته الممتازة التى لم تتعرض لخلط بطريق التزاوج أو الإخصاب التقليدى .

وبقرة تدعى « هانوفر هيل بارب » بيعت فى ٨ نوفمبر عام ١٩٧٦ بأونتاريو بكندا بمبلغ ٢٣٥ ألف دولار كندى (حوالى ١٣١ ألف جنيه استرلينى) .. وبقرة اسمها « بيتشر آرلندا الين » استطاعت أن تدر لبنا بحالة مستمرة ، حتى وصل مادرتة إلى ٢٥ طنا ، وغيرها اسمها « جولى هيل جانا الثانية » أنتجت فى عام واحد ١٥٠ طنا من اللبن .

كل هذه الحيوانات الممتازة التي قل أن يجود الزمان بمثلها . وقل أن تأتي بنفس
نقاوتها الوراثية عن طريق التكاثر الجنسي .. يجب أن تكون الهدف الذي تتركز
عليه التجارب ، لتنشئ منها آلاف النسخ التي تشبه الأصل تماما .. أسوة بما حدث
في عالم الضفادع في وقتنا الحاضر .. لكن لا هدف ولا مأرب لنا في الضفادع . إنما
كان الهدف فتح الباب لمزيد من التجارب التي تسعد البشرية ولا تشقيها . فدحول
الإنسان في هذه التجارب ، لإنتاج نسخ من ذاته هو أكبر شقاء . وقد تقع نسخة
من هذا الكتاب في أيدي الأجيال القادمة ، فلا تعجبهم عبارة « أكبر شقاء » ..
وقد يعلقون عليها .. ليس بشقاء .. فقد كانوا في ماضيهم (يقصدوننا) التعساء ،
ونحن السعداء .

فهن يدرى ١٩

الفصل الثالث
المستقبل قد يتمخض عن طراز
جديد من البشر

المستقبل قد يتمخض عن طراز جديد من البشر .

تنقسم الكائنات الحية إلى مملكتين كبيرتين : مملكة الحيوان ومملكة النبات . ولهذا التقسيم ما يبرره ، إذ إن هناك اختلافات جوهرية بين أفراد هذه المملكة وتلك . منها مثلا أن حياة النبات تقوم أساسا على عملية التمثيل الضوئي أو الكلوروفيل . وفيها يقوم النبات الأخضر بالاستفادة من الطاقة الضوئية ويحوها إلى طاقة كيميائية يستخدمها في ربط جزيئات الماء بغاز ثنائي أكسيد الكربون ، ويحوها إلى مادة عضوية مع إطلاق غاز الأوكسجين ، في حين أن لحيوان لا يستطيع ذلك ، ولا بد أن يعيش على النبات ، أو على أكل لحيوانات الأخرى التي تعيش أيضا على النبات ، ليحصل على خامات الحياة التي يبني منها خلاياه وأنسجته ، ويطلق طاقاتها الكيميائية المخترنة في جزيئاتها ، ليدفع بها عملياته الحيوية .

ومن هذا المنطلق أو الفرق الأساسي بين حياة النبات والحيوان ، يذهب العلماء أيضا إلى تقسيم الكائنات الحية إلى قسمين : كائنات ذاتية التغذية Autotrophs ، أى التي لا تعتمد في الحصول على طاقتها من أية مادة عضوية يكونها كائن آخر . وهذا القسم يضم النبات الأخضر وبعض أنواع الميكروبات ، في حين أن القسم الثاني يعرف باسم الكائنات غير ذاتية التغذية Heterotrophs - أو عضوى التغذية ، أى لا بد أن يحصل على طاقته من

مادة عضوية يكونها كائن آخر.. والإنسان يتبع هذا القسم مع غيره من الحيوانات . لكنه يختلف عنها في الكيفية التي يجهز فيها طعامه وشرايه .

ولقد انشقت هذه الأقسام عن بعضها منذ البداية . وسار كل قسم في طريقه دون أن يستطيع عنه حيودا ، لأنه - بطبيعة تكوينه - قد جاء ميسرا لذلك ، إلا أن لكل قاعدة شواذ . وهذه الشواذ موجودة في بعض الكائنات الدنيا ، إذ أنها تستطيع أن تحيا الحياتين كلما تغيرت الظروف البيئية التي تعيش فيها . فأحيانا ما تعتمد على تغذية ذاتية . وأحيانا أخرى تعيش على المادة العضوية .

وطبيعي أننا كلما تعمقنا في الأصول التي قامت عليها حياة الكائنات ، كلما تكشفنا لنا التفاصيل التي جعلت من هذا حيوانا ، وذاك نباتا ، رغم أن هناك وحدة مشتركة في الخلق تجمع بينهما ، هي الخلية الحية ... فكل الكائنات من خلايا . وكلها تنشأ من خلية واحدة . وعلى هذه الخلية أو تلك انصبحت بحوث العلماء ، وتطورت تطورا خطيرا ، بحيث قد تؤدي مستقبلا إلى خلط بعض المكونات الوراثية الموجودة في النبات الأخضر بالمكونات الوراثية الموجودة في الحيوان ، فتنشأ من ذلك خلية هجينة تجمع بين صفات النبات والحيوان .

لكن فكرة خلط خلايا الأنواع المختلفة من الكائنات ليست فكرة خيا محضة . بل هي موجودة في الطبيعة منذ مئات الملايين من السنين . كما ا علماء هذا العصر قد زادوا عليها ، ونجحوا نجاحا مبدئيا في تحقيق ذلك الهدف . وهذا ما ستعرض لأصوله في هذا الفصل ، وأرى الفصول القادمة . ثم إن البحوث العميقة في مكونات الخلايا الحية ، وعلى رأسها

«البروجرام» الوراثى الذى يحدد صفتها ، وصفة أى كائن حى ينشأ منها ، ثم محاولات العلماء فى استنباط الوسائل الذكية لإقحام مكونات خلية لنوع من الكائنات فى مكونات خلية أخرى من نوع آخر ، أو نجاحهم فى إدخال جزء من المخطط الوراثى لخلية ، وإدماجه فى البروجرام الوراثى لخلية أخرى ، ثم ما يتمخض عن ذلك من ظهور الصفة الدخيلة ، والتعبير عن نفسها فى الخلية التى تقبلتها ، وما يتبع ذلك مستقبلا من تحقيق إنجازات أضخم وأعظم ، نتيجة للتطور الحظير فى الوسائل العلمية ، والفهم الأعمق .. كل هذا وغيره سوف يودى إلى تحوير وتعديل وتطوير فى البروجرام الوراثى للإنسان ذاته . فيكتسب صفات جديدة ومميزة عن إنسان العصر الحاضر .

إن ما حققه العلماء الآن ، وما سيحققونه مستقبلا قد يودى إلى إنتاج سلالة بشرية جديدة تدخل فى تكوينها الوراثى بعض الصفات النباتية المرغوبة ، وعلى رأسها عملية التمثيل الضوئى التى تميزها النبات عن الحيوان والإنسان . ويعنى هذا ببساطة أن الإنسان الحالى قد يتحول مستقبلا إلى مخلوق أخضر يستفيد بالطاقة الشمسية أو الضوئية استفادة مباشرة ، ويكون بها غذاءه ، ويصبح ذاتى التغذية كالنبات تماما .

وإذا تحقق هذا الهدف - على المدى البعيد - فسوف يصبح أعظم فائدة للبشرية من الهدف الذى قدمناه فى الفصل السابق - أى إنتاج نسخ بشرية مكررة من الإنسان ذاته . ومع أن هذا «التكنيك» البيولوجى قد يبدو مختلفا عن «التكنيك» الذى قد يستخدمه العلماء مستقبلا فى إنتاج سلالة بشرية خضراء ، إلا أن هذا سوف ييسر تحقيق ذاك ، بمعنى أن إنتاج أول خلية إنسانية تحمل ضمن مخططها جزءا من المخطط النباتى ، يمكن نسخها بعد

ذلك ، ثم زرعها في أرحام الإناث ، لتعطي ذرية كلوروفيلية أو خضراء .
وتسود بعد ذلك بصفات الجديدة المكتسبة . وعندما يحدث التزاوج بين أفراد
السلالة ، تختلط الصفات الوراثية ، لتعطي أجيالا مختلفة الطباع والشكل
والصفات . ولكنها تتميز جميعا بالصفة الكلوروفيلية التي تجعلها ذاتية التغذية -
لارمامة .

الفكرة قد تبدو غير معقولة ، ولا منطقية ، إذ كيف سيصبح هذا النوع
من البشر إنسانا في نبات ، أو نباتا في إنسان ؟

الواقع أن الفكرة لا تنشأ من فراغ ، ولا هي من نسج الخيال . لكن لها
أصولا تتبع منها وترتكز عليها . والأصول موجودة في الحياة ذاتها . ولكي
نوضح ذلك كان لابد أن نتعرض للأساس الذي نبني عليه تنبؤاتنا ،
وما حققه العلماء من إنجازات في عصرنا الحالي .

الفكرة موجودة في الطبيعة :

في بدايات الحياة التي ظهرت على هذا الكوكب منذ أكثر من بليون
عام ، جاءت كائنات أولية ذات خلية واحدة . وعندما درسها العلماء ،
وجدوا أنها نباتات في حيوان ، أو حيوان في نبات . فالكائن المعروف باسم
يوجلينا Euglena حائر بين علماء تقسيم مملكة النبات ، وعلماء تقسيم مملكة
الحيوان . فزرى هؤلاء يضعونه ضمن النباتات . وهؤلاء يعتبرونه ضمن
الحيوانات . وكلاهما على حق فيما يذهب إليه ، لأن هذا الكائن يحيا
الحياتين ، أي أنه يتغذى تغذية حيوانية ، بمعنى أنه يعيش على المادة
العضوية ، فإذا لم يجد هذا المصدر ميسرا ، انقلب إلى طريقة التغذية
النباتية ، بمعنى أنه يقوم بعملية التمثيل الضوئي التي تقوم بها النباتات

الخضراء ، إذ إنه يمتلك في مادته الحية أجساما بيضاوية تحتوي على مادة الكلوروفيل التي تقوم بتثبيت الطاقة الشمسية ، وتحويلها إلى طاقة كيميائية .. وهذه الأجسام البيضاوية نعرفها باسم البلاستيدات الخضراء .

الغريب أيضا في حياة هذا الكائن البسيط أنه يفقد مادته الخضراء إذا ما وضع لعدة أيام في الظلام ، ولا بد والحال كذلك أن يتحول إلى صورة حيوانية رمامة - أى تعيش على المادة العضوية Heterotrophic . فإذا عرضناه لضوء الشمس ، بدأت البلاستيدات في الظهور ، وبها يكتسب لونه الأخضر، ويصبح كائنا نباتيا ذاتي التغذية الضوئية (Photoautotrophic) .. ولهذا فإن الرأي السائد أن يوجلينا هذه هي أساسا خلية حيوانية ، لكنها - في الوقت ذاته - قد اكتسبت في تكوينها المادة الكلوروفيلية .. أى أنها قد ضربت عصفورين بحجر واحد .

وهذه هي أول حقيقة علمية يجب أن نضعها في الاعتبار ، إذ هي توضح لنا أنه ليست هناك حدود فاصلة بين صفات الحيوان والنبات في مثل هذه الكائنات البسيطة :

لكن الأمر قد يصبح أكثر تعقيدا في بعض الكائنات الأرقى قليلا من « يوجلينا » .. إذ تقوم بين كائن حيواني وكائن نباتي حياة تكافلية مثيرة .. أى أن كليهما يكفل الآخر ، أو أنهما يتبادلان المنفعة بينهما Symbiosis . ولو ترجمنا هذه الحياة بلغة بسيطة ، لوجدناها تقوم على مبدأ « خذ وهات » .. أو هي بمثابة « سوق تجارية » بين نبات وحيوان . ومن خلالها تعقد « الصفقات » الكيميائية التي تقوم عليها حياة الكائنين .

لقد اكتشف العلماء أن بعض أنواع الشعب المرجانية (وهي حيوانات

طبعاً) تطوى في داخل بعض خلاياها نوعاً من الطحلب الوحيد الخلية والمعروف علمياً باسم زوكسا نثيلا^(*) Zooxanthella .. والطحلب كما هو معروف يتبع مملكة النبات .. أى أن الخلية الحيوانية هنا تحوى في داخلها عدة خلايا نباتية . ولقد أوضحت التجارب التي أجراها العلماء أن نمو هذه الأنواع من الشعب المرجانية يبطؤ إذا وضعت في الظلام ، لأن الطحلب لا يستطيع أن يقوم بعملية التمثيل الضوئى تحت هذه الظروف ، وقد يموت ويتلاشى بعد بضعة أيام . أما لماذا تزدهر حياة الكائنين معا ، فذلك يرجع إلى أن الطحلب يخلص خلايا الشعب المرجانية من نفاياتها الكيميائية ، وعلى رأسها غاز ثانى أكسيد الكربون الذى ينتج من عملية التنفس في الخلايا الحيوانية . فهذا الغاز يدخل في عملية التمثيل الضوئى أو الكلوروفيلى ليكون به الطحلب مادته العضوية التى يعيش عليها . وفي الوقت ذاته يمنح الشعب المرجانية غاز الأوكسجين الذى يساعد على تنفسها وازدهارها . أى أن الصفقة الكيميائية هنا تتمثل في تبادل غازى ثانى أكسيد الكربون والأوكسجين بين الكائنين . فما يستغنى عنه هنا يصبح صفقة لذلك .

ويشير الدكتور . جورو Goreau من جامعة نيويورك إلى أن تبادل المنفعة بين الكائن الحيوانى والكائن النباتى الذى أصبح جزءاً من جسمه لا يقتصر فقط على تبادل الغازات ، بل يتعداه إلى تبادل مواد كيميائية من أشباه الفيتامينات وأشباه الهرمونات وبعض المركبات العضوية الأخرى .

وبين حيوان الهيدرا الذى أشرنا إليه قبل ذلك وبين طحلب آخر يعرف

(*) زو (Zoo) هنا تعنى حيواناً ، وكسانثيلا اسم الطحلب وهو نبات .. والكلمة في مجملها تعنى الطحلب الحيوانى .. أى النبات الذى يعيش في الحيوان !

باسم زوكلوريلا Zoochlorella (لاحظ أن زوهنا تعنى أيضا حيوانا ، كما سبق أن أشرنا) يوجد نوع جديد من تبادل المنفعة أو التكافل .. إذ يشير الدكتور ل . موسكاتين إلى أن الخلايا الطحلبية الكائنة في خلايا الهيدرا (فتعطية بذلك لونا أخضر) تستطيع أن تحول محلولا من ملح بيكربونات الصودا إلى سكر المالتوز (سكر الشعير) .. أى أنها تقوم بعملية التمثيل الضوئى داخل جسم الحيوان سواء باستخدام غاز ثانى أكسيد الكربون الناتج من تنفس الخلايا الحيوانية ، أو من ملح من أملاح هذا الغاز الذائبة في الماء .

والأمثلة بعد ذلك كثيرة .. لكن يكفينا ما قدمنا فأوجزنا ، ومنه يتضح أن الطبيعة ذاتها تحوى فكرة الجمع بين كائنين في كائن واحد (أى حيوان ونبات) .. أو تكويننا من تكوينات النبات (الكلوروفيل أو البلاستيدات الخضراء) في خلايا الحيوان ذاته .

بدايات أخرى في معامل العلماء :

لكن الفرق كبير جدا بين هذه الكائنات الحيوانية البسيطة «الخضراء» ، والنوع الجديد من الإنسان الذى بنى العلماء «تخليقه» ليصبح أخضر كالنبات .. أى أنه هجين بين صفات إنسانية ، وصفات نباتية .

لكن يجب علينا أن نبادر بتوضيح معنى «التخليق» الذى يراود عقول كثير من العلماء الآن ، حتى لا يحدث ذلك صدمة نفسية للناس في هذا الزمان .. فالتخليق غير الخلق ، لأن الخلق مبتكر ، أما التخليق فتقليد .. أى أن الإنسان هنا يقلد نظاما قائما يوم أن بدأ الخالق تنشئة المخلوقات على أساس عظيم . ولكى نقوم بالتقليد أو التخليق ، كان حتما أن نتعمق في نظم الخلق ،

ونعرف الكثير من الأسرار العويصة التي تحويها الكائنات المختلفة في خلاياها .. لأن الخلية هي الأساس الذي ينشأ منه كل نظام حي ، صغره شأنه أو كبره .

إن الكيمياء العضوية التخليقية مثلا تتناول تكوين جزيئات جديدة تختلف عن الأصول التي نشأت منها . لكن يبدو أن التاريخ يعيد نفسه ، فعندما نجح الكيميائي الألماني الشاب فريدريك فوهلر في عام ١٨٢٨ في تخليق جزيئات اليوريا العضوية - وهي جزيئات تخرج في البول - من جزيئات سيانات الأمونيوم غير العضوية ، أحدث ذلك جدلا كبيرا بين علماء وفلاسفة ذلك الزمان . إذ كان الرأي السائد أن الجزيئات العضوية التي تتكون في الكائنات الحية لا يمكن أن تتخلق في أنابيب الاختبار ، ولا سلطان للإنسان على مثل هذه العمليات .. لكن الحد الفاصل دائما بين ما يعيش في عقول الناس من أفكار جامدة ، وبين الأفكار المتطورة هي التجربة العلمية . ومنذ ذلك التاريخ انطلقت الكيمياء العضوية التخليقية في طريقها لتتولى على شيء . فنحن نشهد الآن تخليق أنواع لا حصر لها من الألياف الصناعية التي تتفوق على الألياف الطبيعية .. صحيح أن الحياة ذاتها هي صاحبة الفكرة .. فجزيئات الحياة الأساسية ذاتها والمثلة في الجزيئات الوراثية تقوم على فكرة البلمرة Polymerization (أى تكرار جزيئات بسيطة في سلاسل طويلة متشابكة ومتألفة) . كما أن الجزيئات البروتينية والسليولوزية (مثل ألياف القطن والكتان .. الخ) هي أحماض أمينية أو سكريات بسيطة متشابكة أو بلمرة . ونفس هذه الفكرة المبتكرة في أصول الحياة قد قلدها الإنسان وطبقها في ألياف صناعية ، أو مواد صلبة جديدة (كالباكالايت والفورمايكا مثلا) لم يعرفها هذا الكوكب من قبل .

لكن يبدو أننا قد خرجنا عن الموضوع ، وما ذلك بخروج ، لأن العاصفة التي ثارت في وجه الكيمياء الألماني فوهلر منذ حوالي قرن ونصف قرن من الزمان عندما قام بتجربة بسيطة غاية البساطة ، لها ما يماثلها في أيامنا الحاضرة ، بل إن العاصفة أعتى ، والجدال أشد .. إذ بدأ الإنسان في تخليق الجينات ذاتها .. والجينة هي الخطة أو البرنامج الوراثي الذي يحدد صفات الكائنات .. ليس هذا فحسب ، بل إن العلماء قد تخطوا الحدود التي وضعتها النواميس الطبيعية للكائنات ، وكأنما هم قد بدأوا في مزاولة لعبة غريبة على درجة كبيرة من الإثارة والخطورة . وهم متحمسون لهذه اللعبة أشد الحماس . وحاسهم هذا ناتج عن شغف هائل إلى المعرفة ، والكشف عن مزيد من أسرار البحور المتلاطمة التي تزخر بها الخلايا الحية . وفضولهم الجامح للتطلع إلى هذه التمثيلية الضخمة التي نصبت الحياة مسرحها في ساحة الخلية ، وما يمكن أن يتمخض عنها فيما لو غيروا بعض فصولها التي تتألف في تجسيد فذ لأعظم فكرة وضعها الله في الخلق .

إن المدخل الذي قدمنا به هذا الفصل من الكتاب ، وأشرنا فيه إلى إنتاج نوع جديد من الإنسان .. أطلقنا عليه الإنسان الكلوروفيلي ، له في الواقع أساس من البحوث الغريبة والحديثة التي بدأت تجرى في معامل العلماء ، وحطموا بها الحواجز التي تفصل بين الأنواع المختلفة من الكائنات .

ولكى يصبح لهذا الكلام سند ومعزى ، كان لزاما علينا أن نتعرض لبعض التجارب التي قد يقف لها شعر الرأس ، أو تحدث هزة في العقل أو على أحسن الفروض قد تثير الفكر ، ونحمله إلى آفاق جديدة من الواقع ، أو من الخيال ، لسنا ندرى .

من الممكن الآن إدماج فأر في إنسان ، أو إنسان في ميكروب ، أو حيوان في نبات ، أو نبات في نبات ، أو حيوان في حيوان .. أو أى شىء آخر قد يثير في العقل نوعاً من الحيرة والدوار .

وبتحديد أدق نقول : إن خلية من إنسان تستطيع الإندماج في خلية من خلايا الفئران أو بتحديد أدق نقول : إن البروجرام الوراثى للإنسان سوف يتألف مع البروجرام الوراثى للفئران .. لكن هل فعل العلماء ذلك حقاً ؟

نعم .. لقد فعلوها ، إلا أن أحدا لا يستطيع أن يتنبأ بما سياتى به المستقبل من أحداث جسام . لكن الذى حدث أن الصحافة خاصة ، وأجهزة الإعلام عامة ، قد التقطت هذا الخبر المثير ، وراح بعض الكتاب يتخيلون ما يمكن أن تتممخض عنه هذه البحوث . وبعضهم قابله بسخرية لاذعة ، إذ يذكر لنا كل من أ . جونز ، وف . بومر في كتابها «مستقبلنا الوراثى : اختيار أم صدفة؟» .. إن الناس عادة تأخذ هذه البحوث بظواهرها ولا تعرف المغزى الكامن من ورائها . وكان أكثر هذه التعليقات تهكماً أن أحد رسامى «الكاريكاتور» قد رسم صورة ساخرة «لميكى ماوس» وهو جالس في قطار يقرأ جريدة الصباح . وعندئذ يلتفت إلى رجل جالس بجواره ويسأله : قل لى يا والدى .. من هو والى ديزنى ؟ . والمغزى فى ذلك لا ينجى على أريب ، فلقد جاءت الفئران «على آخر الزمن» لتتكلم مثلنا . وكأنما هى تنتمى إلينا ، أو أنها أخذت بعض صفاتنا الوراثية ، خاصة بعد أن نجح العلماء فى إدماج خلايا فأر مع خلايا إنسان ، كما سبق أن قدمنا .. لكن السؤال الذى قد يأتى على الأذهان هو : هل يمكن أن ينشأ فأر فى إنسان ، أو إنسان فى فأر ؟ وما هى طبيعة المخلوق الجديد الذى سينشأ من تشغيل البروجرام الوراثى للإنسان والفئران ؟

دعنا لا نستبق الحوادث .. فكل شيء بأوانه . ثم إن أول الغيث قطرة -
كما يقولون .

إن أول بشائر إدماج خلايا الأنواع المختلفة من الكائنات كان عام
١٩٦٠ ، إذ جرت بحوث رائدة في هذا المجال بمعهد جوستاف روسي في
باريس بواسطة فريق من العلماء تحت إشراف البروفيسور جورج بارسكي ..
وكانت البداية في خلايا من الفئران مزروعة في أطباق ، ومزودة بغذاء معقم
مناسب . وبمعاملات كيميائية خاصة ، اقتربت خلية جسدية من خلية
أخرى ، ثم التحمت إحدهما بالأخرى . وبعدها زالت الحواجز ، واختلط
السييتوبلازم بالسييتوبلازم ، والكرموسومات بالكرموسومات ، واندمج
الكيانان في كيان واحد .. لكن أحدا لم يقتنع بجدوى هذه التجارب ، لأنها
قد لا تعني شيئا ، الآن على الأقل .

وفي عام ١٩٦٧ ظهر نبا آخر أغرب ، إذ توصلت د . ماري فايس ،
ود . هوارد جرين من جامعة نيويورك إلى إدماج خلايا إنسان بخلايا قران .

لكن .. ماذا حدث بعد ذلك !

لقد التقط هذا الحيط الرفيع مجموعة من علماء الخلية والوراثة في جامعة
ييل ، وقاموا بإعادة تلك التجربة المثيرة ، فتأكدوا أن خلية من الفأر تتحد
أو تندمج مع خلية من الإنسان ، ليس هذا فحسب ، بل بدأت الخلية
الفأرية الإنسانية الجديدة في الانقسام والتكاثر تحت بصر العلماء ودهشتهم .
لكن - بحق السماء - إلى أي هدف « شيطاني » يسعى العلماء ؟ .. ثم ماذا كانت
النتيجة التي تمخضت عن هذا الانقسام ؟

لقد أكل الفأر الإنسان ! .. نغني أن البروجرام الوراثي للإنسان في

الخلية الجديدة أو الهجينة أخذ في الاضمحلال والزوال شيئا فشيئا ، في حين بقي البروجرام الوراثي الخاص بخلايا الفئران .. لكن ذلك لا يعنى أن للفئران السيادة والغلبة على الإنسان ، ولا هى أقوى منا وراثيا ، بل يعنى أن انقسام كروموسومات الفئران المسجل عليها البروجرام الوراثي كان أسرع ، والسريع يغلب البطيء . ولهذا أخذت كروموسومات الفئران زمام المبادرة من كروموسومات الإنسان .. لكن كروموسوماتنا لم تختف في وقت واحد . بل إن بعضها قد زال بعد فترات زمنية محددة ، في حين بقى البعض الآخر صامدا لهذه التجربة القاسية على النفس .. وطبيعى أن العلماء قد سجلوا هنا كل صغيرة وكبيرة ، وأخذوا يرسمون خريطة بيولوجية للجينات أو المورثات الكائنة على الكروموسومات . فسألة بقاء جينات ، أو فناء أخريات ، تفتح لنا بابا أوسع لنعرف كيف تترجم هذه الجينات البروجرام ، أو كيف يتعامل بروجرام فأرى ، مع بروجرام إنسانى .. طبعا على مستوى الجينات أو الكروموسومات .

ومن جامعة أوكسفورد خرج بحث آخر غريب ، ونشر في مجلة الطبيعة للبيولوجيا الجديدة عام ١٩٧١ Nature New Biology تحت عنوان : « هل من الممكن تصحيح الجينات المعطوبة في الخلايا » ؟ .. ولقد أجرى هذا البحث مجموعة من العلماء تحت إشراف البروفيسور هنرى هاريس . وفيه أيضا أنتجوا خلايا جديدة من اندماج خلية كنتكوت مع خلية فأر ، وتقبلت هذه تلك ، وبدأت الخلية الهجين في الانقسام والتكاثر . وليس ذلك بالشيء الجديد أو المثير هذه المرة ، لكن الجديد حقا أن خلية الفأر كانت تحمل مرضا وراثيا ، نتيجة لجنينة خاطئة فهل يمكن تصحيح هذا الخطأ ؟ .

لكن .. ما دخل هذا التصحيح باندماج خلية كنتكوت بخلية فأر ؟ .

لأن الكتكوت سيصح خطأ الفأر ، أو هكذا كانت تأمل هذه المجموعة من العلماء . ولو تحقق أملها فإن ذلك سيؤدي إلى تطبيقات هائلة في المستقبل ، خاصة أن عدد الأمراض الوراثية التي أمكن حصرها في الإنسان وصلت حتى الآن إلى أثنى مرض .. وكل مرض وراثي ينشأ عن خطأ جينة أو أكثر في تشغيل بروجرامها الوراثي . لكن دعنا لا نستبق الحوادث مرة أخرى ، ولتساءل : هل تحقق أمل العلماء ؟

نعم .. فالتجربة البسيطة أو التي تبدو أمامنا غير ذات مغزى ، أو كأنما هي عبث في أصول الخلق ، تسوقنا إلى تجارب أعمق ، وأهداف أعظم ، وانتصارات أضخم .. فن خلال تسلسل الأحداث أو التجارب التي قدمناها هنا ، نرى أن البدايات المتواضعة ، تتطور إلى الأحسن والأقن . وهي بمثابة المؤشرات التي تفتح عيوننا على مستقبل يصعب التنبؤ بتفاصيله .

نعود لنقول : إن هذه المجموعة من العلماء قد حققت الهدف من التجربة .. صحيح أنهم لا يعرفون ما يجري في الظلام ، ولا أين تقع الجينة الخاطئة بين أكداس هائلة من الجينات ، ولا هم بقادرين على عزلها ، وتصحيح برنامجها . لكن يبدو أن الحياة تعرف طريقها بوسائلها الخاصة . وكأنما هي قد امتلكت معدات جراحية دقيقة غاية الدقة . وبها تستطيع أن تعوض المفقود أو المعطوب .. لكن العبرة دائماً بالتناج ، إذ تمخضت التجربة عن سيادة كروموسومات الفأر ، واطمحت كروموسومات الكتكوت ، وتفتتت إلى جينات .. لكن كيف تم ذلك ؟ لا أحد يدرى على وجه اليقين ، إنما الذي ندرية أن جينات الفأر قد استقطبت بعض جينات الكتكوت التي أصبحت فرادى . ومنها الجينة الكتكوتية السليمة التي حلت في البروجرام

الوراثي لخلية الفأر ، واشتغلت فيه بدل الجينة المعطوبة . وفي نهاية هذا البحث المنشور تعليق له مغزاه .. إن هذا الانتصار المتواضع قد يؤدي إلى إمكان تطبيق الشيء ذاته مستقبلا في خلايا الإنسان التي تحتوى على بعض الجينات الخاطئة .

والبحوث التي تمت في هذا المجال ، وما تمخض عنها من نتائج تصيب العقل بالدوار .. كثيرة .. كثيرة جدا .. فهناك مئات المعامل في معاهد البحوث والجامعات . وهناك عشرات الألوف من العلماء الذين يبحثون في هذه الأسرار ليليل نهار . ونحن بطبيعة الحال لانستطيع أن نتعرض لها ولا لتفاصيلها ، وإلا قابلتنا متاهات نحن في غنى عنها في هذا الكتاب .. لكننا سنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى في الفصل القادم ، لنقدم المزيد من التجارب التي لها مغزى أعمق من إدماج خليتين لكائنين مختلفين ، لتنتج منها خلية جديدة - أسماها خلية هجينة ، أسوة بعملية التهجين التي تحدث في عالم النبات والحيوان - مع الفرق طبعا بين مغزى هذه وتلك ، لأن تهجين خلية بخلية أخرى لا تمت لها بصلة تذكر سوف تؤدي - على المدى البعيد - إلى نتائج قد لا تتقبلها عقولنا الحالية .. فهل نتقبل نحن الآن مثلا إمكان إنتاج سلالة بشرية تتغذى على الطاقة الشمسية ، وتقوم بعملية التمثيل الضوئي ، أسوة بما يحدث في النبات الأخضر؟

قد تكون نبوءتنا هنا أغرب من الخيال .. لكن الاحتمال قائم . وإذا كان في ذلك شك فعليك أن تقرأ بعناية مغزى التجارب التي قدمناها فيما سبق . فقرات .. صحيح أن البدايات متواضعة . لكن اعطيها عمراً تعطك ص جديدة من الحياة قد لا تخطر على عقول البشر . ومن هذه الصور نعود لناقش

حكاية الإنسان الكلوروفيل .. ليس باستخدام الخيال ، بل على أساس من الواقع .

عود على بدء :

لنفرض هنا أن مجتمعاً من المجتمعات الإنسانية عاش معزولاً عن بقية مجتمعات الأرض قاطبة ، وكانت من صفات أفراد هذا المجتمع الشعر الأصفر ، والعيون الزرق ، والبشرة البيضاء ، أى ببساطة ينتمون إلى السلالة الشقراء . ثم حلت بينهم فجأة مجموعة من البشر ذوى البشرة السوداء ، والشعر المجعد ، والشفاه الضخمة ، والعيون المميزة لهذه السلالة (سواد إنسان العين مع احمرار خفيف فى بياضها) .. عندئذ سيصيب السلالتين ما يشبه الصدمة أو الفزع . فلا هؤلاء ولا هؤلاء قد سمعوا أو عرفوا أن هناك سلالة يمكن أن تكون بهذه الصفات المخالفة لصفاتهم . ولا شك أنهم سيتطلعون بدهشة وعجب بعضهم إلى بعض ، وكأنهم فى إحدى حدائق الحيوان أو قد يولون الأدبار من الفزع .

وطبيعى أن ذلك لا يجذب انتباهنا ، ولا يثير تفكيرنا ، لأننا نعرف سلالات الأرض قاطبة .. لكن دهشتنا ستكون مروعة لو أننا رأينا بيننا بشرا ذوى بشرة خضراء كخضرة الزرع . وسوف نتساءل : هل هبطت علينا هذه المخلوقات من الفضاء ، رغم أنها ذات ملامح إنسانية مائة بالمائة ؟

إن بعض الروايات قد تعرضت لذلك ، وتناولت هذا الموضوع بخيال خصيب . وهناك أيضا بعض الخزعبلات التى تدعى هبوط مخلوقات صغيرة خضراء اللون من أحد الأطباق الطائرة ، وأنهم يجتفون فى كهوف بعيدا عن

أعين البشر.. لكن هذه الإدعاءات الفجة لا تجوز إلا على أصحاب العقول الضعيفة .

لكن .. ماذا نقصد بكل هذا مثلا !

نقصد أن الصفات المميزة بين سلالة وسلالة من البشر، ترجع إلى البروجرام الذى تحمله الجينات .. فسواد البشرة الفاحم يرجع إلى تكوين مادة كيميائية تعرف باسم الميلانين Melanine ، وتركيزها فى بشرة الإنسان يعطيه السواد ، وتخفيفها بدرجات متفاوتة تعطى بشرات بألوان متفاوتة كذلك .. فالبشرة السمراء أو الحميرية أو البيضاء إنما هى انعكاس لما تحويه من مادة الميلانين . والمستول عن تكوينها عدة جينات . ولكى تصنعها فى تركيبات شتى ، كان لابد أن تحول كل جينة بروجرامها الوراثى إلى خطة عمل كيميائية ينتج منها خميرة أو انزيم . ومن خلال سلسلة من العمليات الكيميائية الحيوية ، تقوم الخائز الناتجة من خطة الجينات بتكوين المادة السوداء .. وهى دائمة سائدة فى السود ، ومتنحية فى البيض ، أو ما بين ذلك يكون الإنتاج ليكون الاختلاف الهائل فى ألوان البشر.. لكن قد يحدث أن تكون إحدى هذه الجينات معطوبة أو بها خطأ وراثى ، وعندئذ لن تتكون مادة الميلانين على الإطلاق . ويصبح الإنسان أمهق (البينو Albino) أو ما يطلق عليه العامة اسم «عدو الشمس» ، لأنه بالفعل لا يستطيع أن يعرض نفسه للشمس كما يفعل . كما أن هذه المادة السوداء لا توجد أيضا فى عينيه ، ولهذا يكره النظر فى الضوء الباهر.. وملخص القول أن هذه الجينات المخصصة لإنتاج الميلانين هى المسئولة عن حماية بشرتنا من الأشعة فوق البنفسجية . فإذا تعرضت أجسامنا فترات طويلة لأشعة الشمس ، انتشرت المادة السوداء فى بشرتنا ، لتحميننا وتعطى الجسم سمرة مميزة Sun tan ، كالتى يكتسبها

المستحومون على شواطئ البحار مثلا .

كذلك كانت خضرة النبات ، فهي أيضا تحكمها عدة جينات . وعندما يشتغل برنامجها الوراثي في سلسلة من العمليات ، فإنها تتمخض عن جزئيات الكلوروفيل (أى المادة الخضراء) التى تتنظم في بلاستيدات ، لتقوم بعملية التمثيل الضوئى فى النبات .

إن الحصلة العلمية التى جمعناها عن الكائنات الحيوانية البسيطة (مثل الهيدرا والشعب المرجانية وغيرها) التى تحوى خلايا نباتية فى أنسجتها (أى طحالب) ، ثم عمليات التهجين التى يقوم بها العلماء بين خلايا حيوانية ، أو بين خلايا حيوانية ونباتية ، ثم ما يتبع ذلك من اندماج بعض الجينات من الجهاز الوراثى لخلية ، وتشغيلها فى الجهاز الوراثى للخلية الأخرى .. ثم التقدم الهائل الذى أحرزته العلوم البيولوجية ، خاصة ذلك الفرع الجديد الذى يطلق عليه اسم هندسة الوراثة (وستعرض لتفاصيله فى الباب القادم) .. ثم اهتمام بعض الدول المتقدمة بمثل هذه البحوث ، وحشد جيش هائل ومتكامل من العلماء الأفذاذ ، ورصد الميزانيات الضخمة للقيام بمثل هذه البحوث .. كل هذا وغيره يجعلنا نتنبأ بإمكان زرع الجينات النباتية المسئولة عن تكوين الكلوروفيل أو البلاستيدات الخضراء فى خلية من خلايا الإنسان ، وتشغيلها فى جهازها الوراثى . ثم رعاية هذه الخلية ، لكى تنقسم وتتكاثر إلى الحدود التى يمكن أن نزرعها فى رحم أنثى ، ثم ما يتمخض عن ذلك من تكوين جنين يولد بعد أشهر تسعة . وعند ولادته سيكون وليدا عاديا ، وقد يرضع بضعة أشهر ، وعند تعريض بشرته لضوء مناسب ، تبدأ البلاستيدات الخضراء فى التكاثر ، وعندئذ يكتسب الطفل اللون الأخضر شيئا فشيئا ، إلى أن يصبح نباتا فى إنسان ، أو إنسانا فى نبات .. وبهذا يتحول الخيال إلى حقيقة ،

وتكون البداية الحقيقية لنوع جديد من البشر ، يقوم بعملية التمثيل الضوئي ، مستخدما في ذلك غاز ثاني أوكسيد الكربون في بناء سكرياته أو نشوياته . ثم يطلق داخل جسمه غاز الأوكسيجين الذى يعطيه دفعة جديدة لأوكسدة السكريات المتكونة ، لتهبه طاقة وحيوية ، ويصبح بذلك في قوة «كنج كونج» العجيب .

ومن الممكن طبعا إنتاج نسخ كثيرة من هذا النوع الإنسانى الأخضر ، إذ تكفى عدة خلايا جسدية ، لتكاثر ، ثم تصبح كل واحدة منها بمثابة خلية جنينية . وهذه يمكن زراعتها في الأرحام ، لتعطينا من النسخ ما نشاء .. وهذا ما تعرضنا له في الفصل الثانى من هذا الكتاب . وبذلك ينتشر النوع الجديد الأخضر من الإنسان الذى قد يظهر بعد مائة عام أو ربما أقل أو أكثر .. كل ذلك يتوقف على جهود العلماء في هذا السبيل .

ولابد أن نشير هنا إلى أن الصعاب التى ستقابل العلماء للتوصل إلى هذا الهدف العظيم ضخمة جدا . لكن يبدو أن أسرار الحياة قد بدأت تفصح لنا عن مضمونها بسرعة مذهلة ، فعمربحوث هندسة الوراثة لا تزيد عن ثمانية أو تسعة أعوام ، ومع ذلك فقد حققت أهدافا رائعة .. أضف إلى هذا أن الاختراع وليد الحاجة ، لكن ذلك لا يعنى أن العلم سيخترع إنسانا جديدا . بل يعنى أن حاجة العالم المتزايدة إلى الطعام قد تدفع العلماء دفعا إلى «توليفة» جديدة تتمخض عن إنسان أخضر . وإذا توصل العلماء إلى هذا الهدف فسوف يكون ذلك أعظم إنجازات البشرية على الإطلاق .. لأن الإنسان الأخضر سوف يصبح مخلوقا ذاتى التغذية ، أى أنه لن يصبح «راما» كإنسان هذا الزمان .. «والرمام» بلغة العلم يعنى كل من يعيش على المادة العضوية التى

تنتجها الكائنات الأخرى .. أو لنقل تأديبا إن الإنسان الحالى غير ذاتى
التغذية .. فلا بد أن ينهش اللحم والخبز والخضراوات والدهون وما شابه
ذلك .

صحيح أن الإنسان الجديد الأخضر لن يأكل النشويات أو السكريات
أوالحلويات ، لأن عملية التمثيل الكلوروفيلى أو الضوئى ستتكفل بذلك ،
وتبنى له مادته السكرية التى تغنيه عن الحبوب ومشتقاتها .. لكن ماذا عن
اللحوم والبيض وكل أنواع البروتينات التى لا يمكن أن يستغنى عنها الإنسان أو
أى كائن حى آخر؟

لا تحمّل لذلك هما .. إذ لا بد من «تسميد» هذا الإنسان الأخضر ، أسوة
بما يحدث فى الأرض الزراعية التى يعيش عليها النبات . كأنما نعود إلى
شطحات الخيال مرة أخرى .. فماذا يعنى هذا التسميد بالنسبة للإنسان
الجديد؟

الخطوة أيضا موجودة فى النبات وفى بعض أنواع الميكروبات .. فالنبات
لا يأكل لحما (عدا قلة قليلة من بعض النباتات التى تعيش على التهام
الحشرات بواسطة تحويرات خاصة فى أجزاء من جسمها مثل نبات الدروسيرا
والنابت أو السلوى Pitcher) .. لكنه يمتص الأملاح غير العضوية من
التربة الزراعية (أى سماد النترات والفوسفات والأمونيوم وعدة أملاح أخرى
توجد بتركيزات ضئيلة) ، ويحولها إلى مركبات نيتروجينية بسيطة تتمثل فى
الأحماض الأمينية . ومن هذه الأحماض يبنى بروتيناته ، وعلى هذه البروتينات
يعيش الإنسان والحيوان (خاصة حيوانات المرعى) ، أو قد ينهش الإنسان
لحم الحيوان الذى عاش من قبل على النبات .

ونحن لانستطيع أن نكون الأحماض الأمينية في داخل أجسامنا ،
لنستخدمها بعد ذلك في بناء البروتينات ، كما يفعل النبات . فليس لنا في
خلايا أجسامنا الجينات المسجل عليها البروجرام الوراثي المستول عن تحويل
« السباد » (أى النيترات وغيره) إلى أحماض أمينية ولو امتلكناه ، فلن نصبح
من هواة نهش اللحوم ، ولا ملء البطون .. بل ستجه العقول إلى المعرفة
والعلوم والآداب والفنون ، أى إن إنسان المستقبل قد ينظر إلينا ويقول ..
«كم كانوا رمامين ومتوحشين أولئك الذين عاشوا قبلنا في القرون الماضية» !
لكن .. كيف نستغنى عن البروتينات النباتية والحيوانية ؟ .

لا تحمل هما لذلك أيضا .. فقد أتى اليوم الذى نقل فيه جينات
النبات ، التى تستطيع تحويل أملاح الأمونيوم والنيترات إلى أحماض أمينية
لتصبح اللبانات التى نبنى بها البروتينات في خلايانا .. أسوة بما حدث في نقل
جينات عملية التمثيل الضوئى من النبات إلى الإنسان !
أمخاط جديدة من حياة المستقبل :

فلنقدم الآن عقارب الزمن مائتين أو ثلاثمائة من السنين ، فنرى كل شىء
قد تطور وتغير . فعلى وجه البسيطة ينتشر الإنسان الأخضر .. لم يعد هناك
أسود أو أبيض أو أسمر أو أصفر . لقد اختفت « خرافة » التمييز العنصرى بين
هؤلاء البشر .. إذ وحد الكلوروفيل (أو اليخضور حسب ترجمة مجمع اللغة
العربية) بين الناس ، وجعلهم « سواسية كأسنان المشط » .

الأزمة الطاحنة في مشاكل الغذاء والكساء والمأوى لم يعد لها وجود بين
أجيال المستقبل . فلقد هجر الإنسان الأخضر زراعة الأرض ، وتربية
الضرع .. إذ لم يعد هو في حاجة إلى زرع وضرع . وبهذا تحولت الأرض

الزراعية إلى غابات وبساتين ترح فيها الحيوانات ، وتغرد الطيور ، وتفتح
الزهور ، وترقرف الفراشات ، وتتساقط الثمار ، لتكون من نصيب الحيوان
لا الإنسان ، لأن الإنسان الجديد- كما ذكرنا- لا يأكل.. بل إن بشرته
الخضراء قد تحولت إلى « مطبخه ومائدته » التي تجهز له طعامه .. أى أن جسمه
يغذى نفسه بنفسه ، لكن لا شيء يأتي من لا شيء .. ففهوم الطعام أو الغذاء
وما شابه ذلك قد تغير في عقول هؤلاء البشر.. إذ ليست الأهمية في الطعام ،
ولكن في حصول الجسم على صورة ميسرة من صور الطاقة التي تمنحه النشاط
والحيوية والحياة . وليس هناك ما هو أفضل من الطاقة الشمسية أو الضوئية ،
فتتحول في خلايا بشرته الكلوروفيلية إلى طاقة كيميائية ، لتدير له عملياته
الحيوية .

كل هذا بلا شك سوف يؤدي إلى اختفاء الجحازر ، وإقفال المخازر .
 وإيقاف المطاحن ، وإغلاق المطاعم ، فقد انتهى عصر الأسنان القاضمة ،
 والبطون الجائعة ، ثم ما يخرج من هذه البطون من فضلات كانت عاملا من
عوامل التلوث الطاحنة .

ثم إن إنتاج سلالة بشرية كلوروفيلية من خلال الإنجازات المذهلة التي
حققتها العلماء الآن (وسنقدمها في فصول قادمة) ، سوف تغير أنماط السلوك
والأنشطة التي يتوخاها هؤلاء البشر في حياتهم .. وهى بلا شك ستكون غريبة
جدا على مداركنا . فمن يدرى ، أن علماء المستقبل قد يستحسنون هذه اللعبة
المثيرة في التغيير والتبديل بين مورثات الحياة ، وينقلون خير ما فيها إلى خلايا
الإنسان ، ليكتسب صفات طبيعية نسعى نحن إليها بوسائل صناعية ؟ .

ولكى نوضح دعنا نقدم لذلك مثلا من واقع عالمنا وواقع عالمهم المثير

والغريب .. فالمعروف أن الإنسان يفرز عرقا ، وقد يكون منفرا ، ما لم يسارع إلى إزالته بالاستحمام ، أو بالتغلب عليه من خلال عطور أو مزيلات للعرق تكلف عالمنا الحالى مئات الملايين من الجنيهات ، إن لم تكن آلاف الملايين .. لكن هندسة الوراثة قد تتغلب على ذلك من خلال إقحام بعض الجينات النباتية التى تكون العطور الطبيعية فى الجهاز الوراثى للإنسان . وعندئذ ستؤدى إلى إنتاج سلالة أو سلالات بشرية تفرز عطوراً بدلا من العرق .. وهذا بلا شك أوفر وأفضل .

ثم إن الذى يستطيع الآن نقل الجينات أو المورثات بين كائن وكائن ، ثم ما قد يتممخض عن ذلك مستقبلا من نقل بعض هذه الجينات إلى خلايا الإنسان ، لن تعيه الخيلة فى إنتاج سلالة بشرية خضراء معطرة .

وطبىعى أن بلوغ هذا الهدف أو الأهداف يستلزم معامد ومعاهد بحوث متطورة تناسب هذا المجال . ومن أجل ذلك قد تظهر لافتات جديدة على بعض تلك المعاهد تحمل هذا المعنى .. منها على سبيل المثال «معهد بحوث هندسة الوراثة البشرية - قسم الجينات العطرية» .. والذى تساوره بعض الشكوك فى ذلك ، أو يعتبرها خيالا ، مردود عليه بتطور آخر حدث الآن فى هذا المجال . فهناك لافتات جديدة قد ظهرت على بعض المعاهد والمؤسسات منذ عدة سنوات قليلة ، منها على سبيل المثال لا الحصر ، مؤسسة «جينتك» ، وهى اختصار لكلمتين علميتين : جينات ، تكنولوجيا .. أى تكنولوجيا الجينات . وسوف نعود إلى ذكر المزيد عن هذه المؤسسات التى تحمل أسماء غريبة لم ترد على خاطر منذ عشر سنوات مثلا . لكننا ذكرناها هنا ذكرا عابراً ، لنبرز نبوءتنا ، ونوضح أنها قد جاءت على أساس ما يحدث الآن .. وليس على أوهام أو خيال .

حتى اللافئات التي نراها الآن منتشرة بشكل واضح ، ليعلم بها كل طيب عن مهنته وتخصصه ، ربما لا يراها إنسان المستقبل ، إذ ستحل محلها لافئات تناسب عصرهم . فمن لافئة تحمل اسم «الدكتور س . ص . أخصائى الأمراض الكلوروفيلية» .. إلى أخرى عليها «الدكتور ع . م . أستاذ التحليل اليخضورية» .. إلى «الدكتور أ . ن . طيب الجينات العطرية» ... الخ .

وطبيعى أن مقياس الصحة والجمال عندهم لاشك يختلف عما نعرفه نحن فى عالمنا ، إذ أنهم لن يتغنوا مثلا بسمرة البشرة أو بياضها . بل بخضرة البشرة ونضارتها ، وكلما كانت زاهية ، كان ذلك - فى عرفهم - أكثر بهاء ، وأشد فتنة . وقد يتبع ذلك تغيير فى أنماط المساحيق والدهانات والأصباغ ، وما شابه ذلك ، فتصبح ممزوجة بتحضيرات خضراء تناسب أذواق هذا الزمان .

ونحن عندما نعطش نشرب ماء عذبا ، لكن ماء هذه السلالة البشرية مزود بأملاح معدنية ونيتروجينية غير عضوية ، مثل نترات الصوديوم والأمونيوم وفسفات البوتاسيوم ، ويكربونات الكالسيوم ، وأملاح معدنية أخرى بتركيزات قليلة . ولاشك أن هذه التركيبات الكيميائية هى شرابهم وطعامهم . وهى التى تناسبهم تماما ، لأن أجسامهم تستطيع أن تستفيد بها ، وتحولها من صورتها غير العضوية إلى صورة عضوية ، تماما مثل النبات الأخضر ، لأنهم أصبحوا إنسانا فى نبات .

ويرغم أن الماء مسمد فإنه سيكون مقبول الطعم ، حلو المذاق ، طيب النكهة ، فلقد أضافوا إليه مركبات كيميائية معروفة فى زماننا (مثل السكرين أو بعض البروتينات التى استخلصها العلماء الحاليون من نبات استوائى ،

وتمتاز بجلاوة فائقة) ، أو مركبات أخرى اشتقوها وأضافوها إلى محاليلهم لتناسب حياتهم .. ثم إن مثل هذه المشروبات تتكفل بها الدول ، وتوزعها في شبكات الماء . ولا بد أن تتبع مواصفات محددة يسهر عليها كيميائيون ممتازون ، وعلى قدر كبير من العلم باحتياجات البشر الخضر من الأملاح وأنواعها ونسبها .. الخ . وكل هذا يمتص بسهولة دون هضم ، ثم لا يتخلف عنه مخلفات أو فضلات .

كل هذا وغيره ليس مستساغاً في عالمنا نحن ، لكن يجب ألا نقيس معايير المستقبل بالمعايير التي نشأنا عليها ، وتأقلمنا بها . ثم إن هذه الطريقة من طرق الحياة التي لاشك نستعجنها ونمجها ، قد يرون هم فيها طريقة حياة مثلى ، وقد تهيم صحة وسعادة لانحلم نحن بها .. المهم ألا نوقف عجلة الزمن عند حدود أفكارنا الحالية ، تماماً كما لا نستطيع أن نعود إلى طرق حياة الأجيال الماضية . إذ لو اطلعوا على ما نحن فيه الآن لما استطاعوا أن يستوعبوا شيئاً من الإنجازات الهائلة التي حققتها العلوم التجريبية في كل المجالات .

حيوية أكثر .. وأعمار أطول :

وربما كان السبب في تحيز هذه السلالات البشرية الخضراء إلى هذا النوع من الحياة ، هو اهتمامهم بعقوئهم دون بطونهم .. لأنهم يدركون أن «المعدة بيت الداء» - أو أنه «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه» - كما يقول الحديث الشريف . ثم إننا لو تعمقنا في المبادئ العلمية والطبية التي اتخذوها في حياتهم سيلاً ، لكان ذلك دافعاً إلى الاقتناع بجدوى هذه الحياة التي تهيم من النشاط والحيوية والشباب ما قد نحسدهم عليه ، أو ربما نتمنى منه نصيباً . إن سر حيوية هؤلاء البشر الخضر ، وطول أعمارهم ، يرجع إلى عوامل

كثيرة .. فهموم الحياة قليلة ، والترفيه والتسلية كثيرة ، والمجاعات معدومة ، والأمراض التي كانت تقصف أعمارنا غير موجودة .. السرطان انتهى عهده في زمانهم ، كما انتهى عهد الطاعون مثلا في زماننا ، كما أن كل الأمراض المعوية والمعدية والكبدية والكلوية .. الخ قد أصبحت أثراً بعد عين ، فالتيفود والكوليرا والدوزنطاريا وغير ذلك من الميكروبات التي كانت تعيش على الطعام في الجهاز الهضمي قد اختفت ، لأنها لا تجد ما تعيش فيه أو عليه . ثم إن فضلات الإنسان التي كانت تخرج بعد هضم الطعام كانت من ضمن الملوثات العضوية المسئولة عن انتشار مثل هذه الأمراض . ومادام هؤلاء البشر الحضر قد ارتضوا لحياتهم هذا النوع من التغذية الذاتية ، فلا وجود إذن لهذه الميكروبات المعدية .

ثم إن عمر المرء مقدر بعمر شرايينه وقلبه . والمريض بالقلب ، أو بتصلب الشرايين مقدر عليه أن يهجر أطعمة بناتها ، لأن نوع الطعام قد يكون له دخل في تصلب الشرايين ، أو تكوين الجلطات التي تقصف الأعمار . لكن الإنسان الأخضر ليس برمام . ومن هنا اختفت منه أمراض القلوب والشرايين التي كان بلاؤها في الطعام .

ولا ننسى أيضا أن هضم الطعام ، ووجود جيوش من الميكروبات التي تعيش على بقاياها في أمعائنا ، ثم ما يتبع ذلك من عمليات تخميرية تقوم بها تلك الميكروبات ، وما ينتج عنها من مركبات كيميائية ضارة ، ثم نفاذ هذه المركبات إلى دمائنا ، واتحادها مع الجزيئات الحيوية الأساسية التي تقوم عليها أعمدة الحياة في الخلايا ، ثم ما يتبع ذلك من قيود وأغلال تشل هذه الجزيئات ، وتقلل من كفاءتها في أداء رسالتها .. كل هذا وغيره قد يؤدي بنا إلى شيخوخة مبكرة أو متأخرة ، فالذي يأكل كثيراً لا يعمر طويلا ، أو على

حسب المثل الإنجليزي «الفران النحيفة تدفن الفران السمينة» .. وتلك حقيقة علمية نعرفها في زماننا هذا ، أو على الأقل نعرفها من خلال الحديث الشريف «المعدة بيت الداء» .. أى أن معظم المصائب تنتج من جهازنا الهضمي .. صحيح أن عملية امتصاص بعض الجزيئات الكيميائية الضارة ، وسريانها في الدماء عملية جد بطيئة ، لكن أعطها عمرا مديدا تعطنا حصيلة من الأغلال الكيميائية غير المنظورة . وشيئا فشيئا نحس بهبوط تدريجي في كل أنسجتنا ومرافقتنا الحيوية . ثم يزيد هذا الهبوط بمرور الزمن ، متمشيا بذلك مع مبدأ القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية Thermodynamics . ويشير هذا القانون ببساطة إلى أن «الخلل الناتج من أى نظام مغلق متفاعل يميل إلى الزيادة بمرور الزمن» .

والجسم الحى - بلاشك - نظام معقد مغلق على نفسه . ولهذا كان لا بد أن يزيد فيه الخلل ، كلما مر به الزمن ، أو هو ما نعبّر عنه في نهاية أعمارنا بالشيخوخة التى لا مفر منها ولا مهرب .. ومع ذلك ، فمنا من يصل إلى الشيخوخة فى سن الستين أو السبعين . ويظل محتفظاً بنصيب الأسد من حيويته ونشاطه ، ومنا من تنهشه أعراضها ، حتى لتحسب ابن الخمسين قد جاوز الستين أو السبعين .

لقد أثير الإنسان الأخضر دون أن يدرى . فلقد جنبته التكنولوجيا البيولوجية ، أو هندسة الوراثة والجينات ، هذا السبيل من سبل الحياة .. أى لا طعام ولا هضم ولا ميكروبات ولا سموم ولا أغلال كيميائية تسرع به إلى الشيخوخة . بل قد تمتد الحياة فى المتوسط إلى ١٨٠ أو ربما إلى مائتى عام .

ثم لا بد أن نذكر عاملاً آخر مهمها .. فعلمية التمثيل الضوئى والتروجينى

(أى تكوين البروتينات من النيترات) تمنح الإنسان الكلورفيل أو كسجيننا ،
وتخلصه من النفايات التى تتجمع فى جسمه . فبمجرد تكوينها ، تجدها سبباً
كيميائية حيوية ، فتحولها من صورة ضارة إلى صورة نافعة .. ثم هل ما زلنا
نتذكر أن كائنات الشعب المرجانية التى ذكرناها سابقاً تنمو أفضل وتعيش
أطول ، لأنها تحوى فى أنسجتها خلايا نباتية ، فإذا حرمانها منها ، تضاءلت
حيويتها ، وقل نشاطها ، وقصرت أعمارها ؟

إن الجوهر واحد ، لأن تبادل المنفعة على أسس كيميائية حيوية بين كائنين
أو نظامين يكفل أحدهما الآخر ، ويعيشان على مبدأ «تخذ وهات» يؤدى إلى
نشاط أوفر ، وحيوية أكثر وعمر أطول .. وهذا ما يحدث أيضاً فى الإنسان
الأخضر .. فثانى أكسيد الكربون الناتج من عملية التنفس سيصبح متاحاً
لعملية التمثيل الضوئى فى هذا الطراز الإنسانى الحديد ، ويعطى بدلاً منه
الأوكسجين .. والأوكسجين بدوره هو «إكسير الحياة» .. وهو الذى يوقد
فيها جذوة الحيوية والنشاط ، ويمنحنا الطاقة الكيميائية التى تدير فى داخلنا
«الدينامو» الحى .. أى كأنما الإنسان الأخضر قد جمع فى تكوينه الحسنيين ..
اختفاء الضرر سريعاً ، وظهور النافع تبعاً لذلك .

ثم إن هؤلاء البشر الأخضر مشوقو القوام ، فارعو الأجسام لأن الإنسان
الأخضر يحصل على عناصر الحياة بحساب ومقدار . أى لا تفرط ولا إفراط ..
وهذا يختلف كثيراً عن سلوك الذين ينهشون اللحوم نهشاً ،
ويمسحون الموائد بما عليها مسحاً ، وقد لا يبقون على يابس ولا أخضر .. فكل
هذه العادات السيئة قد هجرها الإنسان الأخضر .. فطوبى لهم بما سلكوا
واعتدلوا ، ولم يسرفوا «والله لا يجب المسرفين» .

إن مثل هذه الصور من الحياة قد تصيبنا بالفزع . فنحن مثلاً لا نستطيع أن نستوعب حياة إنسان لا يتلذذ بالتهام الطعام . وتتويع مصادر الغذاء .. فهل هذه حقاً حياة يسعى إليها العلماء؟ وهل من حقهم أن يفعلوا ذلك ، دون أن توافق حكومات وبرلمانات وشعوب العالم على هذا المصير الذى سيرتدى إليه النوع البشرى ، فيصبح يخضورياً أو كلوروفيلياً؟

السؤال الأخير كان مثار جدال كبير بين العلماء أنفسهم ، وبين العلماء وساسة دولهم . لكننا سنوجل ذلك إلى باب قادم ، ومع ذلك فالعلم يجب أن يأخذ مجراه ، لأنه يفتح عقولنا على أسرار الكون والحياة .. أما التطبيق فترك لما قد تتمخض عنه الأيام .

لكن أن يتلذذ إنسان فى المستقبل بأكلة دسمة من طعام كما نتلذذ ، فأمر مردود عليه . فالمعروف عن البشر أنهم يعارضون أية فكرة جريئة لا تتمشى مع الأفكار أو التقاليد السائدة فى زمانهم . ذلك أن العقول لا تستطيع هضمها . ومع ذلك فالطعام وسيلة لا غاية ، والحياة قد شقت طريقها الطويل الذى استمر أكثر من بليونى عام ، لكى تتوج هذا المسار بمخ مفكر ، وعقل راجح ، وفكر صائب ، وعلم نافع ، وتلك هى الغاية .. أجمل وأعظم غاية .. ثم إن هؤلاء البشر الحضر ملذاتهم الأخرى التى لا تناسب عقلية زماننا الذى نعيش فيه . وقد ينظرون إلينا على أننا نوع من الإنسان البدائى الرمام . وطبيعى أننا لا نستطيع أن نلومهم ، فلكل جيل أفكاره ، ولو فرضنا أن قصة أهل الكهف قد تكررت بعد ثلاثمائة من السنين ، وبعث إنسان (فرضاً) من موته ، ثم اطلع على ألوان هؤلاء البشر وسلوكهم وتقاليدهم وأفكارهم ، لما استطاع أن يستوعب شيئاً . وعندئذ يصاب بصدمة نفسية ، ويخر ضعفاً ، فآلموت أولى به حتماً .

لذة المعرفة :

بعد مائتين أو ثلاثمائة من السنين سوف تصبح فروع المعرفة فى أوج عظمتها ومجدها .. ومن الصعب التنبؤ بما سيكون عليه الحال فى طرق المواصلات والعقول الأليكترونية ومعاهد البحوث والجامعات ، ونخطيط المدن ، ووسائل الترفيه والسفر بين الكواكب والرحلات فى أعماق البحار ، وشبكات الاتصالات ، ودور المكتبات ، والتطور الذى سيحدث بعد ذلك فى علوم الحياة ... الخ ... الخ .

إن الإنسان الأخضر أصبح يهتم بعقله دون بطنه .. والمعرفة فى زمانه ستصبح كبحر جارف لا يشبع العقل منها أبداً . ثم إن العقل البشرى الأصيل يختلف اختلافاً جوهرياً وهائلاً عن المعدة . فلو فتح الإنسان العيار لمعدته ، واتهم الطعام والشراب دون حساب ، فإن ذلك قد يصبح وبالاً عليه ، وقد يتقى ما أكل وشرب ، أو قد يصاب بما لا تحمد عقباه ، لكن العقل يستطيع أن يستوعب أطناناً من الكتب ، وكلما أطعمته معرفة جاع وزادت شهيته إليها . ثم إنه لا يشبع منها أبداً .. ونحن نعتقد أن عقول الأجيال القادمة ستصبح مؤهلة وساعية لهذه المعرفة .. تماماً كما يسعى أصحاب البطون إلى وليمة دسمة ، مع الفرق بين ما يتمخض عن هذا وذاك .. وهنا لا يستوى أصحاب العقول وأصحاب البطون ، كما جاء فى الآية الكريمة « قل هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون » .

نقول قولنا هذا لتؤكد على حقيقة لا مفر منها .. فالأجيال القادمة مقبلة على عصور تختفى فيها الأمية ، وتردهر فيها العقول ، وسيكون لها من وسائلها الترفيية أكثر مما لدينا أضعافاً مضاعفة . فالذى حققه العلم فى السنوات

الخمسين الماضية ، نجني الآن ثماره الناضجة .. التلفزيون مثلا من الوسائل الترفيهية التي تجعل عالمنا كأنما هو بين أيدينا ، أو تحت سمعنا وأبصارنا ، أو كأنما نحن ننظر إليه من خلال مرآة سحرية كالتى تخيلها القدماء .

الحاسبات أو «العقول» الاليكترونية ستصبح أكثر إثارة من الأجهزة التلفزيونية .. إنها ستخرج مع الناس ، وتلعب معهم ، وتقدم لهم من أنواع التسلية والرفاهية مالا يستطيع تقديمه نجوم الضحك أو الكوميديا فى عالمنا المعاصر .

الرحلات الترفيهية على اليابسة أو فى أعماق البحار والمحيطات ، أو فى أجواز الفضاء ، ستفتح عقول الناس - لا بطونهم - على « شهوة » المعرفة .. فيتطلعون إلى روعة صنع الله الذى تتجلى قدرته فى كل هذا الإبداع العظيم الذى يترامى أمام أعينهم بغير حدود .. وهم فى تطلعمهم وتأملهم يعبدون الله عن علم ، بعد أن عرفوا من ملكوته أضعاف ما نعرف ، وكأنما تنطبق على حالهم تلك الآية الكريمة « ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله » .. أى سيرون الجمال والاتقان والآيات الدالات على تلك القدرة الفذة ، وفى ذلك متعة عقلية لا تفوقها متعة .

تعليم الأجيال القادمة سيتخذ نغمة أخرى غير هذه النغمة التقليدية الحالية المنفرة لعقول الأطفال والصبيان والشباب ، أى حشو الرؤوس بالمعلومات قسرا ، دون متعة حقيقية لتقبل أصول المعرفة .. يعنى هذا أن عنصر العرض والتشويق والإثارة وجذب العقول للإقبال بشهية مفتوحة على العلوم والفنون والآداب . وما شابه ذلك ، سيجعل من وسائلنا الحالية فى التعليم شيئا بدائياً .. وهذا الجذب والتشويق من شأنه أن يدفع الصغار والشباب لتقبل

المعرفة من أجل المعرفة .. لا من أجل شهادة يكسبون بها خبزهم وإدامهم ..
فالإنسان الأخضر قد أصبح في غنى عن معرفة يعول بها بطنه ، لأنه ببساطة
لا يأكل كما نأكل .

هناك في هذا الزمان قد نتقابل مع بناية ضخمة أنيقة .. عليها لافتة تشير
إلى هويتها .. إنها «مكتبة المعرفة» .. إذن فلندخل (بالخيزن طبعاً) لنأخذ
فكرة .. كل شيء فيها مريح ومضىء وجذاب للنفس والعقل والبدن .. لكن
أين المجلدات والكتب ؟ .. إنها غير عملية في هذا الزمن . فكل شيء مسجل
على أشرطة دقيقة ، تحكمها حاسبات اليكترونية .. لكن لا تكلف خاطرك
بالبحث عما تريد .. أنت مثلاً مهتم بالعلوم الفلكية أو الرياضية أو الطبية
أو البيولوجية أو الآثار القديمة أو الفنون ... الخ ... الخ . إذن ما عليك إلا
أن تتخاطب الحاسب الأليكترونى شفويا ، وعندئذ «يفهم» مرادك (فالحاسبات
هنا تكلمك وتكلمها) .. وقد ينصب اهتمامك على الكيفية التي ظهر بها
الإنسان الأخضر على هذا الكوكب ، فتقول للحاسب : أريد عرضاً مفصلاً
عن البحوث التي أظهرت الإنسان الأخضر ، وعندئذ تبرز أمامك شاشة في
حجم شاشة السينما . وقد تسمع من يقول بصوت واضح : نحن الآن في بداية
النصف الثانى من القرن العشرين ، ويبدأ العرض على هيئة فيلم ملون ، تظهر
فيه أجهزة ومعامل وعلماء النصف الثانى من القرن العشرين . وبنفس
الصوت يتقلك الفيلم من مشهد إلى مشهد ، وفيه ترى كيف كانت البدايات
متواضعة ، ثم تطورت بمرور الزمن ، والصعوبات الضخمة التي جابهت
الأجيال المتتابعة من العلماء ، وكيف تغلبوا عليها بذكاء نادر ، وصبر جميل .
ويستمر العرض ساعات طويلة ، دون أن يصيب الإنسان ملل أو فتور .
وتستمر الرحلة عبر مائتى عام ، إلى أن يظهر أول إنسان أخضر إلى الوجود . ثم

ما يتبع ذلك من تكاثره وانتشاره ، في حين تضمحل أعداد الإنسان الرمام .
بقى أمر هام .. إذ من المؤكد أن يتبع عصر الإنسان الأخضر ثورة وتطور
في الملابس التقليدية . فلكي تستفيد البشرية من الطاقة الشمسية ، كان لابد
من تعريضها لأكبر نصيب ، ومن أجل هذا ظهرت أنسجة وملابس خاصة
لتسمح للأشعة بالفاذ ، أو قد تراهم يلبسون ما يشبه لباس البحر .. أضف
إلى ذلك أنهم يعيشون في ثورة تكنولوجية متقدمة للغاية ، وبحيث تؤدي إلى
حل لمشكلة تهوية البشرية ، وحفظها في درجات حرارة ملائمة . ومن هنا
كانت أهمية تصميم الملابس وأنواعها ، ودرجات شفافيتها وتهويتها ، وغير
ذلك من تصميمات تتطلبها حياة الإنسان الأخضر في صورته الجديدة .

ثم إن البنائيات معظمها من ألواح الزجاج الشفاف ، وعليها تسلط الأشعة
بواسطة مرايا عاكسة ، فتنفذ منها إلى داخل الحجرات والصالات ، وتنتشر
فيها ، ليستقبلها الناس على بشرتهم ، وكأنما هم « يرضعون » الضوء بدلا من
اللبن . فإذا حل الظلام أضاءت المصابيح الكهربية المختلفة القوة
والأحجام ، ، ففي ضوئها طاقة ميسرة لعمليات التمثيل الكلوروفيلي في البشر
الخضر .

وللأمانة العلمية كان لزاماً علينا أن نشير إلى نبوءة وردت في كتاب
«التحكم في الصفات الوراثية للإنسان وتطوره» على لسان الدكتور «كيمبال
آتوود Atwood» أستاذ ورئيس قسم الميكروبيولوجيا (علم الكائنات الدقيقة)
بجامعة إلينوى الأمريكية إذ يقول «إن التطور الذى يحدث في الطبيعة في
كائنات أكثر تكيفا بالبيئة ، يؤدي إلى إنتاج نواتج جانبية من كائنات
ضعيفة . وهذه لابد أن يكتب عليها الزوال طال الزمان أم قصر .. ولها فبدا

من هذه العملية التطورية البطيئة التي تسير في خطوات كسيحة من الطفرات التي تخضع لمبدأ الاختيار (أى تواصل الطفرات القوية المناسبة لحياتها ، فى حين تنقرض الضعيفة) ، بدلا من ذلك ، فإن التسيد التكنيكى الكامل سوف يمكننا من اختيار الهدف وتحقيقه مباشرة . فنحن نستطيع مثلا إنتاج كائن يجمع بين الصفات الممتازة والمرغوبة فى الحيوانات والنباتات مثل إنتاج مخ بشرى كبير يستطيع أن يستوعب فلسفات زمانه . وفى الوقت ذاته تنتشر على ظهره رقعة خضراء تغنيه عن الأكل .. إن هذا يمكن حدوثه وتصوره فى سلالات بشرية تحمل تحت جلدها الكلوروفيل ، وبجيب تبدو لنا كصورة هذا الإنسان الأخضر القوى المرسوم على علبة البسلة .. أو بدلا من تحقيق عملية التمثيل الضوئى المعقدة ، كان بإمكاننا أن نعد الجهاز الوراثى الإنسانى بشرط وراثى مسجل عليه خطة لإنتاج خميرة «السيلوليز» Cellulase (أى جينة خاصة بإنتاج هذا الإنزيم) وفى هذه الحالة يستطيع الفرد أن يأكل الورق ونشارة الخشب ، ويضمه بواسطة ذلك الإنزيم الذى تمتلكه المواشى .

وهذه الفكرة الأخيرة ليست معقولة ولا مقبولة ، فلا أحد يرضى أن يصبح كالبهيم ، فى أكل ويضم أسوة بالبهائم ، وإن كان هذا الهدف يمكن تحقيقه «تكنيكيا» - كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

ثم إن هذا الكتاب الصغير (١٢٧ صفحة) الذى كتبه مع آتوود ثمانية من مشاهير علماء الخلية والوراثة قد ظهر فى عام ١٩٦٥ ، ولم تكن هندسة الوراثة قد استوت على عودها بعد ، لأنها ظهرت بعد هذا الكتاب بجوالى خمس سنوات أو ست . ومن أجل هذا لم يتعرض لتفاصيل الكيفية التى يمكن بها إنتاج سلالة خضراء ، واكتفى فقط بالتلميح ، وذهبنا نحن للتعرض لتحقيق

هذا الهدف إلى أبعد من ذلك ، لأن الحصيلة العلمية التي تمت في السنوات الثمانية الأخيرة - خاصة في هندسة الوراثة - قد أعطتنا المؤشرات الصحيحة التي يمكن أن نبني عليها تنبؤاتنا بشيء من التفصيل .. وطبيعي أن هدف إنتاج إنسان أخضر له جاذبية أكثر ، أما إنتاج إنسان يعيش على البرسيم والتبن والورق ونشارة الخشب فهذا أمر لا يستسيغه البشر ، بما في ذلك العلماء .

وأخيرا .. فإن الشك لا يزال يساور كثيرا من العقول في إمكان تحقيق هذا الهدف الكبير ، الذي يتمخض عن كائن جديد ، يجمع بين صفات الإنسان والنبات . لكن هذه الشكوك سوف تتوارى ، لو أننا قدمنا مزيداً من التفصيلات والنتائج التي حققها ذلك العلم الوليد المعروف باسم هندسة الوراثة .

فإلى فصل جديد .. لنعلم منه ما لم نكن نعلم .

الفصل الرابع
إنهم يغيرون في طبيعة المخلوقات

إنهم يغيرون في طبيعة المخلوقات

فكرة نسخ الخلايا الجسدية ، و« طبع » أو إنتاج نسخ بشرية طبق الأصل من المخلوق الذى عزلت منه تلك الخلايا .. وفكرة إنتاج سلالة بشرية خضراء جديدة ، والتي يحق لنا أن نسميها هنا *V. Chlorophyllus* *Homo Sapiens* .. أى السلالة الخضراء من الإنسان العاقل أو الحكيم ، قد تقابل بالرفض القاطع من البعض ، أو بالوجوم أو بالسخرية من البعض الآخر.. فى حين أن قلة قليلة ممن لديهم إلمام مبدئى بعلم الخلية أو الوراثة الجزيئية *Molecular genetics* قد تقابل ذلك بالتحفظ حيناً. أو بالاعتناع حيناً آخر.

لكن الإلمام بأساسيات هذا الموضوع ، أو التعمق فى تفاصيله ، قد يوضح الصورة التى تغيم على عقول من لا يعلمون شيئاً عن البحوث الخطيرة القائمة الآن فى مئات المعامل المنتشرة فى الدول المتقدمة .

ولنبداً هنا مرة أخرى بالإنسان .. إنه مخلوق متناسق من الظاهر ، أى أن نصفه الأيمن يتماثل تماماً مع نصفه الأيسر (ودعك من العاهات ، فتلك شواذ ، ولا شأن لنا بذلك الآن) .. ضع الإنسان على المشرحة (الميت طبعاً) ، ولتصور أننا شققناه طولياً إلى نصفين ، عندئذ لن نجد له قلبين ولا معدتين ولا كبدين ولا طحالين ولا أعورين .. الخ ، بل يأق الكبد مثلاً

إلى اليمين ، والقلب إلى اليسار قليلا ، والطحال إلى اليمين .. أى أن مبدأ التناسق هنا قد أصبح غير ذى معنى .. صحيح أن هناك رثتين وكليتين ونصفي مخ متماثلين ومقلتي عينين .. الخ ، وهذا يدل على وجود تناسق فى مرافق أو أعضاء أو أنسجة ، ولا يوجد تناسق فى أعضاء أخرى من الداخل .

سنلاحظ بعد ذلك أن الأعضاء تتكون من أنسجة مختلفة . والأنسجة من خلايا .. والخلايا هى وحدات البناء فى أى مخلوق .. ولتأخذ وحدة واحدة .. أى خلية من خلايا الإنسان ، ولنفحصها بالميكروسكوبات العادية أو الأليكترونية . فنجد لها غشاء يحدد شكلها ، أو سورا رقيقا يحفظ عليها كيانها . ومن داخل السور مادة هلامية هى سيتوبلازم الخلية الحى . وفى داخل هذا السيتوبلازم توجد المرافق الدقيقة والمتنوعة التى تدير بها الخلية شئونها الداخلية .. ففيها محطات قوى (ميتوكوندريا Mitochondria) تحرق السكر ، وتحوله إلى ماء وغاز ثانى أكسيد الكربون ، ومعها ينطلق قدر محدد من الطاقة التى تدير بها الخلية آلياتها الجزيئية .. وللخلية أيضا مطابع لتطبع عليها بروتيناتها ، مستخدمة فى ذلك أحماضا أمينية يبلغ عددها حوالى عشرين نوعاً . ولتصور أن كل نوع من هذه الأحماض يمثل لنا حرفا من حروف لغتنا التى نكتبها بثمانية وعشرين حرفا . ومن التبديل والتوفيق بين حروف لغتنا نتيج كلمات ، قد يكون لها معنى ، وقد لا يكون . ونحن نستطيع أن نكون من لغتنا بلايين فوق بلايين من الكلمات .. بداية من كلمة ذات حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة .. الخ . وكذلك تفعل المطابع بأحماضها الأمينية العشرين .. إنها ترص أو تشبك الحامض بالحامض ، لينتج مركبا من حامضين ، أو قد تريد عليه حامضا فىأتى مركبا من ثلاثة أحماض متشابهة .. وقد تضيف وتضيف وتضيف .. إلى أن تنتج لها مركبات بسيطة ومتوسطة وكبيرة

وعملقة .. وهذه جميعا نسميها البروتينات .. ومن الممكن والحال كذلك أن نكون من الأحماض الأمينية العشرين - بفكرة التبديل والتوفيق - بلايين فوق بلايين من البروتينات . ولكل بروتين من هذه الأنواع وظيفة محددة ، ورسالة مقدره لايجيد عنها ولايميد .

لكن المطابع الخلوية (وهى كثيرة جدا فى الخلية ونسيميها الريبوسومات Ribosomes) لاحق لها فى طبع أى حرف أو بروتين ، إلا إذا جاءها أمر بالطبع ، أى لابد أن تكون هناك نسخة خطية ، لتعرف محتواها ، وتطبع على هداها .. مثلها فى ذلك كمثل الأصول التى كتبها المؤلف ، ثم أحييت إلى المطبعة . وعلى الطابع أن يقرأ ويجمع ويطبع .. وكذلك الحال فى الخلية .. إنها صورة مصغرة من كوننا الذى نعيش فيه .

لكن .. أين المؤلف الذى يؤلف الأصول ؟

إن المؤلف يكمن فى مخ الخلية .. تماما كما يكمن المخ فى رءوسنا . ويصبح جزءاً من جسمنا . وبدون مخ أو عقل فلن تكون فكرة ولا أفكار ولا كتب مطبوعة .

ومخ الخلية هو نواتها .. لأنها العقل المفكر الذى يرسم كل خطة ، ويوجه كل أمر ، ويدبر كل عملية حيوية من آلاف العمليات التى تتم فى ساحة الخلية .

وكما تحمى الجمجمة أمخاخنا كذلك كان للنواة سور يحميها ، ويعزلها عن المعمة الكيميائية التى تتفاعل حولها ليل نهار . والسور النوى رقيق غاية الرقة ، وبه فتحات دقيقة أيضا غاية الدقة ، وهى بمثابة الأبواب التى يتم عن

طريقها دخول الجزئيات وخروجها ، لتصبح على اتصال «بحكومتها» المركزية .

إذن فلنخط خطوة جديدة من عالم دقيق ، إلى عالم أدق .. أى من ساحة السيوبلازم إلى نواة الخلية . وعندئذ ستجابهنا مناهات أخرى كثيرة .. فكما أن أعظم الأسرار وأعقدها تكمن في أمخاخنا . كذلك فإن الشيء نفسه يتكرر في مخ الخلية ونواتها .. إنها بمثابة مكتبة هائلة رغم ضآلتها .. والمكتبة مقسمة إلى «إدارات» .. كل إدارة تمثل لنا كروموسوما . فإذا أحصيناها وجدناها ٤٤ إدارة - نعى ٤٤ كروموسوما . هذا بالإضافة إلى كروموسومين آخرين يحددان جنس الإنسان .. أى إن كان سيصير ذكرا أو أنثى .. أحدهما يطلق عليه س (أو إكس X) والآخر ص (أو واى Y) .. الأول للأنثى ، والثانى للذكر .

إذن .. ماهى مهمة هذه الإدارات أو الكروموسومات ؟

الواقع أن لكل إدارة خططها أو بروجراماتها ، لكن العجيب هنا أن لكل «إدارة» نسخة طبق الأصل منها .. وتلك فى الواقع فكرة عظيمة سبقتنا بها تلك الخلايا من مئات الملايين من السنين . فقد يعطب جزء من الكروموسوم ، وعطبه قد ينتج عنه مرض وراثى قد يكون قاتلا . ولهذا كان لا بد من وجود نسخة أخرى لتعوض ما فسد (أى كأنها هنا بمثابة قطع الغيار ، أو كبعض ملفات أسرار الدولة الهامة التى تحفظ منها نسختان أو أكثر فى مكانين متفرقين) .

يعنى هذا أن الأربعة والأربعين كروموسوما قد جاءت أزواجا أزواجا .. أى ٢٢ زوجا .. كل زوج نسخة طبق الأصل من الآخر (علما

الكروموسومات المحددة للجنس) .

لكن .. لماذا أطلقنا على الكروموسومات تعبير (إدارات) ؟.

لأن كل كروموسوم بمثابة سجلات أو «أرشيفات» كيميائية . ثم إن المعلومات الوراثية المسجلة في هذا السجل غير المعلومات المسجلة على السجلات الأخرى .

لقد خطونا قبل ذلك من عالم دقيق ، إلى عالم أرق .. لكن دعنا نخطو خطوة أخرى إلى عالم أرق وأرق .. فالكروموسوم فيه ملفات أو «دوسيهات» .. آلاف أو ربما عشرات الآلاف من هذه الدوسيهات .. كل دوسيه أو ملف نسميه جينة أو مورثة .. وكل جينة تحتوى على الخطة الوراثية لعملية محددة بناتها . فإذا دارت واشتغلت . ترجمت معلوماتها إلى صفة وراثية محمودة أو غير محمودة - فالمحمود معلومات صحيحة ، أو قد يكون فيها خطأ وحيد صغير ، وعندئذ تصبح غير محمودة ، لأنها ستؤدى إلى عملية خاطئة ، تنتج مرضا وراثيا لامفر منه ولا مهرب .

وطبيعى أن هذه الملفات ليست مسجلة على ورق . بل إن التسجيل يتم على أشرطة كيميائية ، أى كأنما الحياة قد سبقت تكنولوجيانا المتقدمة بتكنولوجية بيولوجية ، فسبحان من خطط أوصولا ، وأبدع نظامها ، وحدد شفراتها .

لقد بدأت الدول المتقدمة في تسجيل بحر المعلومات المخطوطة في أكوام ضخمة من الكتب والمجلدات على أشرطة ممغنطة . فعدة شرائط قليلة تغنى عن مجلدات كثيرة . وكذلك سجلت الحياة خططها الوراثية على أشرطة في جينات .. الجينات في كروموسومات .. الكروموسومات في نواة .. النواة في

خلية ، تدور في ساحتها آلاف العمليات الكيميائية .

إذن .. فكما كانت الخلية هي وحدة النسيج أو العضو أو المخلوق .. كذلك جاءت الجينة لتكون وحدة الوراثة .. ثم إن هذه الجينات تتراص على الكروموسومات ، كما تتراص الحبات في عقودها .. وتحت عدسات الميكروسكوب تبدو الجينة أحيانا كشكل كروي دقيق لكنها ليست في الواقع كذلك . بل هي شريط وراثي ملفوف . وله طول محدد . وسمك مقدر ، وعليه شفرات كيميائية هي بمثابة «ألف باء» لغة الحياة .

ثم إننا لو استطعنا أن نخرج هذه الأشرطة الملفوفة في جيناتها ، ثم أفردناها كما نفرد الخيط من بكرته ، أو الشريط من لفته ، ثم أوصلنا هذه الشرائط ، فإن بطولها في كل خلية من خلايا الإنسان قد يتراوح ما بين ١٥٠ - ١٧٥ سنتيمترا . وعلى هذا الشريط توجد حوالي ثمانية آلاف مليون شفرة كيميائية .. ومن انتظام هذه البلايين يتحدد قدر المخلوق في الحياة .. فشريط الإنسان « يدور » أو يشتغل ليعطى إنسانا ، وشريط الحمار حمارا ، والباذنجان باذنجانا ، والميكروب ميكروبا .. الخ .

أى أن الإنسان هنا ليس خلقا قائما بذاته ، بمعنى أن الكائنات جميعها قد توحدت في شريط واحد .. نفس شكل الشريط وسمكه والشفرات المسجلة عليه ... الخ ، وهذا أعظم دليل على وحدة الخلق ، وهو أعظم دليلا أيضا على وحدة الفكرة ، ووحدانية الخالق .

خذ بعد ذلك شريطا من فيروس أو ميكروب أو نبات أو حيوان .. إلى آخر هذه القائمة التي تضم ملايين الأنواع والسلالات من المخلوقات . ولا بد أن تصور هذه الأشرطة بالميكروسكوبات الأليكترونية .. عندئذ لا تستطيع أن

تقول أين شريط الإنسان من الحيوان من النبات .. لأن الشرائط صور طبق الأصل من بعضها في الظاهر . وطبيعى أننا لانستطيع أن نعرف فيها مايتويه الباطن ، مثلها في ذلك كمثل شرائطنا المسجلة ، لكن بدون بيانات تحدد ما سجل عليها . ولكي نعرفها أدر الشريط على جهاز التسجيل ، وعندئذ نسمع ونعرف وتميز .

وكذلك الحال مع الأشربة الوراثية ، وإن كان الحال هنا أفضل بكثير . لأن الأشربة دقيقة غاية الدقة .. فالأشربة التي سجلت عليها كل صفات الإنسان - سواء في خلية ملقحة ، أو مايمخض عن هذه الخلية من ملايين الملايين من الخلايا - هذه الأشربة تستطيع أن تضعها على سن دبوس (لاعلى رأسه) ، ويبقى على السن مساحات تستوعب شرائط أخرى .. فلو أننا طويينا هذه الأشربة الكامنة في نواة الخلية الجسدية ، وتصورناها على هيئة كرة . فإنك لن تراها لضآلتها المتناهية .. إن وزنها مثلا في حدود ٦ بيكوجرام . والبيكوجرام وحدة من وحدات الموازين التي تستخدم في هذا العالم الذى يقع فيما وراء حدود عيوننا وتصوراتنا . وهو يساوى جزءا من مليون مليون من الجرام . أى أن وزن أشربتنا الوراثية في كل خلية هي ستة أجزاء من مليون مليون جزء من الجرام ، ومع ذلك ، فالشريط - كما ذكرنا - يصل طوله إلى مترين إلا ربعا ، لكن سمكه ضئيل غاية الضآلة ، إذ يصل إلى جزءين اثنين من مليون جزء من المليمتر (.. ومع ذلك ففيه من الشفرات أو المعلومات مايكفى لتكوين مكتبة قائمة بذاتها .

إن الفيروس مثلا ضئيل غاية الضآلة . ولايرى إلا بالميكروسكوبات . ولهذا فإن شريطه الذى يجعل منه فيروسا لايزيد طوله عن جزء أو جزءين من

مائة جزء من المليمتر. ومع ذلك فإن هذا الشريط الضئيل جدا مسجل فيه ١٥٠ ألف شفرة وراثية .

ثم تأتي الخلية البكتيرية التي يمكن رؤيتها بصعوبة بالميكروسكوبات الضوئية .. إنها أكبر من الفيروس بآلاف المرات . ولها أجهزة خلوية معقدة . ولها شريط وراثي طوله لايزيد عن المليمتر ، ومسجل عليه سبعة ملايين شفرة ونجوم البحر- وهي كائنات بسيطة التركيب - لها في كل خلية من خلاياها أشرطة طولها ٣٠ سنتيمترا ، وخطايا الطيور أشرطة تحتوى كل منها في المتوسط على حوالى ٦٠ سنتيمترا . وكلما ارتقى الكائن وتعدت خلاياه وأنسجته وأعضاؤه ، احتاج إلى أشرطة أطول .. قد تكون ٨٠ ، أو ١٠٠ ، أو ١٣٠ سنتيمترا .. الخ .

أدر الشريط .. تعرف المخلوق :

إن شرائط المخلوقات جميعها متشابهة تماما في الظاهر . ولا يمكن التمييز بين أشرطة الإنسان أو الباذنجان أو الضفدع .. لكن أدر الشريط ، تتعرف على المخلوق .

لكن .. كيف نديره ؟

لا أحد يستطيع .. فإله يديره في الخلية ، لتتجسد معلوماته في مخلوقه لا عدد لها ولا حصر .. وطبيعى أن الأمر ليس بالسهولة التي ندير بها أشرط على أجهزة تسجيلنا ، فالطفل هنا يفعلها . لكن ألمع علماء العالم لا يستطيعون تشغيل الأشرطة الوراثية إلا بإرجاعها إلى الأصول التي منها قد عزلت .. نقصد بذلك الخلية الحية .. أو بالتحديد نواتها التي أصبحت بمثابة المخ

المفكر ، أو العقل المدير.. فما من صفة وراثية تتميز بها كل المخلوقات ، إلا ولها على شريطها أو أشراطها الوراثة جزء محدد سجلت عليه تلك الصفة .. ثم لا بد أن يفصل الصفة عن الصفة أو الصفات التي تليها منطقة جد صغيرة . وهذه المنطقة بمثابة الشرطة أو النقطة التي نضعها بين الجمل ، لتوضح بداية جملة ، ونهاية أخرى أو هي أيضا بمثابة الفواصل على شريط التسجيل الذي قد تسجل عليه عشرات الأغاني أو القطع الموسيقية . ولكي يصبح لكل أغنية كيانها ، كان لا بد من فصلها عما يجاورها بفواصل صامتة لاتسمع منه شيئا .. ثم يبدأ المقطع الآخر من الموسيقى أو الأغنية وهكذا .

وعلى نفس الوتيرة نستطيع أن نتصور أن الشريط الوراثي عليه مقطوعات من معلومات وراثية محددة . كل مقطوعة مستقلة نسبيها جينة .. وعلى هذه الجينات بدأت لعبة العلماء الخطيرة ، لأنهم بسيطرتهم على الأشرطة الوراثة يستطيعون فصل أجزاء منها من خلية مخلوق ، ووصلها في أشرطة المخلوق الآخر.. هل وقعت على مغزى اللعبة الخطرة التي يلعبها العلماء في هذا الزمان ؟

ومع هذا ، فقد يحتاج ذلك لتوضيح أكثر.. فلنفرض أن لزيد من الناس بعض أشرطة مسجلة لموسيقى يهاها . أو أغان يعشقها ، ثم جاء عمرو ، وبدأ يقص هذه الشرائط إلى أجزاء . ثم يعيد وصلها بطريقة عشوائية لاتستقيم مع تنظيم المقاطع في الشرائط الأصلية . عندئذ سيكون لدينا أشرطة هجينة .. أى يختلط فيها الحابل بالنابل . وعندئذ لا يصبح لسماعها معنى .. وطبعي أن فصل الأشرطة ووصلها ليس أمرا صعبا . فكثيرا ماحدث لنا ذلك ، فقمنا بوصل ما انقطع بشريط لاصق .

نفس هذه الفكرة هي التي راودت عقول العلماء منذ بضع سنين . فما دامت كل المخلوقات تنشأ بصفاتهما من أشرطة وراثية ، فلماذا لا يبترون جزءا من شريط خلية القرد ، ويصلونها بأحد الأشرطة في خلية الإنسان أو الباذنجان أو الديك .. الخ .. الخ . فإذا قدر لها ودارت أو اشتغلت ، فإنها تعبر بصفتها الجديدة في خلية المخلوق الذى نقلت إليه .

إنها - إذن - عملية خطيرة . أخطر بكثير جدا من فصل شرائطنا ووصلها حيثما اتفق ، لتخرج نشازا ، لا ألحانا . لكن فصل أو وصل شرائط التسجيل المعروفة ليس تدخلا في طبيعة الكائن الحي .

وهل يمكن أن يشتغل جزء من شريط وراثي لأسد أو ثعبان ضمن الأشرطة التي تتحكم في صفات الإنسان أو الباذنجان ؟ وهل ينفع ذلك حقا في إنتاج سلالة تحمل صفات من هنا أو ذاك ؟ .. نعم .. فبعض التجارب الحالية قد أوضحت ذلك .

ففي فبراير من عام ١٩٧٥ انعقد أخطر مؤتمر عالمي في آسيلومار بكاليفورنيا ، لمناقشة هذا الموضوع المفرع ، لا على مستوى العلماء ، بل حضره أيضا ممثلون من المفكرين ورجال الإعلام والحكومات . وكانت المناقشات ساخنة . والأعصاب متوترة ، والأخطار على المؤتمر جاثمة .. البعض حبذ استمرار هذه البحوث ، وأوضح أن نتائجها الطبية تفوق أضعافا مضاعفة نتائجها السيئة . ثم إنه من الممكن تجنب سيئات تلك البحوث بوضع « بروتوكول » خاص يلتزم به العلماء ، ويوجههم لاتخاذ كل الاحتياطات اللازمة والمنضبطة . وألا تجرى هذه البحوث إلا في معامل خاصة ومتقدمة ، وأن تكون مزودة بتصميمات تمنع تسرب أية خلية من ذلك النوع الذى يجرى

عليه التغيير والتبديل في جهازها الوراثي ، إذ لا يعلم إلا الله ما يمكن أن تجره هذه المخلوقات « المعدلة » من مصائب على الجنس البشرى . وربما تؤدي إلى وباء يكتسح أحياء هذا الكوكب ، فلا يبقى فيهم ولا يذر .

لكن بعض العلماء اعتبروا تحديد بحوثهم . وفرض الرقابة عليهم . أو تعيين أوصياء على تجاربهم أو أفكارهم . ثم مراقبتهم والحد من طموحهم ، إنما هي نكسة على العلم ، وعودة به إلى الوراء .. تماما مثلما حدث عندما كان رجال الكنيسة في أوروبا يقفون بالمرصاد للعلم والعلماء في القرون الماضية ، لكن العلم استطاع أن يفلت من قبضتهم . وينطلق في طريقه لايلوى على شيء .. ولقد فعل العلماء الآن نفس الشيء . إذ اعتبروا أن تدخل أناس ليس العلم من اختصاصهم شيء يسمى إلى العلم والعلماء .. من ذلك مثلا أن « ألفريد فيلوشى » عمدة مدينة كمبريدج الأمريكية وقف في اجتماع عقد قبل ذلك بسنوات ، محذرا ومنددا باللعبة الخطرة التي يقوم بها العلماء في جامعة هارفارد الشهيرة ، والتي تقع في اختصاصه . وهى واحدة من الجامعات القليلة التي كان لها السبق في بحوث عمليات الخلط بين مكونات الخلايا من الأنواع المختلفة للكائنات . وكأنما العمدة يخشى على مدينته من وباء مدمر قد يخرج من معامل العلماء يوما . ولهذا يلوح مهدداً وقائلا « إن الله وحده يعرف ماذا يمكن أن يزحف علينا من هذه المعامل القريبة منا ، إذ قد يخرج منها وباء مدمر لا يستطيع أحد أن يجد له علاجا ، أو ربما ينطلق منها يوما « غول » رهيب .. ثم يتساءل العمدة فيلوشى بغضب : هل يسعى العلماء حقا إلى تحقيق حلم مؤلف رواية فرانكشتين الخيالية ، وجعلها حقيقة واقعة من خلال هذه البحوث التي يجب أن تذهب إلى الجحيم ؟»

لكن مما لاشك فيه أن فيلوشى كان يتدخل فيما لايعنيه . فهو أولا وأخيرا

لا يدرك المغزى العميق من هذه البحوث الهادفة ، لأنها - على أية حال - سوف تحدث تطورا هائلا في فهمنا للأسس البيولوجية العميقة . كما أنها قد تقودنا إلى تحقيق إنجازات لا يستطيع العقل البشرى الخالي أن يستوعب مغزاها ، أو يسبر أغوارها ، أو يتنبأ بمستقبلها وأهدافها .. لهذا فإن ذلك المجال لا يهم فيلوشى بقدر ما يهم العلماء .

ومن جانب آخر نرى واحدا مثل الدكتور فريد نيد هارديت رئيس قسم علم الكائنات الدقيقة (الميكروبيولوجيا) بجامعة ميتشيجان الأمريكية يعلق على هذا الموضوع بقوله : « بالنسبة لى ، وعلى قدر معلوماتى فى الكيفية التى يتم بها خلط مكونات الخلايا ، وإكسابها صفات جديدة ، ثم نموها وتكاثرها بما حملت ، يجعلنى دائما أتساءل : ما هى الحياة ؟ .. من أكون ؟ .. ما هو الكون ؟ .. ما هى طبيعة المدركات ؟ .. لى أرى نفسى قادرا على إدراك الإجابات التى تخصنى على مستوى الخلية ، وأستطيع أن أشارك فى صياغة الأسئلة والحصول على بعض الإجابات .. ولهذا فأنا محظوظ ، خاصة وأنا أمارس هذه اللعبة وأتمتع بها ، وهذه اللعبة (أى خلط وتغيير صفات الخلايا) . جزء من لعبة كبرى تتمثل فى سعى الإنسان ليدرك نفسه أكثر .. ثم لى سوف أزرعج إذا دخل أحد علىّ فى معملى وقال : إن بحوث وصل الأشرطة الوراثية سوف تؤدى إلى أخطار هائلة تفوق بكثير ما يتمخض عنها من معارف . وأن رأى المجتمع هو عدم تمويل مثل هذه البحوث .. لكن ستصينى صدمة حقيقية إذا دخل علىّ إنسان آخر ، وقال : « إننا لا نريد أن نعرف أو نتعلم شيئا أكثر من هنا عن الخلية ، وأن أهدافك الأساسية التى تريد تحقيقها هى شىء نبغضه .. كما أننا لا نريدك أن تعرف الكثير من النظم البيولوجية » . ويستطرد الدكتور نيد هارديت ليقول : إن انغماسنا فى العلم ، وانطلاقنا فيه مهما

كانت العقبات ، إنما يرجع أساسا لفضول الإنسان للكشف عن المجهول الذى بين أيدينا .

ثم تأتى واحدة مثل د . جون جودفيلد June Goodfield . وهى تشغل وظيفة أستاذ بجامعة روكفلر ، لتساءل فى كتاب لها عن الهندسة الوراثية والتلاعب بالحياة .. « هل للعلماء حق إلهى فى البحث عن الحقيقة ؟ .. وهل تنظيم البحوث من شأنهم وحدهم ؟ .. وما نصيب الشعوب فى معرفة مايجرى داخل المعامل ؟ .. وهل نحتاج إلى معايير لنضبط من خلالها المعرفة الموضوعية لكي نحكم بها على قيمة هذه الأهداف أو المغامرات ؟ .. وهل لأى إنسان هبة من حق الهى ليبحث عن الحقيقة فى أى اتجاه تسوقه إليه وتوجهه ؟ .. وهل هناك أشياء من الأفضل لنا ألا نعرفها ؟ .. ومسئولية من يكون ترشيد البحوث وانضباطها وتطبيقها ؟ .. وإذا كانت بعض التجارب محظورة ، فما هى العقوبات المناسبة التى توقع على المخالفين من العلماء ؟ .. وما هو دور السياسة ومدى تحكمها فى العلم إذا كان ذلك ضروريا ؟ .. وإذا مارست الدولة هذا الحق فى الانضباط . أفلا يعود بنا ذلك إلى أيام محاكم التفتيش فى القرون الماضية ؟ .. الخ .

والواقع أن كل هذه الضجة لها بالفعل مايررها .. صحيح أن الدول العربية قاطبة لم تسمع بها ، سوى نفر جد قليل منها . فثل هذه الأمور قد لاتهمها .. لكنها كانت وستكون أكثر إثارة من غزو الفضاء ، أو أية ثورة تكنولوجية أخرى . ولاشك أنها تدفعنا دفعا إلى التساؤل من جانبنا : ما هو مصير البحوث البيولوجية عامة ومستقبل الإنسان خاصة ؟ .. وهل ستهاوى أسرار الحياة أمام مطارق العلماء ، فيتحكمون فى إنتاج أو تخليق كائنات جديدة ؟ .. وما هى صفاتها ؟ .. وكيف ستتصرف معنا ؟ .. وهل يمكن حقا

التحكم في البرنامج الوراثي للإنسان وتطويره بسرعة إلى الأحسن ، ليتبمخض عن ذلك « سورمان » - أى إنسان أرق عقليا من الإنسان الحالى ؟ .. الخ .

الواقع أن اكتشاف سر أشرطة الحياة ، ثم إمكان « قص » جزء من شريط خلية فى كائن لإدخاله فى البروجرام الوراثى لخلية كائن آخر هو لب الموضوع وجوهه .. أى كأنما نحن قد زرنا شريطا فى شريط ، كما نزرع مثلا قلبا سليما لإنسان مات مكان قلب معطوب لإنسان حى ، أو كلية محل كلية .. الخ . وطبيعى أن تغيير الأعضاء البشرية ، واعتبارها بمثابة قطع غيار السيارات مثلا يعتبر من الانجازات الهامة جدا فى تاريخ العلوم الطبية والبيولوجية . ولقد جذب ذلك اهتمام الناس وحاز إعجابهم (أو أثار قنوطهم - لست أدرى) .. لكن هذا الانتصار الطبى فى زراعة الأعضاء (وهو ليس كاملا على أية حال) أمر يهيم الأفراد ، لا الأنواع . فالأفراد بالنسبة للحياة زائلون ، لكن النوع باق ، أى أن الحياة تضحى بالأفراد ، وتحافظ على الأنواع .. يموت البشر كل يوم بالملايين ، لكن من مات يعوض بنسل جديد . ولهذا يبقى النوع ذاته قائما لمئات الألوف أو الملايين وعشرات الملايين من السنين . لكن أن نغير ونبدل فى طبيعة النوع ذاته من خلال التلاعب فى أشرطته أو بروجرامه الوراثى ، فتلك أمور قد تصيب العقل أحيانا بالدوار . وربما تؤدى به إلى تلك التصورات الرديئة التى وردت فى أساطير الأقدمين ، الذين كانوا أحيانا يتخيلون وجود كائنات تجمع بين صفات بشرية وأخرى حيوانية ، وجسدوا ذلك فى تماثيل مازلنا نشهدها حتى اليوم على هيئة مخلوق نصفه العلوى مثلا على هيئة إنسان ، ونصفه السفلى على هيئة ثور ، أو رأسه رأس نسر ، وجسمه جسم إنسان ، أو قد يكون برأس إنسان وجسد أسد (أبو الهول مثلا) .

لكن البحوث العلمية الهادفة والصادقة لاتدخل في حسابها مثل هذه الأفكار الساذجة . لأن أشرطة الحياة كالكتب والأفكار . فهي تحمل في برنامجها الجيد والردىء . والعلماء يسعون دائما إلى اختيار البرنامج الجيد ، ليعبر عن نفسه في أشرطة الخلية التى نقل إليها ، فتظهر الصفة الحسنة فى المخلوق الناتج عن هذه الخلية الجديدة .. والإنسان الجديد الأخضر هو تجسيد لتلك العملية الخطرة . وهذا التنبؤ الغريب ليس - كما سبق أن ذكرنا - خيالا محضا . بل إن الحياة ذاتها قد قدمت لنا الطعم الذى يثير شهيتنا نحو تطبيقات بيولوجية قد لانحلم بها ، أو لانتصور مداها بعد عدة آلاف من السنين .. هذا ما لم تحدث كارثة غير متوقعة ، فتنسف الأرض بمن عليها نسفا . لكن ذلك على أية حال احتمال بعيد . فالشمس فى شبابه ، والأرض فى مدارها ، والطقس سيقى مثما هو عليه الآن - مع تغيرات بسيطة - لآلاف السنين . وهكذا تشير العلوم المتخصصة إلى ذلك .. أى أن أحدا من علماء الفلك أو الطبيعة الجوية ، أو الفيزياء الكونية لم يتنبأ بكارثة مروعة فى المستقبل القريب أو البعيد ، لكن الكارثة قد تأتى من الإنسان ذاته ، فأعدى أعداء الإنسان هو الإنسان ذاته .

لا جديد تحت الشمس :

لكن .. ما هو الطعم الذى قدمته لنا الحياة ، ليسيل له لعابنا ، ويفتح شهية العلماء على مثل هذه البحوث ؟

الواقع أنه طعم مثير ، لأن الخلايا ذاتها تقوم أحيانا باللعبة التى نتوق إليها .. فنحن مثلا لانستطيع أن نرى البرنامج الوراثى على أشرطةه ، أو فى جيناته ، وعليه فلا نستطيع أن نبتز منه أجزاء لنصلها مع أجزاء أخرى ، كما

نعمل مثلا مع قطعة من قماش لنصنع منها ثوبا ، أو كما نقص شريط التسجيل ونصل طرفيه بشريط لاصق .. ثم إن الشريط الوراثي أقل سمكا من سمك شعرة الرأس بآلاف المرات . أى أننا نتخبط فى تفاصيله كالعميان ، ثم إننا لانرى حتى نقص ونفصل ونطرز .. لكن الخلية تفعل كل هذا ، لأنها امتلكت « أدواتها الجراحية » التى تناسب عملها ، وبها تصلح شأنها ، وترمم ما يتصدع من مرافقها ، أى أن لها أيضا مشاكلها . ولقد عرف العلماء كل هذا ، وجمعه فى بحوث كثيرة ، ثم إنهم قد عزلوا هذه « الأدوات » من الخلايا ، ودرسوها فى الأنابيب والدوارق والأطباق ، بل واستطاعوا تقليد العملية أو العمليات التى تجرى فى الداخل . ومن هنا كان التغيير والتبديل فى الخلق الذى أفرغت أنباؤه البشر .

أى أننا لم نأت بشيء من عندنا ، ولم نبتكر ابتكارا يمكن أن ننسبه لأنفسنا .. بل كل شيء مسجل ومقدر فى الخلايا الحية . ولكى تستطيع أن توجه أو تتحكم فى مثل هذه العمليات ، فلا بد من العلم بأسرارها .

ثم إن الطبيعة ذاتها تقوم باللعبه . فإنتاج الطفرات أو السلالات الجديدة من الأنواع المختلفة من الكائنات عملية مستمرة . لكنها بطيئة غاية البطء فى الكائنات الراقية (مثل الحيوانات الثديية والنباتات الزهرية) . وهى أيضا تخضع لعوامل كثيرة - كيميائية وفيزيائية وبيولوجية ومناخية وماشابه ذلك . وهذه العوامل تتأثر فتتغير . ونحن نرى هذا التغيير فى الظاهر ، لكن الأساس كان فى الباطن .. نعى أن التغيير قد حدث فى البرنامج الوراثي ذاته ، فانعكس على تشكيل قد نراه بعيوننا ، أو هو مانسميه بالطفرة ، والطفرة أساسها تغير .

ومن الممكن كذلك أن يسرع العلماء بإحداث هذه الطفرات في النبات والحيوان والميكروبات بمعدلات أكبر مما يحدث في الطبيعة ، وذلك بتعريض خلاياها (وعلى الخصوص الخلايا الجنسية) لعوامل طبيعية وكيميائية وإشعاعية . فتغير بذلك في برنامجها الوراثي . وينعكس هذا التغير على صفات ظاهرة يمكن أن نراها واضحة في زهور النبات مثلا . أو في بعض الحشرات . وطبيعي أن العلماء يفعلون ذلك . لعلمهم أن الطفرة هي أساس التغير في المخلوقات وهي التي تدفعها إلى الأمام دائما في سلسلة من التطور الهادف ، ليتخطى بها الكائن أو الكائنات ظروفًا صعبة قد تتعرض لها . ولو لم تفعل لا انقرضت .

لكن الطفرات التي ينتجونها قد تكون سيئة ، وقد تكون حسنة . فأما الحسن منها فيبقون عليه . ويزيدون منه لصالح البشرية . وأما السيئ فيقضى على نفسه بنفسه ، لأنه لا يستطيع أن يواجه الحياة ..

ثم إن الطفرات نادرة في الكائنات الراقية ، لكنها شائعة في الكائنات الدقيقة مثل البكتيريا والفطريات والفيروسات . فمثل هذه الكائنات تتكاثر بسرعة رهيبية ، وقد تنتج من الخلايا في يوم واحد ملايين الملايين ، أو لو أنها وجدت الظروف المناسبة ، والغذاء الوفير الذي لاتحده حدود ، لغطت سطح الكرة الأرضية كلها بطبقة متصلة غير منفصلة في غضون يومين اثنين ، أو ربما أقل .. المهم أن التغير قد يحدث في خلية واحدة من هذه البلايين ، ويحمل نسلها القادم صفة هذا التغير ، ويحفظ به ، وقد يظهر على هيئة صيغ أجمر أو أخضر أو أزرق .. الخ ، تماما كالذي تحدثنا عنه . والصيغ لا ينشأ من فراغ . لأنه مادة كيميائية تجهزها كل خلية من هذه الطفرة . ومن وراء تلك

المادة خطة جديدة ظهرت في برنامج الخلية الوراثي . وعبرت عن نفسها بظاهرة جديدة تترأى لعيوننا .

والحديث في هذا الموضوع متشعب وطويل ومثير . ونحن لم نذكره هنا من قبيل تحصيل الحاصل . بل إن ذلك يضع أيدينا على حصيلة ضخمة من أسرار الحياة ذاتها .. فالإنسان لا يطفر ولا يتغير فجأة كما يحدث في الميكروبات لكنه مع ذلك يحمل بذور الطفرة .. فالخلية السرطانية ذاتها طفرة سيئة . والورم السرطاني المدمر ينشأ من خلية واحدة في جسم يحتوي على حوالى مائة مليون مليون خلية .. أى أن مبدأ الطفرة أو التغير الجيني موجود في خلايا الإنسان ، كما هو موجود في عالم الميكروبات ، أو ما بين ذلك من مخلوقات . ونسبة التغير تكاد تكون واحدة في كل الكائنات ، أى خلية واحدة بين عدد هائل من الخلايا . وكلما تقدم العمر بالإنسان ، زادت فيه نسبة الطفرة الخلوية . حتى لقد قدر بعض العلماء أن حوالى مليون خلية تطفر أو تتغير في أجسامنا كل يوم . ورغم أن هذا الرقم يبدو كبيرا ، إلا أنه في الواقع ليس كذلك . لأن مليون خلية بالنسبة لمائة مليون مليون خلية ، تعنى نسبة تصل إلى واحد في كل مائة مليون . أو بنسبة ٣٦٥٠ في كل مائة مليون بعد عشر سنوات مثلا . لكن حمدا لله أن هذه الطفرات ليست سيئة بسوء الطفرة السرطانية . ثم قد تكون الطفرة حسنة . لأنها تنشأ لتجابه أزمة أو موقفا صعبا من المواقف التي تتعرض لها الأنواع .. فالمضادات الحيوية مثلا سلاح جبار ضد الميكروبات المرضية أو المعدية ، لكنها مع ذلك لم تقض عليها قضاء مبرما ، وذلك بفضل مبدأ الطفرة .. إذ يكفي حدوث طفرة في خلية واحدة من كل مليون أو مليون مليون خلية ميكروبية ، وبها تغير ما بنفسها ، فتتموت البلايين ، وتبقى هي وطفرتها صامدة لهذا المضاد الحيوى أو ذاك .. إذن ،

فالظفرة هنا بالنسبة للميكروب حسنة ، لأن نوعه يتخطى بها أزمة ، لكنها بالنسبة للإنسان تشكل بؤسا ومرضا .

يعنى هذا أن الظفرة فيها النعمة ، وفيها النعمة .. فأما الأنواع التي أصابتها الطفرات الحسنة ، فقد صمدت وشقت في الحياة طريقها . وأما التي بها سوء ، فآل نوعها إلى الانقراض . لكن ظهور الحسنة وتطوره إلى الأرق دائما يستلزم ملايين وعشرات ومئات الملايين من السنين .. أى أن التغير هنا تطور ، والتطور تجدد ، والتجدد يتمخض - على المدى الطويل جدا - عن أنواع أرق ، وصفات أحسن . وهذه سنة الله في خلقه « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

والموضوع بعد ذلك طويل جدا ، وللعلماء فيه صولات وجولات وعمق في المعرفة والتحصيل . وطبيعي أن العمدة ييلوشى أو غيره ممن حضروا هذه المؤتمرات ، كانوا لا يدركون شيئا عن هذه الانجازات . بل كانوا يناقشون على غير علم ولا هدى . والعلماء في حل من الشرح والتوضيح لتلك الأسرار التي لا يكتوى بناها غيرهم . ثم ما أكثر هومهم ، وما أشد غرقهم في بحار من المعرفة ليس لها من قرار .

كأنما التاريخ يعيد نفسه في هذا المجال ، إذ تحضرنا في هذه المناسبة مسألة انعقاد الجمعية البريطانية لتقدم العلوم في عام ١٨٦٠ بلندن ، لتناقش نظرية داروين عن أصل الأنواع . وامتألت القاعة عن آخرها بحشد من الناس لم يشهده أحد من قبل . وسبب ذلك أن راعى كنييسة اكسفورد الأسقف صمويل ويلبر فورس قد أعلن أنه سيحضر هذا الاجتماع ليسحق داروين (ولم يكن داروين موجودا في هذا الاجتماع) . وبدأ الأسقف يهاجم الرجل - أى

داروين - هجوما عنيفا . وبعد نصف ساعة من الهجوم والتناول وتسفيه النظرية ، التفت إلى توماس هكسلي (وكان أكثر العلماء مساندة لداروين) ، وأشار إليه قائلا بتحد وسخرية « هل عن طريق جدته لأبيه أو جدته لأمه يدعى هكسلي أنه ينتسب لقرد » ؟ .

همس هكسلي بإذن صديق كان يجلس بجواره ، وقال - وهو في عنفوان غضبه المكبوت - « لقد أوقعه الله بين يدي » .. وقفز بين الصفوف كالنمر المتوحش ، واعتلى المنصة ، وأخذ يدافع عن داروين ونظريته دفاعا علميا رصينا ، ويفند آراء الأسقف الخاطئة عن علم . ثم قال - وهو في قمة انفعاله مخاطبا الجمهور المحتشدة - « إنه لا يشعر بأى عار لانتسابه لقرد ، لكن العار كل العار أن ينتسب لرجل لامع يقحم نفسه في مسائل لا يفقه فيها شيئا » . وطبيعي أن الحاضرين قد أدركوا مغزى قوله ، فهو - بطريقة أخرى - يفضل أن يكون انتسابه لقرد ، ويستحي أن ينتسب لهذا الرجل الذى أثبت بتصرفه هذا أنه أقل من القروء .

وعند هذا الحد هاجت القاعة وماجت ، وانطلقت الشتائم ، وتكهرب الجو ، وكادت أن تحدث كارثة بين مؤيدي داروين ومعارضيه .. لكن كل هذا قد يهون بالنسبة لما يحدث في معامل العلماء هذه الأيام . فالأمر لا يتعلق بنظرية تطور ، ولا أصل أنواع ، ولا انتساب لقروء . بل إن الأمر يتعلق بمستقبل الإنسان نفسه على هذا الكوكب .. فهل من حق العلماء وحدهم أن يقرروا ذلك ؟

الواقع أن العلماء بشر أولا وأخيرا ، وذوو معرفة متخصصة قد لا تتأني

لغيرهم . وهم يمتقنون الوصاية عليهم ، لأنهم يعرفون هدفهم تماما ..
والهدف - في رأينا - تعمير لا تخريب .

فلكى تهزم عدوك في ميدان العلم ، فإن « التحايل » على ذلك لا ينفع .
بل لا بد أن تدرس وتجمع وتحصل على قدر ما يتيسر لك من أسراره .. فمعظم
الأمراض القاتلة أصلها الخلية .. فالسرطان للإنسان « غول » رهيب . وهو
ينشأ من الخلية .. والأمراض الوراثية التي ليس لها من شفاء ناجح ، تنشأ أيضا
من خلل في جزء من بروجرام الخلية .. فهناك ملايين الضحايا الذين يعيشون
على أمل .. والأمل يتركز في فهمنا لما يجرى في الخلية .

وإنتاج السلالات الممتازة من المخلوقات يستلزم أيضا معرفة دقيقة بتفاصيل
البروجرام في الخلية . فكل مخلوق ينشأ حقا من خلية ، فإذا كانت النشأة
الأصلية - أى البروجرام الوراثي - سليمة وممتازة ، تمخضت عن تجسيد ممتاز
للمخلوق .. وعلماء تربية وإنتاج السلالات الممتازة من النبات والحيوان
يعتمدون في إنتاجهم على عمليات تهجين بين السلالات الممتازة من الذكور
والإناث . لكن العملية هنا بطيئة . وهى - على أية حال - أسرع من
العمليات الأبطأ التي تتم في الطبيعة ، وتخضع لعوامل شتى . لكن إن يكن
هناك عقل مفكر يحاول دائما أن يستفيد بما في جعبة الحياة من أسرار ،
ويطبقها التطبيق الأمثل ، فإن ذلك يؤدي حتما إلى اختصار عامل الزمن .

وليس هناك ما هو أفضل من انتقاء الجينات الممتازة الموزعة في
المخلوقات ، ثم زراعتها في خلية إنسان أو نبات أو حيوان ، لتحملها في
جهازها الوراثي . ثم رعاية تلك الخلية ومعاملتها بما لدى العلماء من إمكانيات
علمية متطورة ، لتتحول إلى خلية جنينية ، تنقسم وتتكاثر وتشكل لتتمخض

في النهاية عن المخلوق «المفصل» حسب الطلب .

تقول الدكتورة جون جودفيلد : إن الهدف الذي يسعى إليه معظم العلماء هو الفهم المجرد ، كما أنهم يعتبرون أنفسهم بمثابة الأوصياء على تقاليد حضارية متألفة على جبين البشرية . لكن الناس العاديين الذين قد ينساقون لاتخاذ قرارات في تقييم هذه البحوث ، تجدهم في الغالب سوف ينظرون إليها نظرة سطحية غير موضوعية .. كل ما يهمهم معرفته هو القيمة العملية والنتائج المترتبة عليها .. إن الفائدة التي تشير إليها هذه البحوث قد تبدو مشيدة على الافتراض ، لكنها تمثل هدفا حقيقيا لصالح المجتمع البشرى .. ثم تستطرد قائلة « عندما سألت الدكتور فريد نيدهاردت أن يلخص لي النتائج العملية المتوقعة من التحام أشرطة الأحماض النووية (أى الأشرطة الوراثية التي تحدد صفات المخلوقات) ، أجاب : إن كل ما يحتاجه هو قلم وورقة وعدة ساعات قليلة يركز فيها تفكيره . وعندئذ سوف يقدم قائمة تحتوى على حوالى أثنى بند من الأهداف التي يمكن تحقيقها في هذا المجال .. إن ذلك سيكون تدريبا منعشا للعقل ، في محاولة لتوقع ماسوف ينتج عندما نضع البروجرامات في الخلايا لكي تقوم بانتاج أشياء نحن نريد منها أن تصنعها لنا ، بدلا من تلك الأشياء التي اخترعتها عمليات التطور لها (أى للخلايا لتصنعها) .

إن هذا القول يحمل في طياته ثقة هائلة بالنفس قد تصل إلى حد الغرور .. إن نيدهاردت - كما سبق أن أشرنا - أستاذ ميكروبيولوجيا لامع في جامعة لها شأنها . ورغم أن تصريحاته تلك قد تصيب الناس العاديين بوجوم . إلا أنه يستند في كلامه على تطبيقات غريبة قد حققها العلم في عصرنا الحاضر ، وسوف نتعرض لبعضها في الفصل القادم .. ثم إن المعنى الكامن في

تصريحاته يعنى أن الإنسان سوف يتحكم فى الحياة ذاتها ، ويسخر برامجها لحسابه .

ومع ذلك ، فلا بد أن تنهأ العقول الحالية للقنبلة أو القنابل البيولوجية التى سيفجرها العلماء ، وسيكون صداها أغرب مما نتصور . ولن يقتنع الناس بالكلام أو التصريحات أو التنبؤات التى سيعملها لنا المستقبل ، ويصبح التغيير فى برامج الكائنات الحية هو القاسم المشترك الأعظم فى البحوث البيولوجية عامة ، وهندسة الوراثة خاصة .. لن يقتنع الناس بكل هذا ، لأنه مازال فوق مداركهم ، أو هو خارج عن الأمور المألوفة فى حياتهم .. لكن الاقتناع سوف يكون أمرا محتوما عندما يرون تجسيد هذه الأفكار والتنبؤات فى أهداف حقيقية يعيش فيها الناس ، وتصبح عندهم شيئا مألوفا .. إن البحوث البيولوجية ستكون أكثر إثارة ، وأعظم فائدة ، وأكبر أثرا فى حياة الناس من غزو الفضاء ، والتجول على القمر أو المريخ ، أو السفر إلى الكواكب الأخرى البعيدة .

« وإن غدا لناظره قريب » ..

الفصل الخامس
تغير صفات الكائنات ومؤشرات المستقبل

تغيير صفات الكائنات ومؤشرات المستقبل

بادئ ذي بدء ، دعنا نتساءل : هل من حق الإنسان أن يغير ويبدئ تكوينه الطبيعي؟ .. ثم ألا يعتبر ذلك تدخلا في عمل الطبيعة؟
ليس ذلك تماما .. وإلا أصبحنا كمن يقول : « إن المرض جزء نوااميس الطبيعة » وعلى ذلك فإن التدخل في علاجه إنما هو تدخل في النوااميس .

وطبيعي أن ذلك قول لا يقره دين ولا عقل ولا منطق .. ففي حـ للرسول الكريم معناه : « عباد الله تداووا ، فإن لكل داء دواء . إلا الهرة أى الشيخوخة .

وكما يمرض الإنسان ، ويطلب العلاج ، حتى لو كان علاجه به زراعة قلب سليم مكان قلبه المعطوب ، كذلك تمرض الخلية ، وقد تـ نفسها بما أفاء الله عليها من نعم خافية عن عيوننا ، أو قد يصلح العلماء أو مرضها مستخدمين في ذلك وسائلها هي لا وسائلهم هم . وكل ما يستطـ استخدامه هو عقولهم ومعرفتهم .

إذن .. فالمعرفة بالشيء لاتساوى الجهل به على أية حال .. ومرة أـ نذكرك بالآية الكريمة : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون

ثم إن العلم في أية صورة من صورته شيء جميل ومرغوب للعقول الواعية .. لا
اللاهية .. خاصة إذا كان هذا العلم يبحث فيما خلق الله. عندئذ تتجلى
عظمته ، ويتكشف إبداعه في نظم الحياة .. وهي نظم تبدو لنا كآيات أو
علامات دالة على أنه - سبحانه - أبداع « وخلق كل شيء فقدره تقديرا »
(الفرقان .. آية : ٢) .

إن أول كلمة نزلت على الرسول الكريم هي « اقرأ » .. وكذلك يقرأ
العلماء كما نقرأ . لكن لهم قراءات أخرى في أسرار الكون والحياة .. إنهم
مثلا يقرأون الخلية . لأن الخلية بمثابة كتاب مكتوب . وهم يترجمون لغتها
التي أودعها الله فيها ، ويحولونها إلى لغة تناسب عقولهم وعقولنا ، لأن الحياة
اتخذت لها شفرات خاصة لتسجل بها لغتها . ولقد عرفنا سر هذه الشفرات ،
وحصلنا على كم هائل من المعلومات ، ومع ذلك فما زلنا أمام هذه اللغة بمثابة
أطفال أو تلاميذ صغار يلعبون على شاطئ بحر المعرفة العميق أو كما يضعها لنا
ألبرت اينشتاين في صيغة أخرى وهو يتحدث عن الكون الكبير « إن العقل
البشرى لا يستطيع أن يدرك الكون ، وهو بالنسبة لهذا الكون بمثابة طفل صغير
يدخل مكتبة ضخمة بها كتب مرصوفة تغطي كل حوائطها من أرضيتها حتى
سقفها . إن الطفل لاشك يعرف أن هناك من كتب هذه الكتب ، لكنه
لا يعرف كتبها ولا كيف كتبها .. كما أنه لا يدرك اللغات التي كتبت بها ، لكن
الطفل يلاحظ - من طريقة تنظيم هذه الكتب - أن هناك فكرة محددة من
وراء ذلك ، وهو لا يستطيع إدراك مغزى هذا النظام المخير الغامض » .

وطبيعي أن علماء الكون قد أدركوا بعض أسرارهم . ولاشك أن هذه
الأسرار قد أذهلتهم ، بحيث وقفوا أمامها كالأطفال .. وكذلك يكون علماء

الحياة مع الخلية .. إنها بين أيديهم دقيقة الحجم ، لكنها عظيمة الشأن .. أو هي بمثابة أكوان من داخل أكوان من داخل أكوان .. وهلم جرا .. أو أنها بمثابة المكتبة الهائلة المنظمة التي تصورها طفل ايشنتاين . فإذا ترجمنا مابداخل الخلية من أسرار ومعلومات ، ثم بدأنا قراءتها بلغتنا نحن ، فإن الإنسان لن ينتهى من قراءتها ليل نهار ، بداية من مولده حتى لحده ، ودون أن يلهيه عن ذلك شىء .. أى شىء .. فالأسرار أعمق وأغزر وأروع مما تتصوره عقول البشر . إذ ستكشف لهم حقائق مذهلة ، ونظم رائعة تدل على مدبر عظيم « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (طه .. آية ٥٠) .

ولاشك أن العلماء يعرفون أن جميع الكائنات قد جاءت على أساس لغة كيميائية محددة ، ذات مركبات كيميائية أربعة لاغير . وهذه ستعرض لها في حينها . ومع هذه البساطة الظاهرية ، تأتى المحلوقات إلى الحياة بأنواع لانستطيع لها حصرا ، فمن التباديل والتوافيق بين شفرة هذه اللغة في أشرطتها الوراثية ، تتحدد من البداية صفة كل كائن ونوع . وعندما تشتغل في الخلايا الحية ، تعبر عن نفسها ، وتظهر مجسدة في إنسان ونبات وحيوان وميكروب . والسؤال الذى يطرح نفسه الآن : هل من الممكن أن يقوم العلماء بتخليق كائن جديد له صفات غير معروفة على هذا الكوكب ؟ .. أو لنطرح السؤال بصيغة أخرى أخف وطأة : هل يمكن حقا نقل جزء من بروجرام أو خطة خلية ، ونضعه في بروجرام خلية أخرى ، لتنتج لنا طفرة أو طفرات جديدة بتوجيه من العلماء ، لابتوجيه من الطبيعة ؟

إن تساؤلنا هذا قد أخذنا فيه جانب الحيطة والحذر . ولاشك أنه يختلف عن أسئلة أخرى يطرحها بعض العلماء بين جدران المعامل . خذ على سبيل

المثال هذا التساؤل الذى طرحته د. نورين موراي العالمة البريطانية فى علم هندسة الوراثة ، إذ نراها تعبر عن نفسها بقولها : إننى بطبيعة الحال مازلت أتكهن بما ستمخض عنه تجاربي .. هل ستنفع ؟.. هل قت بتصميمها وتجهيزها على الوجه الأكمل ؟.. لكننى أستطيع أن أتكهن أحيانا بأنواع الحياة التى أستطيع تخليقها ! .

ولاشك أن التعبير الأخير مثير للنفس والعقل ، ومعناه - فى الواقع - أنها تنقل صفة أو أكثر من كائن ، لتضعها فى كائن آخر . وهذا - فى حد ذاته - معنى التخليق أو تقليد نظام قائم .. وهو فى ذلك أشبه بإنسان سيموت حتما بقلبه الذى توقف ، فإذا زرع قلب طبيعى أو صناعى مكان قلبه الميت ، واستمر بعد ذلك فى الحياة ، فهنا لايعنى أننا قد وهبناه حياة . بل يعنى فقط تغيير جزء معطوب بجزء آخر سليم . مثله فى ذلك كممثل تغيير الأجزاء المكسورة والتالفة فى آلة بأجزاء سليمة . وعلى نفس الوتيرة نقول : إن نقل البرامج بين خلايا الأنواع المختلفة ، ثم ما يتمخض عن ذلك من صفات جديدة لم تكن معروفة من قبل على الأرض فى هذه الكائنات أو السلالات .. هذا النقل ليس خلقا .. بل تخليق أو تقليد .. والفرق كبير جدا بين التعبيرين .

لكن هذه التعبيرات قد تكون أخف وطأة من تعبيرات أخرى وردت أمام المحكمة العليا فى الولايات المتحدة منذ عامين (أى عام ١٩٧٩) ، وفيها دافع أحد العلماء عن نفسه وقال : إن « براءة اختراع » هذا الكائن من حقى ، فقد شاركت فى خلقه .

أى أننا بدأنا نسمع عن براءات اختراع للكائنات الحية ، أسوة بما يحدث فى براءات الاختراع التى لاشأن لها بأية صورة من صور الحياة ، كبراءة اختراع

موتور ، أو مصباح ، أو دائرة كهربية ، أو قلب ورثة وحجارة صناعية .. الخ . لكن أن نسمع عن أحد العلماء وقد تقدم لتسجيل براءة اختراع ميكروب معدل ، أو خلية مفصلة على هواه ، أو شريط وراثي جديد .. الخ .. الخ ، فيقال مثلا إن العالم الفلاني له حق براءة اختراع الكائن العالاني ، أو له حق بيعه أو استغلاله .. إن مثل هذه الأفكار والأقوال غريبة وجديدة على عقول هذا الزمان .

لقد قدمت مجلة « نيوزويك » (٢٤ مارس ١٩٨٠) قضية من هذا النوع . وفيها قام العالم الشاب بيتر سيبيرج Seeburg بالاستيلاء على ميكروب معدل شارك في تخليفه تحت إشراف البروفيسور جون باكستر بجامعة كاليفورنيا ، وقام بنقل هذا الكائن سرا إلى شركة دوائية تستخدم هندسة الوراثة في تصنيع العقاقير (اسمها جينتك ، وسوف نتعرض لبعض تفاصيلها في الباب القادم) . ولقد أغرته تلك الشركة بالانضمام إليها ، وبالفعل ذهب إليها كباحث ومعه الميكروب الجديد الذي يخص الجامعة . وكانت هذه بمثابة فضيحة أخلاقية أثارت جدلا بين العلماء ، وانتقلت بعد ذلك إلى القضاء ، لتضع مشرعي القانون في حيرة . فهذه أول قضية من نوعها تعرض على هيئة المحاكم . فنار السؤال : هل من حق الهيئات القضائية أن تقرر للطرازات الجديدة من الحياة براءات اختراع تحمل اسم العلماء ، أم أن البراءات ذاتها ترجع إلى الخالق ؟ .. ومع ذلك ، فلا بد من تشريع يحفظ الحقوق لأربابها ، فلا يعتدى أحد بالسرقة أو الاستغلال على حق عالم آخر شارك في هذا الاختراع .. وما زال الجدل قائما حتى الآن^(٥) . ليوضح لنا بدعة من بدع هذا الزمان .

() بعد أن انتهينا من كتابة هذا الكتاب . جاء في مجلة علمية بريطانية (New Scientist) أن =

نعود لنقول إن هذا التقليد أو التخليق أو « زراعة » البرنامج الوراثي ليس بالأمر السهل أو الهين . فهو يحتاج إلى فهم عميق ، وتكنيك أصيل ، وصبر يفوق صبر أيوب .. صحيح أن العلماء قد قاموا بتخليق البرنامج الذى يحدد صفات أحد الفيروسات فى أنابيب الاختبار ، وقاموا بتخليق جينة - أيضا فى أنابيب الاختبار - ثم زرعوها فى الجهاز الوراثي لخلية بكتيرية ، فاشتغلت وعبرت عن نفسها ، وانقسمت وتكاثرت خطوة بخطوة مع كل انقسام يتم فى ذريات الخلية ذاتها .. وصحيح أنهم سيطروا على عملية حيوية فى داخل خلية حية ودفعوها للعمل دفعا بعد أن زدوا برنامج هذه الخلية برسالة أو معلومة وراثية صناعية أو تخليقية . وصحيح أنهم زاوجوا بين خلية جسدية لإنسان مع خلية جسدية لنبات التبغ ، فاختلط برنامج هذه بتلك . وصحيح أنهم قاموا بتخليق خلية جديدة هجينة من خلية خميرة مع خلية دموية من كبتكوت (كرة دم حمراء بالتحديد) .. ونفس الشيء حدث - كما ذكرنا - بين خلية فأر وإنسان ، وبين قرد وإنسان .. لكن ذلك لم يسفر عن شيء ذى بال . ومع ذلك فلا يجب أن نغلق الباب ، بل إن مثل هذه البحوث مازالت فى بداياتها المتواضعة ، وقد تتممخض عن شيء فى المستقبل . وهذا يعنى أن الأفكار

= المحكمة العليا بالولايات المتحدة قد حكمت بأغلبية خمسة أصوات ضد أربعة . بأحقية العلماء فى تسجيل براءات اختراع الميكروبات . وبما جاء فى حيثيات الحكم « إن انتاج ميكروب جديد بصفات جديدة مميزة عن أى ميكروب آخر أنتجته الطبيعة . وبفرض استخدامه فى أغراض علمية وإنتاجية خاصة . يصبح ملكا لمن أنتجه . وله الحق فى تسجيله باسمه . لأنه من ابتكاره هو . لامن ابتكار الطبيعة » وتعلق المحلة على هذا الحكم بقولها : إن ذلك الحكم ربما يكون خطوة أولى . وقد يؤدى إلى صدور أحكام مماثلة فى المستقبل لتسجيل براءات اختراع لحيوانات أرقى . وربما يدخل فيها الإنسان أيضا . وهو ماسبق أن أشرنا إليه قبل ذلك عن إمكان انتاج سلالة بشرية بصفات جديدة مميزة فى المستقبل البعيد .

ستطور ، والتكنيك سيكون أدق وأفضل . وقد يؤدي ذلك إلى تخليق كائن لا يستطيع أحد أن يتنبأ بطبيعته ومواصفاته وسلوكه .. وعلى مثل هذه البحوث يعلق الدكتور أروين شارجاف بقوله : إن هذا هو سلوك الشيطان .. أى إن ما يمكن إنجازه ، فلا بد من إنجازه ... ترى ، على أى عصر من العصور الغربية نحن مقبلون ؟.

الواقع أن هذه البحوث تُجرى حاليا على الكائنات الدقيقة (ومعظمها على هيئة خلايا منفصلة عن بعضها) ، أو على خلايا جسمية معزولة من الإنسان أو الحيوان أو النبات ، لكن الأمر قد يتعدى ذلك إلى الإنسان نفسه .. إن بعض الناس مصابون بفرع لظنهم أن طموح العلماء قد يدفعهم - رغما عنهم - إلى تناول الإنسان نفسه ، وتحويله إلى حيوان تجارب ، ليبدلوا فيه ويغيروا .. ولو حدث ذلك لجلب على نفسه أخطارا لا قبل له بها - رغم أنه فى غنى عنها - ذلك أن الإنسان بوضعه الحالى لا يحتاج لتحسين .. وهو مقبول بصورته التى خلقه الله بها .. ثم أى طراز من التعديل والتحسين يسعى إليه العلماء ؟.

إن الناس لهم الظاهر ، والعلماء لهم الباطن .. فهم يعلمون أن الإنسان به أمراض لاتأتيه من خارجه ، بل من داخله .. من خلاياه نفسها .. وهذه تحتاج بالفعل إلى تعديل وإصلاح ، لأنها لو تركت على خطئها لأدت إلى كثير من الأمراض الوراثية .. فالأطفال الذين ينشأون متخلفين عقليا ، ومرض النزف الدموى حتى الموت ، وضمور خلايا المخ ، والأنيميا الوراثية ، وعمى الألوان ، والمهق (عدو الشمس) .. الخ ، تأتى تحت بند الأمراض الوراثية التى تنشأ قطعا من خلل فى جزء من البروجرام الوراثى أثناء تكوين الجنين ..

وكم ستكون سعادة الناس بالغة ، لو عرفوا أن هدف العلماء يتركز على هذا الاصلاح ، بحيث تأتى الأجيال فى المستقبل بدون عاهات عضوية أو عقلية أو فسيولوجية .. وهذا خير وفضل .

والأورام السرطانية ذاتها تنشأ أيضا من خطأ فى البرنامج الوراثى للخلية . وخير أن نعرف هذا الخطأ ونحدده ونصلحه . فهذا فضل من الله الذى « علم الإنسان ما لم يعلم » . ولكى يعلم الإنسان ، فلا بد من إجراء هذه البحوث .

أى أن العلماء لا يسعون هنا سعيهم من أجل إنتاج « فرانكشتين » جديد ، أو « كنج كنج » أو سوبرمان .. رغم أن فكرة السوبرمان - وإن كانت قد وردت فى بعض الروايات الخيالية - ليست فكرة فجأة .. فإذا يضير مثلا من منح الإنسان بعض صفات ممتازة ، ليصبح مخلوقا ممتازا فى فكره وعقله واستيعابه وابتكاره وسلوكه .. إلى آخر هذه الصفات الحميدة التى يتوق إليها كل إنسان .. أفلا يجب أحدها مثلا أن تكون له ذاكرة « من حديد » ، مع قوة فى البدن ، وصحة فى الجسد ، وكفاءة فى الأداء العقلى بالذات ؟..

الكل يرغب « فالؤمن القوى ، خير من المؤمن الضعيف » كما قال الرسول الكريم .. صحيح أن بعض المفسرين يشيرون إلى أن القوة المقصودة هى قوة الإيمان . لكن الإيمان لن يضار إذا مازودناه بقوة فى الصحة والأبدان .. فنجمع بذلك بين الحسينيين .. فهل فى ذلك عمل شيطانى ؟.. أم هو عمل إنسانى ؟.

فى نبات الدرّة بدأت بسيدة :

ذكرنا قبل ذلك أن اللعبة التى يلعبها العلماء الآن ليست جديدة تماما .. إنما الجديد أن العلماء يدرسون ويلاحظون ويسجلون ثم يتساءلون ويحيون ،

أو قد لا يأتهم الجواب إلا بعد سنوات أو أجيال .

في أواخر الأربعينيات من هذا القرن كانت د . باربرا ماكلتوك من قسم الوراثة بمعهد كارنيجي بواشنطن تقوم ببحث على نبات الذرة ، وبالتحديد على تلون حبوب النبات بألوان مختلفة على « كوز » الذرة ذاته فوجدت أن بعض الجينات أو المورثات تغلق وتفتح في أوقات غير محددة .. أى أن البرنامج الوراثي هنا يعبر عن نفسه بتكوين أصماغ تنتشر بنسب متفاوتة على الحبوب ، فتعطيها ألوانها المثيرة . وإعادة زراعة هذه الحبوب في أجيال متعاقبة . فأتضح لها أنها تتبع قوانين الوراثة المعروفة في الكائنات .. مثلها في ذلك كمثل إنسان أسمر تزوج من شقراء . وعند إنجاب عدد من الذرية . يكون من المحتمل وجود نسبة شقراء ونسبة سمراء ، وأخرى تجمع بين الصفتين .

نفس هذه البحوث كان يقوم بها قبل ذلك - في القرن التاسع عشر - يوهان مندل الذى أصبح فيما بعد الأب جرمجورى عندما التحق بأحد الأديرة . وأصبح راهبا . ثم قام وهو في الدير بأبحاث رائدة في هذا المجال . وفيها استطاع أن ينتج سلالات كثيرة من نباتات البازلاء ، عن طريق خلط تزواجي بين سلالات أو أنواع ذات صفات محددة . وظل سنين طويلة وهو يبحث ويسجل ويقتن آلاف النتائج التى حصل عليها ، وخرج من ذلك بنتيجة تقول : إن هذه الصفات التى نراها إنما هى ناتجة عن وحدات غامضة تنتقل بين أجيال النوع الواحد .. وطبعى أنه لم يقم بشرح نبات ، ولا عرف شيئا عن الكروموسومات ، ولا هو قد تصور وجود جينات .. وكل ما توصل إليه ببصيرته أن الصفات الوراثية لا بد ناشئة عن وحدات .. ولقد تبين فيما بعد أنه كان صادقا في نبوءته . فهذه الوحدات الوراثية هى الجينات .. ثم تبين بعد فترة أخرى طويلة أيضا أن الجينات ليست إلا بروجرامات محددة على

شريط وراثي . وأن كل جينة منها مسئولة بروجرامها عن اكساب الكائن الحي صفة محددة . فإذا تعطل برنامجها ، أو أصابه خطأ . امتنت الصفة عن الظهور ، أو قد تظهر بطريقة خاطئة لا نفع فيها ولا مآرب .

نعود الآن إلى باربرا ماكلتوك التي قادتنا إلى حقيقة جديدة تشير فيها إلى أن اللون والتبرقش في الحبوب (وأحياناً في أجزاء أخرى من النبات) يرجع إلى وجود جينات مميزة . أطلقت عليها اسم العناصر أو العوامل الضابطة أو الحاكمة Controlling elements . . وإن هذه العوامل (أي الجينات الحاكمة) تستطيع أن تغير مواقعها على كروموسومات خلايا نبات الذرة ، فتغير في الألوان وتبدل .. أو بمعنى أوضح يمكن اعتبار هذه الجينات بمثابة عصا المايسترو التي توجه الفرقة الموسيقية ، فتخفض ألحان . وترفع أخرى ، أو هي بمثابة مفتاح النور الأوتوماتيكي الذي يضيء ويطفى .. أو بمعنى علمي أدق نقول : إنها تتحرك بين الكروموسومات . فتدفع هذه الجينة لتشتغل ، وتلك لتتوقف . ومن حصيلة العمل والإيقاف تتمخض الجينات المختلفة عن أصباغ كيميائية مختلفة ، لتنتشر على الحبوب بطريقة عشوائية ، فتكسبها تبرقشها ، والعشوائية هنا تعني أن الجينات الضابطة لا تشتغل بانضباط في الزمان ولا في المكان .. ومن هنا كان عدم انضباط الألوان .. ولتتصور ذلك قد حدث في الإنسان . عندئذ سترى العجب .. سترى إنساناً مبرقشاً لكن حمداً لله أنه ما كان .

والغريب أن باربرا قد توصلت من تحليلها العميق للنتائج . ثم الفحوص الميكروسكوبية التي أجرتها على الكروموسومات بعد ذلك ، توصلت إلى نبوءة لم يعرها العلماء انتباهاً إلا بعد عشرين عاماً طوالاً .. لقد توقعت أن سبب

الاختلاف في ألوان الحبوب على النبات الواحد يرجع إلى أن تنظيم الجينات على الكروموسوم الواحد يبقى ثابتاً . فإذا جاءت الجينة الضابطة وحطت على تكوينه ، بدأت في عملية تنظيم جديدة .. أي أنها كانت تبتدئ الشريط الوراثي الطويل عند أجزاء محددة ، وكأنما هي كمن يقوم بتفنيط أوراق اللعب (الكوتشينة) .. ومن هنا « التفنيط » ، جاء تفنيط الألوان .

وما لاشك فيه أن هذه النبوءة كانت غامضة على عقول العلماء . وربما أيضا غامضة في عقل باربرا ذاتها.. فلقد أصبحت تلك النبوءة فيما بعد بمثابة المفتاح الذي فتح مغاليق الأسرار في بحوث الأشرطة الوراثية .. إذ بدأ علماء كثيرون في بداية الستينيات من هذا القرن في اكتشاف هذه الحقيقة بصورة أخرى في أحد أنواع البكتيريا الذي يعيش في أمعاء الإنسان والحيوان (البكتيريا القولونية .. أو بالتحديد بكتيرة اسمها ايشيريشيا كولاى *Escherichia coli*) .. ففي ثلاثة معامل مختلفة .. تتبع مدرسة الطب بجامعة تفتس Tufts ، وفي جامعة كولوني ، وجامعة كمبريدج ، وجد العلماء أن هذه السلالة من البكتيريا تظفر أو تغير بعض صفاتها بطريقة غير طرق الطفرة المعروفة . (ومن هذه الطرق تسليط الإشعاعات أو القيام بمعاملات كيميائية خاصة تؤثر على الشريط الوراثي للبكتيريا ، فتغيره بطريق يطول فيها الحديث ، ولن نتعرض لها هنا) .

المهم أن العلماء توصلوا إلى سر غريب .. فالشريط الوراثي الوحيد في هذه البكتيرة والذي يبلغ طوله مليمترًا واحدًا لا غير (عليه ٧ ملايين شفرة وراثية) ، لم يصبح هو نفس الشريط المعروف من زمن . بل تتداخل في تكوينه جزء من شريط آخر .. وليس سرا كبيراً أن نصل بشريط التسجيل

المعروف جزءًا من شريط آخر ، فهذا أمر سهل ومعروف .. لكن السر الأكبر
يكن في أشرطة الحياة .. لأن دخول « برنامج » حتى ولو كان صغيراً على
برنامج آخر ، لا شك فيه تغير لصفة من صفات الكائن ، حتى ولو كان ذلك
على مستوى كائن بكتيري لا يرى إلا بالميكروسكوب .

وبدون الدخول في التفاصيل ، يكفي أن نذكر أن العلماء قد وقعوا على
صيد غزير ، وفي وقت ليس بالطويل ، لأن البر المكتشف يلهب العلماء ،
ويدفعهم دفعاً إلى تقصى الحقيقة ، فتبرز أمامهم أسرار أعمق .. ففي الخلايا
البكتيرية توجد أشرطة وراثية مغلقة على نفسها . أى كأنما هى بمثابة ثعبان
يضع ذيله في فمه ، وليتخذ بعد ذلك من مزونة جسمه أى شكل يريد .. هذه
الأشرطة صغيرة جداً بالنسبة للشريط الوراثى الأساسى .. فإذا كان طول هذا
المليمتر واحداً ، فإن الشريط « الدائرى » لا يزيد محيطه عن ثلاثة أجزاء من
ألف جزء من المليمتر (أى لو قطعناه أيضاً وفردناه ، لكان نفس الطول) ..
هذه الأشرطة الصغيرة المغلقة على نفسها تعرف باسم البلازميدات
(Plasmids) . وهى تؤدي للخلايا البكتيرية بعض الخدمات ، منها مثلاً
القدرة على مقاومة المضادات الحيوية ، فتكسبها بذلك مناعة دائمة .. ولقد عزل
العلماء هذه البلازميدات بحالة نقية ، ودرسوا تكوينها ، فلم تختلف في الشفرات
عن شفرات الشريط الوراثى الأساسى .. لكن التنظيم الشفرى يختلف بطبيعة
الحال .. فالكتب كتب ، واللغة المكتوبة بها واحدة ، لكن المضمون مختلف .

ثم إن هناك « موديلات » أو طرازات من هذه البلازميدات المعزولة بحالة
نقية ، منها مثلاً بسك ١٠١ ، ب ش ت ، ب ف ل ... الخ . وليست
هذه رموزاً عويصة ، بل هى اختصار لأسماء العلماء الذين عزلوها واحتفظوا

بها . وهم على استعداد لإرساها لكل من يحتاج إليها في بحوث هندية الوراثة .. فالشفرة ب س ك ١٠١ ، تعنى بلازميدات ستانلى كوهين ، والرة للعبنة . وهو رائد من الرواد الأوائل في هذا الميدان ، ويشغل وظيفة أسة بكلية الطب بجامعة ستانفورد الأمريكية ، أما ب ش ت ، فتعنى بلازميد شارلى توماس ، ب ف ل بلازميدة فيل ليدر ... الخ (أى كأنما هى براءاد الاختراع التى سبق أن أشرنا إليها) . ونحن لاندرى إن كانت هذه العيناة مجاناً أو بالنقد . لكن الذى نعرفه أن ذلك بداية لتنبؤ جديد قد يحدث في المستقبل ، إذ قد يعزل العلماء « قطع غيار » وراثية ، على حسب الطلب وقد يصبح لها سوق ضخمة ، كأسواق الأدوية هذه الأيام . وقد تصبى مباحة للناس ، أو تستخدم تحت إشراف علماء الوراثة أو أطباء المستقبل . لكن ب س ك ، ب ش ت ... الخ ، بلازميدات خاصة ببحوث الخلايا . لا الأفراد .

إن الطفرات التى تحدث في الميكروبات فجأة - أى عن طريق غير الطرية « الشرعى » أو الطبيعى - إنما تحدث من خلال هذه البلازميدات . فهو الوسيط المناسب الذى يستطيع أن يحمل في تكوينه الدائرى جزءاً من شريه آخر غريب ، فتصبح البلازميدة أكبر محيطاً .

وهنا قد يطرح سؤال له مايرره : ألم نقل من قبل أن البلازميدة هو شريط وراثى مغلق على نفسه ؟ .. فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن أن نشبك بها شريطاً غريباً آخر ، وهى مازالت مغلقة ؟ .

وهذا صحيح .. إذ لا بد أولاً من قطع هذا الشريط شبه الدائرى ليصبح طرفاه عند منطقة القطع متحررين . وبهذا نستطيع أن نصل الشريط

الغريب من طرفيه بطرفى البلازميدة المتحررين .

لكن ليست الأمور هينة سهلة كهذا الكلام أو الوصف البسيط . فلقد استلزم ذلك تجنيد فرق كاملة من العلماء لتبحث أصول هذه العملية على مدى شهور طويلة ، أو ربما عدة سنوات ، وفيها اكتشف العلماء كثيرا من «الأدوات الجراحية» التي تستخدمها الخلايا في قص أشرطتها عموديا ومحيطيا ، ثم وضع الأطراف المقطوعة في ظروف ملائمة لكي تتقبل الأشرطة الغريبة ، وبعدها يتم الالتحام بأدوات بيولوجية أخرى .. أى أننا في الواقع أمام عملية جراحية معقدة .. لكن بدون دماء ولا تطهير ولا أربطة ولا أدوات جراحية كالتى نعرفها في عالمنا .. فالجراحة هنا تتم على أدق مستوى عرفه العلماء ، لأن كل ما يدخل فيها كيمياء في كيمياء .. أى أن الأشرطة الوراثية ليست في الحقبة إلا جزئيات كيميائية معقدة . والأدوات التى تقوم بقطع الشريط وتوضييه ووصله مع شريط آخر ليست بدورها إلا جزئيات كيميائية عملاقة من ذلك النوع المعروف باسم البروتينات ، أو بالتحديد عائلة خاصة من البروتينات تعرف باسم الحماثر أو الانزيمات التى تحتويها الكائنات الحية . وهى تقع في حدود عشرات الألوف من الأنواع ، وكل نوع منها متخصص في عملية واحدة لاغير . فالذى يهضم لنا أنواع الطعام المختلفة انزيمات مختلفة ، والهضم هنا ليس إلا عملية تقطيع في الجزئيات الكبيرة ، وتحويلها إلى جزئيات أصغر فأصغر ، حتى يمكن امتصاصها من الأمعاء ، لتسرى في الدماء . وفي الخلايا تقوم انزيمات أخرى ، لتبنى الصغير مع الصغير . ونحوه مرة أخرى إلى جزيء كبير يناسب حياة الخلية .. أى أن أنواع الانزيمات هنا بناء وهدامة .. وهذه معروفة من زمن طويل .

لكن الانزيمات التى تقوم بالتقطيع والوصل في أشرطة الحياة ذاتها ، إنما

هي صيد حديث عرفه العلماء في السنوات القليلة الماضية . فالذى يقطع البلازميدة انزيم متخصص ، لكنه ليس نوعاً واحداً كما ظن العلماء ، بل عدة أنواع ... إن أبسط مثال لتوضيح ذلك هو أدوات القطع عندنا .. فهنا الساطور والسكين والمشرط والمنتشار ... الخ . وكل يقطع ما هو مناسب له . فالساطور للعظام ، والسكين للحم أو الفاكهة ، والمشرط للعمليات الجراحية .. الخ . وكذلك كانت للبلازميدات المختلفة انزيمات مختلفة كذلك . فما ينفع مع هذا ، لا ينفع مع ذاك ، وهكذا كانت للجزيئات الكيميائية جزيئات أخرى تفصلها أو تشبكها . وهي في الأشرطة الوراثية للبلازميدات تسمى الأنزيمات القاصة أو القاطعة Restriction enzymes أى التى تفصل . أما التى تشبك أو تصل فتسمى خمائر الليجيز Ligase enzymes . وطبيعى أن هناك مركبات أخرى وسيطة تساعد هذه الأنزيمات وتوجهها فى عملها . وهذه لن نتعرض لها هنا ، فليس ذلك مجالها ، بل نترك هذه المعمة الكيميائية للعلماء الذين يتنافسون فيما بينهم ، ليكون لكل منهم السبق فى كشف أسرار الحياة المتداخلة . وليس أدل على ذلك من أن مجموعة الانزيمات التى تضمد أو تشبك الأجزاء المفصولة قد اكتشفت فى خمسة معامل مختلفة فى شهر واحد .

من ذلك وغيره يتضح لنا أن العلماء فى سعيهم لنقل الصفات الوراثية لم يخترعوا شيئاً من نبات أفكارهم ، بل إنهم فقط قد تعلموا من الحياة أسرارها ، وبدأوا فى تصميم تجارب هادفة وبوجهة ليحققوا بها لعبتهم المثيرة ، فأحرزت نجاحاً أثار مخاوف كثيرة .

الخطوة تشتغل فى الأنابيب :

وكما حقق طبيب وعالم فى انجلترا تنشئة بداية أول جنين فى أنبوب

الاختبار ، ثم زرعه بعد ذلك في رحم أمه . كذلك حقق العلماء هدفاً رائعاً آخر على مستوى الأشرطة الوراثية .. إذ قام فريق من العلماء من جامعة ستانفورد ، وفريق آخر من جامعة كاليفورنيا بعزل بلازميدتين مختلفتين من البكتيريا القولونية بحالة نقية . ثم وضعتا في أنابيب الاختبار ، وأضيف إليهما الأنزيمات القاصة والأنزيمات الضامة (أو المضمدة أو اللاصقة أو الشابكة أو أى لفظ آخر قد يكون مناسباً) ، ومركبات وسيطة مساعدة . وبدأت العملية تشتغل دون أن يشهد أحد بعينه شيئاً مما يجرى في الخفاء . فنحن نتعامل مع جزيئات جد دقيقة ، أى أنها لا ترى إلا بالميكروسكوب الأليكترونى ، وبصعوبة بالغة .. لكن العبرة هنا بالنتائج .. ولقد تمخضت النتائج عن بلازميدة واحدة كبيرة ، بدلا من اثنتين صغيرتين . وهذا يعنى أن البلازميدتين قد انفصلتا ، ثم ارتبطتا في وحدة واحدة . وعندما نقلت هذه البلازميدة الهجين (أى أنها تجمع بين بروجرامين مختلفين لبلازميدتين) إلى الخلايا البكتيرية التي عزلت منها . تقبلتها قبولا حسنا ، وبدأ الجزء الهجين في التعبير عن نفسه بإنتاج مركبات وسيطة عزها العلماء ، ومنها عرفوا أنهم يسيرون على الطريق القويم .. ليس ذلك فحسب ، بل إن البلازميدة الهجينة قد بدأت تتكاثر بدورها عن طريق الانقسام ، أى كلما انقسمت الخلية إلى خليتين انقسمت هي أيضا إلى بلازميدتين هجيتين ، وانتقلت كل واحدة إلى الخلية الوليدة .

ثم بدأت خطوة أخرى أجراً ، إذ حاولت المجموعة نفسها من العلماء نقل جينة أو مورثة من كائن بكتيرى إلى كائن بكتيرى آخر لا يمت له بصلة (أى أنها من جنسين مختلفين) . ولقد تمت هذه المحاولة بنجاح ، وعبرت الجينة المنقولة عن نفسها في الكائن البكتيرى الذى تقبلها . وكلما انقسم هذا الكائن

إلى -علايا ، انقسمت الجينة معه وتكاثرت .. أى أنها منحت ذريته صفة وراثية مكتسبة لم يعرفها الآباء والأجداد منذ ملايين السنين .

ولقد اكتشف علماء الميكروبات والوراثة أن بعض الجينات الموجودة في بعض الطفرات المقاومة لبعض المضادات الحيوية (كالبنسيلين والأمبسيلين وغيرهما) - اكتشفوا أن هذه الجينات يمكن أن تنتقل من ميكروب إلى آخر ، فتعطى للذى انتقلت إليه صفة المناعة ضد هذا المضاد أو ذاك .. من ذلك مثلا أن البروفيسور سوسومو ميتسوهاشى وزملاءه من جامعة طوكيو لاحظوا أن جينة معينة تعطى أمرا بنحطة كيميائية مقدره ، لكى تطبع على مطابع الخلية - وهذه اسمها ريبوسومات كما سبق أن أوضحنا - بروتينا خاصا يقوم « بشطب » أو إيقاف مهمة المضاد الحيوى . وبهذا ينجو الميكروب بجلده من تدمير هذا السلاح البتار... ولقد حددوا موقع الجينة على إحدى البلازميدات ، وأوضحوا أنها يمكن أن تنتقل من البلازميدة إلى الشريط الوراثى الأساسى الذى يحدد كل صفات الميكروب (أى كروموسومه الوحيد الذى يطوى البروجرام الخاص بتشغيل كل عملياته الحيوية) .. أو يمكن أن تنتقل مع أحد الفيروسات التى تصيب الخلية ، ثم تنتقل ذرية الفيروس بما حملت إلى خلية أخرى ، فتكسبها المناعة ضد المضاد الحيوى .. أى أن شريط الفيروس الوراثى قد حمل أيضا في تكوينه جينة من جينات الميكروب . لهذا استخدمه العلماء كوسيلة لنقل الجينات من خلية إلى أخرى ، ليعطيها صفة جديدة لم تكن تعرفها هى وأجدادها . ثم ورثت هذه الصفة المنقولة إلى ذريتها .

ولهث العلماء وراء هذا الكشف المثير ، فتفتحت لهم آفاق جديدة . ووجدوا أن نقل الجينات المقاومة للمضادات الحيوية تتم في أماكن متفرقة على

كروموسوم الميكروب ذاته ، أو في بلازميداته ، وإن هناك عاملاً كيميائياً يقوم بنقل وإقحام تلك الجينات في مواقعها الجديدة . ولهذا أطلقوا عليه اسم « المحول أو الناقل » (ترانسبوزون Transposon) .. ولقد تمكن العلماء بوسائل علمية معقدة من تتبع مسار هذا الناقل والتدليل على وجوده بتجارب لإتقبل الشك . ليس هذا فحسب ، بل حددوا شفرته أو لغته التي يستطيع أن يتفاهم بها مع المواقع الوراثية على الكروموسوم أو البلازميدة ، ووجدوا أن حروف هذه اللغة في أحد طرفيه صورة عكسية للحروف الموجودة في الطرف الآخر.. ونود أن نذكر هنا أن جميع الكائنات الحية - بداية من الفيروس والميكروب حتى ننهي بالإنسان - تستخدم في بروجرامها الوراثي لغة موحدة مسجلة على أشرطة من « حروف » أو مركبات كيميائية أربعة هي أ ، ث ، ج ، س (وهذه الحروف اختصاراً لمركبات تسمى آدينين Adenine . وثايمين Thyminه وجوانين Guanine . وسيتوزين Cytosine . أخذنا الحرف الأول من كل كلمة من باب الاختصار ليس إلا) .. ومن خلال تتابع الملايين والبلايين من هذه الشفرة الوراثية وانتظامها في تكوينات شفرية أو كودية . تتحدد صفة كل كائن على هذا الكوكب إلا أن شرح هذا الموضوع قد يحتاج إلى مجلد كامل . لكننا اضطررنا للتعرض له هنا لنوضح أن « قراءة » بروجرام الكروموسومات أو البلازميدات أو الجينات أمر عويص تكتنفه أُلغاز ومناهات لا بد أن نبعد عنها قدر المستطاع . ونتركها لأربابها .

وطبيعي أن انعكاس الشفرة على طرفي الناقل له مايرره .. فكأتما هو في عالمه يستخدم شفرة وشفرة مضادة لأن « أ » تلبس في « ث » ، « ج » ترتبط دائماً مع « س » .. المهم أن العامل الناقل أو الترانسبوزون هو جينة

مهمتها أن تعطى أمرا لتصنيع خميرة أو انزيم ، (أطلقوا عليها اسم ترانسبوزيز Transposase) ، وهي - أى الخميرة - التى تتولى العمل .

اكتشف العلماء كذلك نقاط أو مواقع محددة على البروجرام أو الشريط الوراثى . وأطلقوا عليها اسم النقط الساخنة Hot spots .. وهى المواقع التى يشتغل عليها الانزيم الناقل للجينات .. اكتشف العلماء كذلك جينات تعطى أوامر لجينات أخرى مجاورة أو بعيدة عنها . ثم لو أننا ترجمنا هذه الأوامر الكيميائية بلغتنا ، لوجدناها هكذا : ابدأ من هنا .. توقف هنا .. اشتغل هنا .. ضع هنا .. الخ .. وهى معمعة تصيب العقل البشرى بالدوار . وهذا يوضح لنا بحق أننا نتعامل مع نظم مذهلة قدرت أعظم تقدير فى هذه الأكوان الصغيرة .. بداية من خلايا ميكروبية ، وانتهاء بخلايا بشرية .

هذا الزاد العلمى العظيم غذى عقول العلماء ، ووجههم فى بحوثهم الوجهة التى يستطيعون بها تقليد مايجرى فى الحياة من عمليات لا تكفيها مجلدات من فوق مجلدات .. إذ يكفى أن نشير هنا إلى فقرة كتبها جانيس دورمان فى مجلة العالم الجديد New Scientist بعدها الصادر فى ١٠ يناير ١٩٨٠ (وهى تشغل وظيفة باحثة فى تقييم الجدل الناشئ عن خلط شفرات الوراثة فى قسم البحوث العلمية العقلانية فى جامعة مانشستر) . تقول جانيس : «إن البحوث والمقالات والمناقشات التى تمت فى المؤتمرات والبرلمانات والحكومات عن خلط الجينات قد تولى جمعها تشارلز فيز ومعاونوه من معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا طوال السنوات الأربع الماضية ، وضمنها مكتبة المعهد ، بعد تصنيفها وتبويبها ، فشغلت فيه رفا طوله حوالى أربعة أمتار .. هذا

بجوار الأشرطة المسجلة (سماعى وفيديو) فى كل المؤتمرات التى ناقشت هذا الموضوع ، مما يدل على أننا مقبلون على جبل من المعلومات .

هذه الفقرة توضح أن العلماء يقفزون نحو المستقبل ففزات سريعة جدا وتبين على أى عصر مثير فى هذا المجال نحن مقبلون .

البحوث بعد ذلك كثيرة جدا ، ونقل الجينات من كائن إلى آخر يبشر بآفاق واسعة . ونحن لا نستطيع أن نتعرض لها هنا ، لكن يكفى أن نذكر أن تجربة خطيرة قد تمت ضمن هذه التجارب . وفيها استطاع فريق من العلماء أن ينقلوا جينة أو جينات من بعض الميكروبات المسببة للأمراض فى الإنسان أو الحيوان . ثم زرعوا هذه الجينات الممرضة فى البكتيريا القولونية ، (وهى تعيش دائما فى أمعائنا مسالمة) ، فاكسبت صفة وراثية تجعلها معدية أو مسببة للمرض الذى كان من صفة الميكروب الطبيعى المعدى .. أى أن الفرق بين ميكروب مسالم ، وآخر مشاغب ، يكمن فى جينة أو أكثر ، وأنه بالإمكان جعل المسالم مشاغبا ، والعكس أيضا صحيح .

ثم ينجح واحد من العلماء بعد ذلك فى عزل جينة من ميكروب يعيش فى أمعاء المواشى التى ترعى الأعشاب .. وهذه الجينة بالذات مسؤولة عن إصدار أمر وراثى ، لطبعه على هيئة خميرة أو أنزيم يهضم للمواشى سليلوز الأعشاب ، ويحولها إلى سكريات ، يستفيد بها الحيوان . ولولا هذه الجينة لما كانت هناك أبقار أو أغنام أو معيز أو أى حيوان آخر يعيش على سليلوز الأعشاب . فهذا السليلوز بالنسبة لها كالثويات والسكريات بالنسبة لنا . ونحن نستطيع بطبيعة الحال أن نعوض بعض السكريات بتناول اللحوم

والدهون .. لكن حيوان المراعى لا يأكل لحما ، بل يلتهم عشباً . والذى يهضم له العشب هو البكتيريا التى تعيش فى أمعائه حياة تكافلية ، أى حياة تقوم على تبادل المنفعة ، فهو- أى الحيوان- يعطيها درجة حرارة مناسبة ، وسليولوزا فى صورة ميسرة ، ويرد له الميكروب الجميل على هيئة سكريات يعتمد عليها اعتمادا حقيقيا .. وكل هذا يرجع إلى امتلاكه لتلك الجينة .

نعود لنقول إن الدكتور آناندا شاكر بارنى الذى يعمل فى معهد جنرال اليكتريك للبحوث والتنمية بنيويورك قد نجح - بعد سلسلة من التجارب الهادفة- فى عزل جينة الميكروب المسئولة عن هضم السليولوز فى أمعاء المواشى ، وزرعها فى البروجرام الوراثى للبكتيريا القولونية التى تعيش فى أمعائنا . وبعد أن تمت التجربة بنجاح ، تخوف من إمكان انتشار هذا الميكروب « المعدل » فى أمعاء البشر.. صحيح أنه سيقوم بهضم سليولوز الخضراوات التى نتناولها فى طعامنا ، ويحوّله إلى سكر ميسر للامتصاص من أمعائنا إلى دمائنا . لكن ذلك قد تكون له آثار جانبية لا يحمد عقبائها . ومن يدرى فإن هذا الميكروب المعدل قد يحدث لنا إسهالا مزمنا ، أو قد يؤدى إلى تكوين غازات كثيرة . وهذه قد تحدث انتفاخا ، ولا بد من التخلص منها أولاً بأول بطريقة فجأة لا نقرها فى مجتمعاتنا الشرقية .

« من أجل هذا » ، وكما يقول شاكر بارنى « وبدون أن أتحقق تجريبيا من ثبوت هذه الظنون ، قمت بتدمير هذا الكائن الجديد الذى بدأ ينقسم ويتكاثر (بجينته المزروعة التى انتقلت بدورها فى خلية الميكروب) حتى لا أتحمّل وزر أمر غير محمود العواقب » .

وفى تجربة أخرى اشترك فيها عدد كبير من الباحثين تحت إشراف ستة من

أكفأ علماء نقل الجينات وزرعها والسيطرة عليها ، ويتمون إلى عدة معاهد وجامعات أمريكية مشهود لها بالأصالة ، وعمق البحوث في هذا المجال . في هذه التجربة الرائدة قاموا بانتقاء عدة جينات مناسبة من نوع من الضفادع ، وأمكن إقحامها في البكتيريا القولونية ، فتقبلتها قبولاً حسناً . وانتشرت الجينات الحيوانية المزروعة في ذرية البكتيريا . وعبرت عن بروجرامها بإنتاج مركبات كيميائية (بعضها بروتينات) كالتى تنتجها الضفادع تماماً .

والتجارب بعد ذلك كثيرة ومتشعبة . وهى تشير من حيث المبدأ إلى إمكان نقل جينة أو عدة جينات من خلية أى كائن إلى خلية أى كائن آخر .. بداية من الإنسان إلى الميكروب .. صحيح أن الإنسان هو أرق المخلوقات بلا منازع ، وأن الميكروبات هى أذناها ، لكن الحدود الفاصلة بين الأرق والأدنى قد تهاوت .

من الإنسان إلى الميكروب :

لكن ، هل يمكن أن نعزل جينة من جسم إنسان ، ثم نزرعها في جسم ميكروب ، لتعبر الجينة المزروعة عن نفسها ؟

الواقع أن ذلك قد حدث بالفعل في حالتين .. مرة بطريق الصدفة ، ومرة بتوجيه من العلماء .. كيف ؟.

يذكر لنا كل من الدكتور سام سنجر ، وهنرى هيلجارد من جامعة كاليفورنيا في كتابها « بيولوجية البشر » المنشور منذ عامين أن الحالة الأولى قد اكتشفت بالصدفة في دماء العلماء الذين ظلوا يشتغلون في مجال الفيروسات

سنين طويلة ، إذ أثبتت التحاليل التي أجريت عليهم أن خلاياهم قد اكتسبت أنزيمًا جديدًا يعرف باسم أنزيم أرجينيز Arginase (وهو أنزيم متخصص لحمض أميني اسمه أرجينين ، وواحد من الأحماض الأمينية العشرين التي تتكون منها كل البروتينات في جميع الكائنات الحية .. أى كأنما هذه الأحماض بمثابة « ألف باء » البروتينات) .. والمعروف أن هذا الأنزيم لا يوجد في أجسامنا ، فمن أين جاء إذن ؟

الواقع أن هذا الأنزيم لا يمكن أن يتكون إلا ببروجرام وراثي . والذي يحمل البرنامج جينة خاصة ، وهذه الجينة توجد في البكتيريا .. فكيف انتقلت من البكتيريا إلى أجسام هؤلاء العلماء ؟

بطريق الصدفة أو المخاطة ، فقد تكون هذه الجينة موجودة في البرنامج الوراثي للفيروس ، أو قد تنتقل من البكتيريا لتصبح جزءًا من برنامج الفيروس . وفي كلتا الحالتين قد يندس هذا الفيروس - بطريق التلوث - في خلايا الإنسان ، ونعني به هنا العلماء الذين عاشوه في معاملهم سنين طويلة . وبطريقة مازالت غامضة ، انتقلت هذه الجينة من البرنامج الفيروسي لتصبح جزءًا من البرنامج الوراثي للإنسان . أضف إلى ذلك أن الجينة قد أفصحت عن وجودها بإفراز الأنزيم الذي أمكن التعرف عليه في عينات الدماء التي أخذت من العلماء .. أى أن آثارها تدل عليها ، لكن وجود هذه الجينة الغريبة لا يشكل مرضاً ولا خطراً على الحياة .

ونضيف هنا شيئاً لم يذكره سنجر وهيلجارد في هذا المجال .. فهناك دلائل علمية تشير إلى أن بعض الأورام السرطانية تسببها أنواع خاصة من الفيروسات . لكن الميكانيكية البيولوجية المسئلة عن تحويل الخلية « العاقلة »

المتزنة إلى خلية سرطانية مجنونة مدمرة ليست معروفة تماما .. إلا أن من المحتمل - وقد يكون رأينا هذا صوابا ، وقد يكون خطأ- أن جزءا من البرنامج الوراثي للفيروس (أو كله) قد يندس بين شريط أو عدة أشرطة حاملة للبروجرام الوراثي لخلية الإنسان ، وقد يؤدي هذا الخلط إلى فتح ملفات البرامج التي كانت « نائمة » ، فتشتغل على هواها دون ضابط أو رابط ، وتتحول إلى خلية همجية تنقسم وتتكاثر دون ما داع إلى ذلك ، فتؤدي إلى ورم سرطاني .. والتجربة العلمية هنا هي الحد الفاصل بين الخطأ والصواب .

نعود الآن إلى الحالة الثانية التي ذكرها كل من سنجر وهيلجارد في كتابهما ، إذ يذكران أن بعض الخلايا التي أصيبت بمرض وراثي يعرف باسم جالاكتوسيميا Galactosemia وهو من الأمراض التي تؤدي إلى تخلف عقلي حاد ، نتيجة لخطأ في جينة مسئولة عن إنتاج أنزيم يدخل في تحويل سكر الجالاكتوز إلى سكر الجلوكوز الذي يستفيد به الجسم استفادة مباشرة . وغياب هذا الأنزيم يعني تجمع سكر الجالاكتوز في الدم ، وما ينتج عنه من نواتج جانبية تؤدي إلى ضمور في النمو ، وتخلف في العقل ، وتضخم في الكبد .. الخ .

الجديد في هذا الموضوع أن الخلايا المريضة المعزولة والمزروعة في وسط غذائي خاص ، تستطيع أن تسترد قدرتها على إنتاج هذا الأنزيم (واسمه ج- ١ - ف ١ ت - اختصار لاسم طويل : جالاكتوز - ١ - فوسفات يوريديل ترانسفيراز - ١ - Galactose Phosphate uridyl transferase إذا كان يهيك أمره) إذا ما أصيبت بفيروس حامل لجينة عليها بروجرام تصنيع الأنزيم .

إن هذا يعنى بوضوح أن الخلايا البشرية تستطيع أن تضم إلى برنامجها بعض الجينات ، لتصبح جزءا من جهازها الوراثى . وبه تصلح ما أفسدته الأيام .. ويضيف سنجر وهيلجارد إلى ذلك نبوءة جديدة ، إذ يقولان : إن مضمون هذه التقارير (التي أشارا إليها وذكرناها) واضحة تماما .. فمن الممكن قبل مرور زمن طويل أن نعالج هذه الأمراض الإنسانية الناتجة من خطأ الأتريعات أو عدم تكوينها على الإطلاق (وهذا ينتج كما أشرنا إلى خطأ فى بروجرام الجينة أو الجينات المسئولة عن ذلك) .. والمعالجة تتم عن طريق إمداد الخلايا المريضة بفيروس أو فيروسات خاصة تحمل الجينات السليمة ، فتصبح جزءا من المخطط الوراثى ، وتعوض الإنسان عن جيناته المعطوبة .. ثم يضيفان إلى ذلك قولها : إن هذا سيحدث إذا استطاع علماء الوراثة أن يتحكموا فى تغيير الجينات المعطوبة أو الخاطئة بجينات سليمة .. لكن يجب أن يحدث ذلك على مستوى الخلايا الجنسية ، حتى ينشأ الجنين من البداية سليما .. لكن العلماء حتى الآن لم يطوروا هذا الموضوع ، لأنه حساس وخطير . ولا بد أولا من تدليل عقبات علمية كثيرة وعويصة قبل الاقدام على تعديل البرامج الوراثية للخلايا الجنسية .. ذلك أن أى خطأ حتى ولو كان طفيفا ، سينعكس بلا جدال على تكوين الجنين .

يعنى هذا أن إصلاح الجينات المعطوبة فى حاملها ، أو تعويضها جينات سليمة لايفيد إلا الفرد نفسه ، لأنها تنصب فقط على جزء من الخلايا الجسدية الذى حدث بها الخطأ ، فيعيش الإنسان دون معاناة . فى حين أن الخطأ الوراثى لايزال كامنا فى خلاياه الجنسية . وهذا يعنى أنه قد يورث أخطاءه لذريته ، أو كل ذرية تأتى من بعده .

تخفيف الرقابة على بحوث هندسة الوراثة :

ومنذ أن بدأت بحوث نقل الجينات تأخذ مجراها . وتؤتى بعض ثمارها . وتبشر بآمال عريضة .. وتفتح آفاقا واسعة تقودنا إلى تفهم أعمق لأسرار الحياة ، أخذ بعض العلماء يتخوفون من بعض النتائج التي قد تؤدي إليها مثل هذه اللعبة الخطرة في تعديل أو تبديل الجينات بين المخلوقات . خاصة عندما نجحت التجارب التي حول بها العلماء الكائنات الدقيقة المسالمة إلى كائنات ممرضة . إذ قد يغرى ذنب البعض على « تصميم » كائنات بكتيرية تحمل كل سوءات الأرض ، فينتج عن ذلك سلالات مدمرة لا تعرف أجهزة المناعة في أجسامنا عن أصولها شيئا ، فتدمرها تدميرا ، دون أن يستطيع أحد أن يفعل شيئا . أو قد تستخدم في الحروب البيولوجية ، فتصبح بذلك أشد خطرا من القنابل الذرية .

ومن الذين تخوفوا من مثل هذه البحوث الدكتور روبرت شينشاير Galactosemia رئيس قسم البيولوجيا بمعهد كاليفورنيا التكنولوجي .. إذ يذكر في أحد المؤتمرات التي عقدت لمناقشة هذا الموضوع « لقد وصلنا في عصرنا الحاضر إلى نقطة حاسمة في مسألة تطور الحياة على الأرض . ولهذا السبب فإنني أعتقد أنه يجب علينا أن نفكر طويلا وجديا في طبيعة عمليات التطور التي سنتدخل فيها عنوة من خلال هندسة الوراثة . وذلك قبل أن يجيق بنا - في غفلة منا - دمار رهيب .. إننا ندرك جميعا أن هناك عمليات خلط ناجحة بين جزيئات الوراثة في الفيروسات والبكتيريا ، وأن هذه الخطوات مازالت متواضعة بالنسبة لمستقبل سيكون فيه خلط الجينات بين النباتات المختلفة والحيوانات الفقارية واللافقارية - وبدون شك

أيضاً في الإنسان - أمراً محتوماً وجذاباً . إنني لست معترضاً على هذه البحوث ، بل إنني على يقين أن هناك نتائج باهرة سوف نحصل عليها في مجال هندسة الوراثة ، وأن بعض هذه النتائج ستكون ضرورية من أجل رفاهية كوكبنا . لكنني مازلت أرى جانباً آخر مظلماً من جراء هذه البحوث . لهذا فإن التحفظات التي وضعتها هيئة المعاهد القومية للصحة (في الولايات المتحدة) على تلك البحوث ليست كافية للحد منها ومن أخطارها التي تنجم عنها دون أن نعرف .

ويذهب شينشايمر إلى أبعد من ذلك ، ويشرح وجهة نظره ، فيذكر - ضمن ما يذكر - أن كل أنواع المخلوقات التي نراها الآن هي ثمرة حتمية لعمليات تطور طويلة جداً ، وبطيئة جداً . فلقد أخذت من عمر هذا الكوكب حوالي ثلاثة آلاف مليون عام لتضع كل مخلوق في مكانه . ولقد حافظت الطبيعة على المخزون الوراثي لكل نوع من الكائنات ، وحمته من التلوث أو « الدنس » أو الخلط مع المخزون الوراثي لأي نوع آخر (الواقع أنه لم يكن محققاً في ذلك ، لأن العلماء لاحظوا هذا الخلط ، ثم قلده ، كما سبق أن أوضحنا) .. ثم إن نشأة الأنواع وتطورها كانت تأتي هيئة لبنية ، وعلى خطوات جد بطيئة . ولقد كان للطبيعة وسائلها الفعالة والمعقدة لتأمين وتضمن عدم الخلط في المادة الوراثية بين الأنواع المختلفة (الواقع أن هذا الخلط كان موجوداً ، لكنه كان يحدث على فترات زمنية طويلة ، ويحدث عشوائياً - وعندما يسيطر عليه العلماء فإنه يؤدي إلى نتائج سريعة ومضمونة) .

ومن جهة أخرى كتبت الدكتورة ماكسين سنجر رئيسة قسم أنزيمات أو نخائر الأحماض النووية (جزيئات الوراثة) في المعهد القومي لبحوث السرطان بالولايات المتحدة دراسة عن هذا الموضوع الشائك في منتصف عام ١٩٧٧ ،

وتحت عنوان «العلماء وانضباط العلم» ، وجاء في هذه الدراسة «عندما كنت أشارك في رئاسة مؤتمر جوردون الخاص بالأحماض النووية في عام ١٩٧٣ ، قلت للملائي المجتمعين وقتذاك : إننا جميعا نتقاسم الجحاس والإعجاب بما ذكره الزميل المتحدث بالأمس ، عندما أشار إلى أن البحوث التي ألقيت في هذا المؤتمر سوف تسمح لنا بوصل أجزاء من الأشرطة الوراثية (وكانت هذه البحوث لم تبدأ بعد ، لكن بوادرها كانت قد بدأت تظهر وقتذاك) وإن هذا سيؤدي إلى نتائج مثيرة . وكان سبب تحمسننا أن تلك البحوث ستطور أولا معارفنا عن هذه الجزئيات المدهشة ، وعن بيولوجيتها المذهلة . ثم إنها ستقودنا ثانيا إلى استنباط وسائل هامة لكي نصلح الأمراض الوراثية التي تصيب الإنسان . ورغم ذلك كاث لا بد أن نكون مدركين أن مثل هذه التجارب سوف تثير العديد من القضايا الأخلاقية والعقائدية والاجتماعية نتيجة للأخطار المحتملة التي قد تتولد عنها . ولكوننا نحن -معشر العلماء- نقوم بهذه التجارب ، ولكوننا نعرف ماذا تعني ، كان من الواجب علينا نتحمل مسؤولياتنا في حماية جميع المشتغلين بهذه البحوث . بمن في ذلك العلماء الشبان والفنيون وعمال المعامل . ثم هي مسئوليتنا أيضا نحو الدولة . وعلينا أن نبدأ بها من الآن .

وفي أوروبا - على سبيل المثال - عقد أول مؤتمر في شهر أكتوبر عام ١٩٧٤ لمناقشة الاحتمالات التي قد تؤدي إليها بحوث هندسة الوراثة . وفي بداية افتتاح هذا المؤتمر وقف الدكتور ماكس برنستيل Birnstiel من معهد بحوث الجزئيات البيولوجية وقال محذرا ومنددا : إننا الآن نقف على حافة انفجار علمي في التحكم الجيني (أى في وحدات الوراثة) .

ولم يكن سبب عقد هذا المؤتمر في سويسرا أن دول أوروبا قد خاضت

هندسة الوراثة ، أو توصلت فيها إلى نتائج تدعو إلى المناقشة واقتراح و عمل للمستقبل . بل كان السبب هو تلك الزوبعة التي أثرت في الولاية المتحدة حول تلك البحوث . ولقد حضر هذا المؤتمر الأوربي بول بـ الأمريكي الذي تزعم بادئ الأمر فكرة بحوث هندسة الوراثة . لكنه تخم وتراجع . فكان أن هجر معمله طوال أشهرست . طاف فيها معظم مع العالم المتقدم ، داعيا إلى تقييم هذه البحوث على المستوى العالمى ، وليس مستوى الدول ، وضرورة اتخاذ قرارات حاسمة بشأنها . لكنه فوجئ بأن الم الأوربي لبحوث هندسة الوراثة لم يناقش الموضوع من جوانبه العلمية . انقلب على حد تعبير مجلة نيوساينتست New Scientist البريطانية مؤتمر أخلاقي عقائدى فلسفى . وكأتما مسائل العلم قد تحولت فيه إلى دعو دينية مثل فيها رجال العلم دور رجال الدين .

لقد أراد بيرج أن يلفت نظر أعضاء المؤتمر إلى أنهم لم يأتوا هناك لمنا موضوع عقائدى أخلاقي ، بقدر ما يتطلب ذلك مناقشة علمية للأخطار يمكن أن تتمخض عنها هذه البحوث . وأثرها على مستقبل الجنس البش خاصة . و حياة الكائنات الأخرى عامة .

ويعلق تشارلز وايزمان من معهد بحوث بيولوجيا الجزئيات الور بزبوربخ على ما جاء في إشارة بيرج ، ويذكر أن البحوث الأساسية هي تبحث دائما عن الحقائق ، وأن الحقائق ليس لها دلالة أو مفهوم أحنا وعقائدى . ثم إن الأخلاقيات - على حد قوله - تتغير بالظروف المحيطة بـ لكن الحقيقة لا تتغير . ثم إن مايجرى في هذه القاعة من مناقشات (ولقد حوالى ٢٥٪ من المشتركين فيها من غير العلماء) سوف يعطى انطبعا سيئا لـ الناس عن طبيعة هذه البحوث .

هذا ومما يذكر أن الحكومة السويسرية قد شطبت جزءا كبيرا من الميزانية التي خصصتها قبل ذلك لبحوث هندسة الوراثة . وذلك عندما تسرب إلى علمها أن مثل هذه البحوث تحمل بذور الشر للبشر . كما أن الحكومة الأمريكية أو الهيئات التي كانت تمويل معامل هندسة الوراثة بدأت بدورها بالتقتير في ميزانياتها .

ولقد تعمد البروفيسور هنرى هاريس العالم البريطانى الشهير فى جامعة أوكسفورد ألا يحضر هذا المؤتمر عندما علم - فى آخر الأمر - أن الصحافة والناس سوف يدسون أنوفهم فيه . وأنهم - أى الناس غير العلميين - قد لا يدركون أبعاد هذا الموضوع العويص ، وقد يشوهون ما يسمعون . أو قد يتدخلون فيما لا يعرفون ، مما قد يسبب ضياع الوقت والجهد ، ويعوق اتخاذ القرارات العلمية المناسبة . فمثل هذه المؤتمرات يجب أن تعقد أساسا ليتحدث فيها العلماء إلى العلماء . ولقد صدقت توقعات هاريس ، لأن المناقشات طالت وتفرعت وتمزقت دون التوصل إلى نتائج إيجابية لها وزنها .

ومما زاد الطين بلة ، أن أجهزة الإعلام كانت تتدخل فى هذه المؤتمرات . وكتبت عن آفاق هندسة الوراثة مقالات مثيرة ومتسعة ومغلقة بالخاوف والأخطار . وبها شحنت رجل الشارع . وهيات له المناخ لكى يطالب بأخذ رأيه فيما يجرى بين جدران المعامل . لأنه هو أولا وأخيرا دافع الضرائب التى تمويل هذه البحوث الخطرة .

والموضوع بعد ذلك طويل جدا . لكن فيما قدمنا الكفاية . وإلى هذا الحد قد يطرأ على الأذهان تساؤل : هل حدث حظر على تلك البحوث ؟ نعم .. حدث ، فقد وضعت تشريعات كثيرة لتحد من شأنها .. لكن

« كل ممنوع مرغوب » ، خاصة فيما يتصل بالمعرفة والبحث عن الحقيقة ، إذ بدأت بعض المعامل المتطورة في سباق جنونى للكشف عن الأسرار البديعة التي يتوق العلماء أشد التوق إلى معرفتها ، ملتزمين ببعض القيود التي فرضت عليهم فرضا . لكن هذه القيود قد تكسرت شيئا فشيئا ، خاصة بعد أن بدأت المخاوف والشكوك تتبخر ، إذ لم تظهر الأخطار التي كانت تخيم في العقول . ثم إن النتائج التي حصل عليها العلماء كانت مشجعة للغاية ، إذ تبين أن بحوث هندسة الوراثة هي أمل المستقبل لإنجازات كثيرة غير متوقعة . وهى - بلا شك - ستفيد البشرية إفادة قد لا يحلم بها علماء هذا الزمان . ولقد ظهرت بعض هذه البشائر في زماننا هذا . وبعد ذلك سينطلق العلماء مستقبلا إلى تحقيق أهداف أخطر ، وإنجازات أعظم . فكلما عرفوا أكثر ، تحكموا في الجينات أو المورثات بدرجات أتنز . وعندئذ يوجهونها الوجهة التي يرغبون فيها . ولهذا فعندما تحدثنا في فصل سابق عن إمكان نقل بعض جينات النبات إلى البروجرام الوراثة للإنسان ، وتحويله إلى إنسان جديد غير هذا الإنسان الرمام الذى يعيش على التهام كد أو إنتاج غيره من نبات وحيوان ، عندما كنا نتحدث عن ذلك ، لم يكن ذلك خيالا محضاً ، بل إن هذه الأسس العلمية التي قدمناها هنا يمكن أن تتحقق وأن تطبق في الإنسان مستقبلا . لكن بعد تطوير هندسة الوراثة تطورا مذهلا .

علينا إذن أن نفتح صفحة جديدة للإنجازات التي تحققت حديثا في هندسة الوراثة في باب آت مستقل ، وما يمكن أن تتمخض عنه من إنجازات قد يحققها علماء المستقبل .

الفصل السادس

ميكروب يحمل بعض مورثات البشر

ميكروب يحمل بعض مورثات البشر

منذ ثلاث سنوات فقط كان حلمًا يراود عقول العلماء .. لكن منذ شهور قليلة تحقق الحلم ، واشتغلت الفكرة في ميكروب يحمل خطة أو بروجراما وراثيا كان يشتغل في خلية من خلايا الإنسان .

لم يكن ذلك نصرا للعلماء بقدر ما هو نصر للبشرية - فيكرونا « المعدل » سوف يقف مع عشرات الملايين من سكان هذا الكوكب المصابين بداء السكر .. لقد أصبح الميكروب مصنعا دقيقا ليصنع لنا أنسولين الإنسان . ويمنحنا منه باليمين واليسار .

وقصة زراعة جينة من جينات الإنسان في ميكروب - لاشك - قصة مثيرة . وهي تتويج حقيق للبحوث الأكاديمية التي كانت تجرى من أجل المعرفة أو العلم بأصول أسرار الحياة . لكنها أصبحت الآن تطبيقًا - أى تكنولوجيا بيولوجية جديدة تمخضت عنها بحوث هندسة الوراثة . وسوف تدفع قصة هذا النجاح العلماء للخروج علينا مستقبلا بكل ما هو مثير ومدهش وغريب . فاداموا قد عرفوا أصول اللعبة وعركوها ، فلن يقف أى شىء حائلا بينهم وبين ما يريدون .

لهذا دعنا نبدأ القصة من أولها ، لنعرف على أى عصر نحن مقبلون .

إن الأنسولين هرمون من الهرمونات التي تتكون في أجسام الإنسان والحيوان . وهو من عائلة البروتينات ، لكنه بروتين من أواسط البروتينات . أى أنه ليس صغيرا ، وليس عملاقا كبروتين الهيموجلوبين مثلا الذى يوجد في كرات الدم الحمراء ، ويعطىها لونها الأحمر القانى المميز .

وهرمون الأنسولين هو الوسيط الكيميائى الذى ييسر للخلايا تمييزها من المواد السكرية التى تدور مع الدماء ، وفي غياب هذا الهرمون ، تصبح الخلايا :

كالعيس بالبيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول
يعنى هذا أن الخلايا لا تستطيع أن تحصل على السكر الذائب في الدم ، رغم أنه موجود حولها . مثلها في ذلك كمثل البعير الذى لا يستطيع أن يحصل على الماء المحمول فوق ظهره . وهذا من شأنه أن يحرم الخلايا من وقودها - أى السكر الذى تحرقه بمساعدة الأوكسيجين - وتحصل منه على الطاقة الكيميائية اللازمة لها في تشغيل مرافقها الدقيقة . وهذا العطش أو الجوع السكرى من شأنه أن يضعفها . ومن أجل هذا يصاب مرضى السكر بالهزال الذى تصاحبه نوبات من الغيبوبة .. هذا ما تم يسارع المريض بالعلاج . وعلاجه المتاح يتركز في الحصول على أنسولين من مصدر خارجى . والمصدر المتاح حتى الآن يتمثل في أنسولين المواشى أو الخنازير ، لكن هذه الأنواع من الأنسولين تختلف قليلا عن أنسولين البشر في حرفين أو ثلاثة . نعى في حامضين أمينيين أو ثلاثة .

ومن الغريب أن أجهزة المناعة في جسم الإنسان تستطيع أن ترصد هذا الأنسولين الغريب على أنه غريب بعد فترة زمنية تطول أو تقصر . أما كيف تعرف ذلك فلسنا نعرف ، إنما الذى نعرفه حقا أنه بعد سنة أو أكثر من

العلاج بأنسولين البقر مثلا ، يتممر الجسم لهذا الأنسولين ، ويقاومه أو يدمره ، ويفوت عليه مهمته التي جاء من أجلها . وكأنما الجسم الحى يفضل الموت على الحياة مع الغرباء ، حتى ولو كان ذلك جزئيا بروتينيا متوسطا كالأنسولين . ولابد والحال كذلك من تغيير مصدر الأنسولين ، والاستعاضة عنه بأنسولين التخزين أو الحروف أو الحصان أو البقر .. الخ .

إن ذلك يدفعنا برغمنا - وزيادة في التوضيح - إلى التعرض لتكوين جزىء الأنسولين بإختصار شديد .. إنه بروتين متوسط الحجم ، ويتكون من ٥١ حامضا أمينيا مجموعة في فقرتين أو سطرين .. سطر طويل نسبيا ويتكون من ٣٠ حامضا أمينيا ، وسطر قصير ، يتكون من ٢١ حامضا . أضف إلى ذلك أن السطرين أو الفقرتين متصلتان بروابط أليكترونية . والذي قرأ هذه « الجملة » البروتينية هو البروفيسور ف . سانجر ومعاونوه من جامعة كامبريدج ببريطانيا ، فاستحق على ذلك جائزة نوبل بجدارة .. وطبيعى أنه لا يستطيع أن يرى الأحماض الأمينية وهى تتراص بنظام لا تغيير فيه ولا تبديل . لكنه استمر عشر سنوات كاملة وهو يفك رموز الأنسولين بطرق مبتكرة وذكية وعويصة . ولهذا لن نتعرض لها هنا .. لقد فكك الجزىء إلى « حروفه » أو أحماضه الأمينية الـ ٥١ ، وعرف أنها ١٧ نوعا مختلفا (كحروف لغتنا مثلا) .. منها على سبيل المثال ٤ أحماض جلايسين ، و ٣ آلانين ، ٣ سيرين ، ٥ فالين .. الخ .. الخ . لكن كيف تتراص هذه الأحماض وتتنظم ، كما تنتظم الحروف هنا فى كلمات وجمل ليصبح لها معنى ؟ .. هذا هو السؤال العويص .. أضف إلى ذلك أن وضع حامض مكان حامض آخر قد يفقد جزىء الأنسولين وظيفته .

باعت ومبعوث:

بالاختصار نتساءل : كيف تراصت هذه الأحماض بمثل ذلك النظام الفريد؟.

إن هذا يرجع إلى البروجرام الوراثي الموجود في الجينة المسئولة عن تصنيع جزيئات الأنسولين .. والجينة واحدة من مائة ألف جينة متراسة بانتظام على أحد الكروموسومات الموجودة في نواة خلية الإنسان أو الحيوان .. وتصنيع الأنسولين يتم في « ساحة » الخلية - أى في السيتوبلازم الموجود حول النواة .. لكن الجينة لا تترك كروموسومها أو نواتها ، وتخرج إلى ساحة الخلية ، لتحول برنامجها الوراثي إلى أنسولين . بل تفعل ذلك عن طريق مبعوث يحمل خطتها ، وبها يخرج إلى الساحة . والمبعوث عبارة عن شريط وراثي من نوع آخر يعرف باسم الجزء الوراثي المبعوث أو الرسول (ح ر ن - الرسول - وهذه الحروف الثلاثة اختصار لاسم الجزء - حامض ريبونوكليك Ribonucleic acid - أخذنا الحرف الأول من كل كلمة من باب الاختصار ليس إلا) .. وهو يختلف قليلاً عن الجزء الوراثي الباعث الموجود في الجينة (ح د ن - الباعث - أى حامض دى أوكسى ريبونوكليك - Deoxyribonucleic acid - أيضا أخذنا الحرف الأول من مقاطع الكلمات) .. وطبيعى أن كل جينة من مائة ألف الجينة لها رسو لها الخاص الذى يختلف في الشفرة عن الرسل الأخرى .. وهذا يعنى أن كل جينة مكلفة بتصنيع بروتين أو أنزيم واحد .. فمائة ألف جينة تعنى مائة ألف مبعوث وتعنى مائة ألف بروتين مختلف .

المهم أن الجزء الوراثي الباعث ح د ن يطبع على « قلبه » نسخة أو نسخًا من مبعوثه ح ر ن الذى يحمل الشفرات الكيميائية الخاصة بصناعة

الأنسولين ويخرج بها إلى ساحة الخلية ، ثم يدخل مطابعتها (أى الريبوسومات التى سبق أن أشرنا إليها) . ومن خلال « تكنولوجيا » بيولوجية معقدة ودقيقة يتم التفاهم بين المبعوث والمطبعة ، فتتجمع الأحماض الأمينية وتتشابك بنظام خاص فى جزىء الأنسولين .

الموضوع طويل جدا ، ومعقد جدا ، واستنفد من عمر العلماء ربع قرن من الزمان ، ومازالوا يكتشفون حتى الآن نجراً من الأسرار . ولهذا فلنا عذرا فى عدم التعرض للتفاصيل هنا . لكن الذى يهمنا فى هذا الموضوع هو : كيف استطاع العلماء رصد الجينة المسئولة عن صناعة الأنسولين ؟ وكيف عزلوها من بين مائة ألف الجينة الأخرى الموجودة على كروموسومات نواة خلية الإنسان ؟

الواقع أن البحث عن لإبرة فى كومة من القش أسير بكثير من البحث عن تلك الجينة بين كومة من الجينات . فالإبرة - على الأقل - يمكن أن ترى بالعين المجردة . لكن الجينات لا ترى إلا من خلال الميكروسكوب ، وحتى لو رأيناها فستبدو كلها متشابهة .. إن مهمة البحث عن هذه الجينة وعزلها مهمة صعبة للغاية . ومع ذلك فإن واحدا من المشتغلين بزراع الجينات أو الأشرطة الوراثية للإنسان والحيوان فى خلايا الميكروبات يقدم لنا شرحا مبسطا عن الطرق الطويلة التى تستلزمها هذه الزراعة .. مع إغفاله طبعا تفصيلات معقدة قد لا يستوعبها القارئ غير المتخصص .

يقول الدكتور بيتر كارلسون رئيس قسم البيولوجيا بجامعة ميتشيجان الأمريكية : نبدأ التجربة بشراء حوالى عشرة جرامات من خلايا الإنسان (ولتكن فى تجربتنا هذه من البنكرياس الذى يفرز هرمون الأنسولين) من إحدى شركات الأدوية التى تقوم بمثل هذه البحوث ، ثم نزرعها فى وسط

غذائي مناسب ، ونستخرج منها الأشرطة الوراثية بطرق يطول شرحها . وبعد استخراجها تبدأ المشاكل العويصة في مجابتهنا . إذ أن ما حصلنا عليه يختوى على حوالى مليون جينة مختلفة (وفى هذا يختلف العلماء فى التقدير ، فمنهم من يذكر أن عدد الجينات الموجودة فى خلية من خلايا الإنسان تتراوح ما بين مائة ألف جينة كحد أدنى ، ومليون جينة كحد أقصى) .. ومن بين مليون الجينات نبحث عن جينة واحدة خاصة ببروجرام تصنيع الأنسولين .. لكننا لا نستطيع أن نجد وسيلة ميسرة لمعرفة هذه الجينة وعزلها من طوفان الجينات الكائن حولها .. إن الطريقة التى نستخدمها طريقة عشوائية . ولهذا نطلق عليها طريقة « الرصاصة الطائشة » .. بمعنى أننا نقوم بتقطيع أو بتر الأشرطة الوراثية حيثما اتفق ، فربما نحصل على جزء فيه الجينة المطلوب وصلها أو زرعها مع البلازميدات التى حصلنا عليها من الميكروبات (وهذه موجودة بحالة نقية وتعطى لمن يطلبها ، كما سبق أن أشرنا) .. إنها أغرب مغامرة نقوم بها ، إذ لا أحد يعرف ما يمكن أن تتمخض عنه هذه المغامرة من مكسب أو خسارة (وهو يعنى بذلك أن هناك ورقة رابحة من بين مليون ورقة . لكن ما هو رقم الورقة الرابحة ، لا أحد يعرفها) .

إن الذى يقوم بفصل هذه الأشرطة إلى قطع صغيرة ، ثم فتح البلازميدات الدائرية ، ثم وصل البلازميدات مع أجزاء الأشرطة المتبورة فرقة كاملة من الأنزيمات المتخصصة فى الفصل والقطع والوصل (وهذا ما سبق أن أشرنا إليه بشئ من التفصيل) .. ولولا أن الحياة قد وضعتها بين أيدينا لما حققنا شيئاً من هذه البحوث الرائعة .. إن بتر الأنزيمات فى البلازميدات وفى الأشرطة الوراثية للإنسان يتم بطريقة عجيبة .. فهى تبتراها فى مواقع محددة ، ثم تسير العملية بأنزيمات أخرى لتكشف حروف الشفرة الوراثية (وهى أربعة

كما ذكرنا - أ ، ث ، ج ، س . ودائماً مرتبطة مع ث .. ووج دائماً مرتبطة مع س ، بحيث يظهر الشريط وكأنما هو على هيئة سلم كيميائي ذى درجات كيميائية الذى تقدمه هنا للتوضيح لأن التصور فى مثل هذه الأسرار قد لا يفيد) .. حتى إذا اقترب شريط البلازميدة المتبور ، من الشريط المتبوز لخلية الإنسان ، تقابلت كل شفرة (أو حرف) مع الشفرة التى تناسبها (أى مرة أخرى أ مع ث : ووج مع س) .

إن كل أنبوبة تحوى آلاف من فوق آلاف من الأشرطة الجاهزة (أنبوبة بها بلازميدات ميكروية والأخرى بها أشرطة وراثية بشرية) من كل الأطوال الممكنة ، والحاملة لكل أنواع الجينات ذات البروجرامات المختلفة .. فإذا أضفنا محتويات هذه الأنبوبة إلى تلك ، فإن الناتج يشكل أمامنا متاهات عويصة .. فقد تلتحم بلازميدة مفتوحة مع بلازميدة أخرى ، لتصبح بلازميدة أكبر . وقد تلتحم بلازميدة مع جزء من الأشرطة الوراثية للإنسان ، أو قد تلتحم أجزاء من أشرطة الإنسان مع بعضها .. أى أن الوصل يتم اعتبارياً ، ولا حيلة لنا فى ذلك . وعندئذ نحصل على ملايين الاحتمالات .. واحتمال وحيد من بين هذه الملايين من فوق الملايين قد يودى إلى وصل جينة الأنسولين مع بلازميدة ، أو ربما جينة الأنسولين ومعها بضع جينات بشرية لها وظائف أخرى غير صناعة الأنسولين .. متاهات من فوق متاهات .. ولهذا يشبهها كارلسون بقوله : إن مثل ذلك كمثل من يطلب منك أن تذهب إلى ميدان التاييز فى مساء ليلة سبت حيث تجد وقتذاك حشداً كبيراً من البشر ، وعليك أن تتحضر من هذا الحشد إنساناً بعينه ، ودون أن تعرف شخصيته أو أوصافه . . وعليك أن تدور بين الجمع المحتشد وتفحص كل واحد منهم . لكن لا بد أن تكون لديك حاسة مثل الحاسة التى اشتهر بها شيرلوك هولمز .

(ربما كان التشبيه أفضل لو أننا تصورنا أن لدينا مليون ورقة من فئة الدولار أو الجنيه ، و« مفنطة » اعتباريا ، ثم طلبنا منك أن تسحب الورقة رقم ٦٥٤٥٧٢ دون أن تراها . فهل منا من يستطيع ذلك ؟ الواقع أن ذلك أمر فوق التصور . لأن احتمال سحب هذا الرقم بذاته هو احتمال واحد من بين مليون احتمال) .

المهم أن المحاولة تستحق كل ما يستطيعه العلماء من صبر وجهد وبذل وعطاء . لأن صيد الميكروب الذى حمل في تكوينه الوراثة جينة الأنسولين ، ثم هيا لها مطابعه ومبعوثيه لكي تطبع جزيئات هذا الهرمون الهام في حياة البشر (الواقع أن كل الكائنات الحية تقوم قيامتها على هذا الأساس - أى المطابع والمبعوثين - دون تفرقة بين ميكروب وإنسان) .. فإن هذا الميكروب « المعدل » يساوى بلغة التجارة أو الانتاج عشرات الملايين من الجنيهات أو الدولارات إذا أردت . هذا رغم أن الميكروب العادى لا ثمن له على الإطلاق ، لأنه يخرج مع فضلات الإنسان والحيوان بملايين الملايين .

لكن هناك طريقة أخرى تتسم بالألمعية والذكاء .. فجزء الأنسولين مدروس ، ومعروفة فيه الكيفية التى تنتظم بها الأحماض الأمينية الواحد والخمسون . ومن أجل هذا يمكن عمل « ترجمة » عكسية لهذا النظام . وتحويله إلى برنامج وراثى طبق الأصل من البرنامج الموجود في جينة الأنسولين .. أى كأننا نحن نقرأ الفكرة أو البرنامج الوراثة عن طريق انتظام هذه الأحماض الواحد والخمسين .. فلكل حامض منها شفرة ثلاثية عا الجزىء الوراثة الباعث . أى جينة الأنسولين .. فالحامض الأمينى فالين مث له شفرة وراثية س أ ث ، والحامض الأمينى آلانين شفرته ج ث س .. وهكذا دواليك مع السبعة عشر نوعا من الأحماض الأمينية التى تدخل في

تكوين جزىء الأنسولين .. ومادام كل حامض يجمع بشفرة وراثية من ثلاثة حروف ، فلا بد من تخليق جزىء وراثى به ١٥٣ شفرة أو حرفا (لأن الأنسولين به ٥١ حامضا ولكل حامض ثلاث شفرات) .. ولا بد أن يكون التخليق مطابقا للخلق تماما . وهذا ما توصل إليه العلماء بالفعل ، إذ استطاعوا محاكاة الحياة أو تقليدها فى نظمها التى تقوم عليها .

فى عام ١٩٧٨ قام فريق من العلماء من المركز الطبى القومى بكاليفورنيا بتخليق أجزاء من البرنامج الوراثى للأنسولين فى أنابيب الاختبار . وذلك باستخدام خامات الحياة وأنزيماتها ... العملية معقدة وطويلة ومضنية ، لكنها اشتملت .. ثم قام فريق آخر من العلماء الذين يتبعون مؤسسة دوائية جديدة يطلق عليها اسم جينتك Genetech (وتعنى تكنولوجيا الجينات) - قاموا بتجميع الأجزاء المخلقة من الخطة ، ثم أدخلوها فى بلازميدة بكتيرية بالطرق التى سبق أن أشرنا إليها ، ثم أدخلوا البلازميدة بما حملت - أى جينة الأنسولين المخلقة - فى داخل خلية من خلايا البكتيريا القولونية ، وأدخلوا معها أيضا آلية التنظيم الجزيئى (اسمها لاك - أوبرون Lac - Operon) .. وهى التى تتحكم فى البرنامج الوراثى لجينة الأنسولين داخل جسم البكتيرة ، وتوجهها لكى تطبع من هنا وتتوقف هناك .. أى هى التى تعرف حدود الخطة بالضبط ، وكأنما هى فقرة فى كتاب تبدأ بحرف ، ثم تنتهى بحرف - مروراً بالمائة والثلاثة والخمسين حرفا أو شفرة التى تشكل بروجرام صناعة الأنسولين داخل الخلايا الحية .

باختصار .. حقق العلماء نصراً كبيراً ، إذ بدأت الجينة - الطبيعية أو المخلقة - فى التكاثر جنباً إلى جنب مع الخلية البكتيرية وفيها . فكلما انقسمت

هذه وتكاثرت انتقلت مع ذرياتها جينات الأنسولين .. ليس هذا فحسب ، بل إن الجينات قد اشتغلت ، وأعطت أنسوليننا .

تطور له مغزاه :

نعود لنقول : إنه منذ سنوات قليلة مضت استبعد كثير من العلماء امكان زرع الجينات - المخلقة وغير المخلقة - من كائن في كائن آخر.. ثم السيطرة عليها بوسائل الحياة نفسها لكي تعبر عن وجودها في خلية الكائن التي دخلتها ، ثم تقوم بتشغيل الخطة وإنتاج المطلوب منها بالتمام والكمال .. لكن بعض العلماء تنبأوا بأن ذلك سوف يتحقق في خلال أعوام تعد على أصابع اليد الواحدة .. صحيح أن الفكرة كانت تبدو خيالية . لكن الحياة قدمت لنا الطعم في شخص ، فالتهمه العلماء التهاما ، وهضموه في عقولهم هضمًا حسنًا . ثم أفرزوا ما هضموا خير وبركة على المعذبين في الأرض .

إن هذا النبأ - نبأ تصنيع الأنسولين من خلال نقل جينة بشرية إلى أحد أنواع الميكروبات قد أشعل الشرارة ، وأوقد جذوة نيران البحوث في مجال هندسة الوراثة ، وأصبحت الجينات بمثابة خطوط التصنيع التي نعرفها في المصانع المتقدمة . وهذه تحتاج إلى هندسة وتكنولوجيا متطورة .. وكذلك كان علماء الحياة مع الحياة .. فكل شيء فيها « مبرمج » - أي له بروجرامات منظومة في جينات مرصوفة في خطوط تشغيل بيولوجية على كروموسومات وأصبح من الممكن نقل خطوط التشغيل الوراثي من كائن لآخر .

إن تخليق أهم خصائص الحياة في أنابيب الاختبار هذه الأيام ، ونعني بها الجينات أو المورثات لم تقابل مثلاً بتلك الزوبعة التي أثيرت في القرن الماضي

عندما قام فردريك فوهلر بتخليق جزيئات اليوريا العضوية من أملاح غير عضوية (وهو ما سبق أن قدمناه) .. بل قوبل تخليق جزيئات الحياة الأساسية التي تورث الكائنات صفاتها بالإعجاب والحماس . فهنا - بلاشك - مؤشر حسن نحو مستقبل زاهر في هذا المجال . ثم إن قصة أنبوبة دى فورست التي حوكم من أجلها ، واعتبرتها المحكمة نوعا من الدجل والاحتيال قد تكررت هنا بطريقة أخرى مختلفة . إذ عندما أعلنت شركة « جينتك » التي نجحت مؤخرا في إنتاج أنسولين البشر من البكتيريا « المعدلة » - وقد كانت شركة دوائية ناشئة وغير معروفة - عندما أعلنت هذه الشركة عن عزمها طرح أسهم الشركة في الأسواق بغرض جمع عشرات الملايين من الدولارات اللازمة لتمويل بحوث هندسة الوراثة ، اعتبر الناس ذلك نوعاً من الخداع والاحتيال ، أو أنه أحد المشروعات الوهمية التي لا مغنم من ورائها ولا فائدة . وخير للناس - بطبيعة الحال - أن يستثمروا أموالهم فيما يعود عليهم بربح سريع ومضمون لا ربح مؤجل .

لقد تأسست هذه الشركة - شركة جينتك - في عام ١٩٧٦ بسان فرانسيسكو وبدأت باثنين من المتحمسين لهذه البحوث ، هما : الدكتور روبرت سوانسون والدكتور هيرب بوير . ويقول أولها : عندما عرضت فكرة إمكان إنتاج الأنسولين البشري بكميات وفيرة عن طريق أحد الميكروبات على بعض شركات الأدوية ، عليها تشترك معنا في رأس المال ، لم يصدق أحد أن يكون ذلك قريب المثال . ولهذا أعرضوا عن تقديم العون ، أو المجازفة بأموالهم . ومع ذلك فقد استطعت أن استقطب بعض العلماء المتحمسين لبحوث هندسة الوراثة ، وأن أجمع منهم بعض المال اللازم لتمويل الخطوات الأولى من تلك البحوث . ولقد عرفت بعض الشركات أننا جادون ، ولهذا

دفعت لإحداها عشرة ملايين دولار دفعة واحدة (١٥ ٪ من رأس المال) .. وكان ذلك بمثابة دفعة قوية لهذه البحوث التي أعطت نتائجها بعد سنتين اثنتين ، في حين ظن معظم العلماء أن هذا الهدف لن يتحقق قبل مضي خمس سنوات ، أو ربما عشر .

إن شركة « جينتك » الدوائية تضم الآن أربعين عالما من أبرز علماء الجامعات ومراكز البحوث في ميدان هندسة الوراثة . وقد تدفقت عليها الأموال بعد أن كانت تعاني من الإفلاس ، ووضعت في برنامجها إنتاج عدد من المركبات الحيوية التي فشلت بعض أجسام البشر في إنتاجها نتيجة لأخطاء وراثية . وذلك عن طريق زرع الجينات الخاصة بهذه المركبات في البرنامج الوراثي لبعض الميكروبات .

وعندما لاحت بوادر هذا النجاح ، بدأت شركات الأدوية المشهورة والمغمورة في سباق مرير لإنتاج ميكروبات محورة و « مفصلة » حسب الطلب .. فأصبحنا نسمع الآن مثلا عن شركة بيوجين Biogen . وجينكس Genex بجوار « جينتك » التي أشرنا إليها . وهي - كما ترى - أسماء تشير إلى تكنولوجيا بيولوجية جديدة ، لأن المقاطع التي تكونت منها هذه الكلمات تعني ذلك (جين أو جينة أو وحدة الوراثة التي بدأ العلماء في تداولها من كائن إلى آخر) .. وكأتما نبوء اتنا التي أشرنا إليها في فصل سابق عن إنتاج إنسان ذاتي التغذية بعد مائتين من السنين ، وفيها تعرضنا لأسماء أو لاقتات جديدة تحمل سمة المستقبل البعيد نسبيا ، قد تحققت في زماننا هذا على يد شركات أدوية تحمل المفهوم ذاته . ولكن على ميكروبات معدلة بهندسة الوراثة . واليوم ميكروب . وغدا قد يأتي الدور على الإنسان .. فمن يدري ؟ .

هناك أيضا شركة دوائية أطلقت على نفسها اسم شركة سيتس (أى

الحوت Cetus) وقد تأسست قبل شركة « جيتك » بعدة سنوات - أى فى بداية السبعينات من هذا القرن .. ويرأسها أحد العلماء ، ويدعى الدكتور رونالد كيب . وقد استطاع بدوره أن يجذب بعض زملائه من الجامعات ، وأن يصبح مليونيراً بعد أن نجح فى تنمية رأس مال الشركة ، خاصة بعد أن ساهمت كل من شركتى ستاندارد أويل بكاليفورنيا وانديانا . وشركة المقطرات والكيميائيات القومية بـ ٦٣ ٪ من رأس مال شركته البالغ ٣٠٠ مليون دولار.. هذا ويبلغ نصيبه مع زميلين آخرين هما الدكتور دون جلاسر ، والدكتور بيت فارلى ٢١ ٪ من رأس المال (لكل واحد ٧ ٪) .. ولهذا يعلق أحد العلماء بقوله : لقد أصبح علماء الوراثة خاصة ، والحياة عامة من المليونيرات ، بعد أن كانوا فقراء . ويرجع ذلك إلى نبذهم مجال البحوث الأكاديمية فى المعاهد والجامعات ، واللجوء إلى تأسيس هذه التكنولوجيا الجديدة ، تكنولوجيا هندسة الوراثة التى تبشر بآمال عريضة .

وتأتى شركات أدوية مشهورة مثل « ميرك » بألمانيا ، وإيلي ليلي Eli Lilly بأمرىكا ، وسويس فارما بسويسرا ، والصناعات الكيماوية الامبراطورية بريطانيا .. الخ ، لتدخل هذا الميدان بكل ثقلها ، وتضع لهذه البحوث ميزانيات ضخمة تربو على عشرات الملايين من الدولارات ، خاصة بعد أن أعلن البروفيسور تشارلز وايزمان - من معهد بيولوجيا الجزيئات بجامعة زيوريخ بسويسرا فى بداية عام ١٩٨٠ فى مؤتمر صحفى عقد فى بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية - أنه وزملاءه قد (٥) نجحوا فى إنتاج مادة «الانترفيرون

() بعد أن انتينا من كتابة هذا الكتاب . جاء فى مجلة مختارات العلوم (عام ١٩٨٠) أن الإنتاج العالمى من مادة الانترفيرون كان فى حدود جرام واحد لا غير . لكنه يكفى لعلاج عدة ملايين من البشر .

Interferon « من خلال التحكم في وضع بروجرام هذه المادة ضمن بروجرام البكتيريا القولونية .. هذا وبما يستحق الذكر هنا أن وايزمان كان يرأس فريق البحث التابع لشركة « بيوجين » التي تأسست بجنيف منذ عامين فقط . وأن هذا النجاح قد تحقق قبل أوامه بثلاث سنوات . وكان يعتبر من التحديات الضخمة في مجال هندسة الوراثة . ثم إن إنتاج مادة الأنترفيرون ذاتها بواسطة البكتيريا ستؤدي إلى محاربة كثير من الأمراض الفيروسية التي تعانى منها البشرية .

لكن .. ما هي أهمية هذه المادة - أى « الأنترفيرون » ؟

الواقع أن هذه المادة بمثابة « صفارات » الانذار الكيميائية التي تكونها خلايانا إذا ما هوجمت بأحد الفيروسات .. إن الخلايا المصابة سوف تموت بالفيروس إن آجلاً أو عاجلاً . لكنها قبل موتها تفرز مادة الأنترفيرون - وهو بروتين مرتبط بأحد السكريات - التي تنتشر من الخلايا المصابة ، لتنفذ إلى الخلايا السليمة ، وإليها تحمل كلمة سر مؤداها : خذوا حذركم فالبلاء قادم .. وعندئذ تنشط الخلايا ، وتبدأ في اتخاذ الاحتياطات اللازمة للملاقة الفيروس القادم . وعندما يغزوها يجد السلاح مشهراً ، فلا يستطيع له صلماً ، وعندئذ تنجو الخلايا ، ويهلك الفيروس . ولولا هذه العملية لدمرت الفيروسات خلايانا وأنسجتنا تدميراً .

لكن يبدو أن الأجسام الحية تتفاوت في استجابتها لهذا المنذر الكيميائي .. فالتى تستجيب له أكثر تنجو أسرع . والتى لا تستجيب مآلها تدمير وضعف ومرض قد يؤدي إلى الموت .. أو ربما يرجع الاختلاف في المقاومة إلى اختلاف في تركيز الأنترفيرون . فالتركيز الأكبر يؤدي إلى استجابة أسرع ،

ومقاومة أعظم .. لكن ذلك موضوع طويل ، ولا مجال له هنا . إنما الذى يعيننا منه أن الميكروب هنا قد اشتغل بجينة من جينات الإنسان بعد أن نقلت إليه وزرعت فيه ، لا لتحقيق انتصار علمى أكاديمى فحسب . بل هو انتصار على سلسلة من الأمراض الفيروسية ، أو ربما الأورام السرطانية أيضا .. أضف إلى ذلك أن الوسيلة الوحيدة للحصول على مادة الأنترفيرون (والترجمة الحرفية لها قد تكون « المادة المتداخلة » ، أى التى تتداخل فى عملية ضد الغزو الفيروسى للخلايا) هى استخراجها من خلايا الإنسان ذاته والمزروعة فى محاليل غذائية خاصة . لكن كمية المادة المستخلصة ضئيلة للغاية . وهى لا تكفى إلا بالكاد للبحوث العلمية والطبية ، فما بالك إذن بطرحها فى الأسواق كما تطرح مثلا المضادات الحيوية ؟ .. الواقع أن العملية مكلفة جدا كعلاج ، لأن الجرعات التى يحتاجها المريض لتتدخل فى حمايته من الفيروسات المهاجمة أيا كانت أنواعها أو سلالتها (لأن الأنترفيرون منذر لها جميعاً) تكلف آلاف الدولارات . ولهذا لجأ العلماء إلى الميكروبات . فهى الوحيدة القادرة على الانقسام والتكاثر السريع . ثم إن الميكروب الذى يحمل جينة الأنترفيرون يستطيع أن يمدنا بكميات وفيرة تصلح للاستهلاك الدوائى . كما أن نمو الميكروب المعدل ، وإنتاجه للأنترفيرون ، وإفرازه فى الوسط الغذائى الذى يعيش فيه . ثم استخلاص هذه المادة بالطرق الكيميائية المعروفة ، كل هذا وغيره سيضع بين يدى الشركات الدوائية كنزاً من الذهب والفضة .

إن الميكروب المعدل هنا لا يحتاج فى قليل أو كثير لمادة الأنترفيرون . ولهذا يتخلص منها أولاً بأول كنفاية لا مآرب له فيها ولا مغم . مثله فى ذلك أيضا كمثل الميكروب المعدل الذى ينتج الأنسولين البشرى . فهو أيضاً لا يستفيد منه ، وعندئذ يفرزه من جسمه كنفاية .. أى أن ما يستغنى عنه الميكروب

يحتاجه الإنسان المريض بالسكر أشد الحاجة .

وهل نجح العلماء حقا في إنتاج هذا الأنترفيرون الذى يستطيع أن يقف مع خلايا أجسامنا ضد الحن التى تتعرض لها من جراء الإصابة بفيروس الأنفلونزا أو التهاب الكبدى الفيروسى ، أو شلل الأطفال ، أو التهابات المخ الفيروسية .. الخ .. الخ ؟

يتنبأ الدكتور وولتر جلبرت - عالم البيولوجيا الجزئية بجامعة هارفارد الأمريكية ورئيس هيئة البحوث في مؤسسة «بيوجين» للهندسة الوراثية - بإنتاج كميات متوسطة من الميكروب المفصل لهذا الغرض في نهاية هذا العام - أى عام ١٩٨٠ . صحيح أن الإنتاج الحالى ضئيل ، وصحيح أن التجارب العملية مازالت في طريقها لتحسين الإنتاج ، وصحيح أن هناك بعض الصعوبات والمشاكل ، إلا أن ذلك وغيره سوف يتغلب عليه العلماء .. أى أن المسألة مسألة وقت ليس إلا .. وليست قصة اكتشاف البنسilia بعيدة . إذ عندما اكتشف العلماء هذا المضاد الحيوى في أحد أنواع الفطريات ، كان الإنتاج منه ضئيلاً ، وتكلفة استخلاصه باهظة . ثم استطاع العلماء أن يتغلبوا على ذلك ، وأصبح البنسيلين أو غيره من عشرات ومئات من المضادات الحيوية الأخرى في متناول الجميع .

من هنا يبدأ مستقبل هندسة الوراثة :

« إن تكنولوجيا هندسة الوراثة تتحرك الآن تحركاً سريعاً جداً . « وبأسرع مما كنت أتنبأ » . على حد تعبير الدكتور روبرت سوانسون من مؤسسى مؤسسة «جيتك» . ويضيف إلى ذلك : لقد ظن الناس أن هذا الانتصار (يقصد إنتاج الأنسولين) لن نتوصل إليه بمثل هذه السرعة القياسية » .

ورغم أن هدف مؤسسة «جيتك» كان إنتاج الأنسولين البشرى من البداية ، فإنها قد نجحت قبل ذلك فى إنتاج هرمون اسمه «سوماتوستاتين Somatostatin» وهو هرمون تصنعه أمخاخنا. ويتكون من ١٤ حامضاً أمينياً ولهذا يعتبر من البروتينات البسيطة التركيب نسبياً (الأنسولين مثلاً يتكون من ٥١ حامضاً أمينياً - كما سبق أن ذكرنا - ، وهيموجلوبين الدم يتكون من ٥٧٤ حامضاً). ومن السهل نسبياً أن يقوم العلماء بتخليق شفرته الوراثية (أى البرنامج) فى أنابيب الاختبار. وذلك عن طريق ترجمة عكسية لانتظام هذه الأحماض ، وتحويلها إلى شفرة من ثلاثة حروف - كما سبق أن ذكرنا - وعندما تم تخليقها ثم زراعتها فى بلازميدة ، ثم نقل البلازميدة بما حملت إلى البكتيريا القولونية ، اشتغلت فيها الجينة المخلقة ، وأعطت بالفعل ذلك الهرمون البسيط التكويني الذى ظهر فى المحلول الغذائى بتركيزات كبيرة. فليس للميكروب مخ مثلاً ، حتى يحتجز فيه الهرمون ويستفيد به ، بل لفظه من جسمه الدقيق كنفاية أو إنتاج ثانوى .

وعندما أذاعت هيئة البحوث بمؤسسة «جيتك» هذا النبأ بعد سنة واحدة من تأسيسها ، اختفت الشكوك التى كانت تخيم على العقول . واتضح أن هندسة الوراثة ليست حلماً بعيد المنال ، بل إنه بالإمكان تخليق جينة الأنسولين أو غيرها . ولهذا سارعت المؤسسات الأخرى بتقديم عشرات الملايين من الدولارات لتلك المؤسسة . وبعد عشرة شهور من إذاعة نبأ إنتاج هرمون «سوماتوستاتين» ، أذيع نبأ إنتاج الأنسولين بواسطة البكتيريا المعدلة ، كما سبق أن ذكرنا .. كما أذاعت مؤسسة «بيوجين» من قبل انتصارها فى إنتاج مادة الأنترفيرون بواسطة البكتيريا .

بعد إذاعة هذه الأنباء المثيرة ، بدأت هيئات البحوث فى شركات الأدوية

الغنية ترسم خطط المستقبل ، إما بذاتها ، وإما بالتعاون مع هيئات البحوث في المعاهد والجامعات . وطبيعى أن هذه المؤسسات تضع نصب أعينها دائماً الربح السريع والكبير . وهذا يستلزم صراعاً وتنافساً فيما بينها ، ولاشك أن هذا التنافس المحموم سوف يؤدي إلى ثورة تكنولوجية لها أبعادها على مستقبل الجنس البشرى خاصة ، وعلى الحياة عامة . فواحد مثل الدكتور وليام هوبارد - رئيس شركة « آيجون » Upjohn للكيميائيات والدوائيات أعلن أمام مؤتمر عقد في بداية عام ١٩٨٠ بلندن عن إمكان تشغيل هندسة الوراثة في إنتاج عدد من المركبات الهامة التي تصنعها خلايا أجسامنا بواسطة الميكروبات . ويذكر - على سبيل المثال لا الحصر - أن السنوات القليلة المقبلة سوف تتمخض عن إنتاج الأجسام المضادة . وهذه الأجسام ليست - في الحقيقة - إلا بروتينات خاصة تنتجها الخطوط الدفاعية في أجسامنا ، لتحارب بها الميكروبات . ثم إن بعض هذه الأجسام أو البروتينات المضادة يمكن أن تستخدم في تحديد النسل عند الذكور . وذلك بإنتاج البروتين المضاد لذيل الحيوان المنوى مثلاً . فعندما يؤثر هذا في ذاك ، يبدو الحيوان المنوى كسيحاً ، أى أنه لا يستطيع أن يضرب بذيله في السائل المنوى ليسبح ويتحرك نحو البويضة التي تنتظر تلقيحاً . ومادامنا قد أصبنا بالشلل في ذيله ، فلا تنتظر منه خيراً - أى إخصاباً . وهذا - في الواقع - نوع من العقم المؤقت أو الطارئ . ولاشك أن العقم هنا يزول بزوال الأسباب المؤدية إليه .. ثم نرى هوبارد يذهب إلى أبعد من ذلك ويتصور أنه بالإمكان إنتاج الخميرة « أو الأنزيم » التي تعيد السكرى إلى وعيهم في أقصر وقت ممكن . ذلك أن تلك الخميرة لها أيضاً برنامج وراثى في أجسامنا ، وهى تؤثر في الكحول ، وتحوله إلى مركبات أخرى . وبهذا يسترد المخمور وعيه ، لكن عمل الأنزيم هنا بطيء . ولو

استطعنا أن ننتج منه كميات كبيرة بواسطة هندسة الوراثة الميكروبية ، فإن ذلك يصبح علاجاً سريعاً للمخمورين (هذا الأنزيم اسمه دى هيدروجينيز الكحول - Alcohol dehydrogenase)

وتقوم شركة سيتس (الحوت) الدوائية الآن برسم خطط المستقبل لإنتاج العامل المساعد على تجلط الدم (وبالتحديد العامل 8 Factor) .. إذ يعتقد الدكتور رونالد كيب رئيس الشركة أن هذا البروتين يمكن إنتاجه عن طريق زراعة « البروجرام » الوراثة البشرية لعامل التجلط الدموي في البكتيريا ، وأن الانتاج سوف يلقى رواجاً في عالم الدوائيات كالرواج الذي يلقاه الأنسولين أو اللقاحات .

وأثناء كتابتنا لهذا الفصل من الكتاب حملت لنا مجلة علمية بريطانية (نيوساينتست) نبأ طازجاً جاء فيه : أن شركة « آبوت » الدوائية بالولايات المتحدة قد تمكنت من تخليق ميكروب جديد يحمل البرنامج الوراثة لجينة من جينات الإنسان . وهذه الجينة متخصصة في تصنيع أنزيم اسمه « يوروكينيز Urokinase » . وبه يمكن إذابة الجلطات الدموية التي تسبب الأزمات القلبية (مثل جلطة الشريان التاجي المغذى للقلب) أو الشلل الناتج من حدوث جلطة في المخ ، أو جلطات الرئة .. الخ . ولقد كانت الطريقة المتبعة في استخلاص هذا الأنزيم الهام تتركز في زراعة خلايا الكلية ، أو الحصول عليه من البول . وكلتا الطريقتين مكلفة ، ولا تمنحنا إلا كميات ضئيلة من الأنزيم . ولقد تمكن الباحثون في هذه الشركة من الحصول على الجزء الوراثة المبعوث من خلايا الكلية ، وعرفوا شفرته ، ثم استخدموا لذلك أنزيماً خاصاً يقوم بعمل ترجمة عكسية للمبعوث ، وتحويله إلى الجزء الباعث

(وهو أساسا يحتل جينة محددة على خط التشغيل الوراثي لخلية الكلية) . ثم أخذوا هذه الجينة المخلقة ، ووضعوها في البكتيريا القولونية . فاشتغلت فيها ، لكن الانتاج كان قليلاً . وهم في طريقهم إلى عمل تعديلات في الخطة الوراثية ، حتى توجد بكميات تصلح للإنتاج الدوائى .

وفى العدد نفسه جاء أيضاً أن مؤسسة ولفسون بريطانيا قد قدمت لجامعة كنت منحة تقدر بتسعين ألف جنيه استرليني لإنتاج نوع من البروتينات البسيطة التركيب يعرف تجارياً باسم «تالين» Talin (اسمه العلمى ثوماتين Thaumatin) وهذا البروتين أحلى من السكر بحوالى ٣٠٠٠ مرة . وقد تم اكتشافه فى ثمار بعض أنواع نباتات المنطقة الاستوائية ، لكنه يوجد فيها بتركيزات ضئيلة . وسوف يتعاون البروفيسور ك . ستاسى مدير المعمل البيولوجى بجامعة كنت مع شركة تيت وليل Tates & Iyle الدوائية لاستخلاص جينة النبات ، ثم زرعها فى البكتيريا القولونية ، لتنتج البروتين ذا الحلاوة الفائقة بكميات وافرة ، ليضاف بنسب ضئيلة إلى طعام مرضى السكر الذى يحتاج إلى تحلية .. أضف إلى ذلك أن هذا البروتين سهل الهضم كأى بروتين آخر .

هذه - إذن - نبذة قليلة عما يراود عقول العلماء هذه الأيام .. بعضها تحقق ، وبعضها فى طريقه إلى التحقيق خلال شهور وأعوام قليلة . والبعض الآخر الصعب والكثير ينتظر تطوراً فى الأفكار ، ودقة فى «التكنيك» ، وحصيلة ضخمة من الممارسة التجريبية . ولاشك أن ذلك سيؤدى إلى أهداف أعظم فى المستقبل البعيد ، ومنها دخول الإنسان فى معمعة التجارب ، وما قد يتمخض عنه من « تفصيل » البشر حسب البروجرامات الوراثية التى بين أيدينا الآن ، أو بين أيدي علماء المستقبل بعد عشرات أو مئات السنين . ومنها - كما

سبق أن قدمنا - إنسان كلوروفيلي جديد يعيش على الطاقة الضوئية ، وعلى الأملاح غير العضوية .. الخ .

دعنا نستأنس هنا برأى البروفيسور كليفورد جروبيستين - أستاذ العلوم البيولوجية بجامعة كاليفورنيا ، وأشهر علماء الأجنة في الولايات المتحدة الأمريكية - إذ يذكر « أن التكنيك الذى بين أيدينا (يقصد هندسة الوراثة) يمكننا الآن - نظريا على الأقل - من نقل أية سلسلة من الشفرات الوراثية من الكائنات الراقية إلى البكتيريا .. والواقع أنه بالإمكان « برمجحة » البكتيريا وراثيا لإنتاج بروتينات متخصصة ، وأن المجال فى هذه البرمجحة واسع جدا .. »
ويضيف إلى ذلك قوله « ويتبع ذلك تقدم سريع فى اتجاهين ، أولهما : أن العلماء سوف يستخدمون هندسة الوراثة فى دراسة ميكانيكية الجينات وتطور أجنة البشر . إن الصعوبات العلمية التى دفعت كثيراً من العلماء لتجنب هذا النوع من البحوث (يقصد عدم معاملة خلايا الإنسان بنفس الطريقة التى نعامل بها البكتيريا المعدلة) يرجع إلى كون البشر كائنات ضخمة جدا ، ومعقدة جدا ، وبطيئة التكاثر جدا (بالمقارنة مع البكتيريا مثلاً) . وهذا من شأنه أن يشبط الهمم لدراسة الإنسان فى المعامل » (وهو بلاشك يقصد الخلايا الجسدية للإنسان ، وليس الإنسان ذاته ؛ فليس الإنسان بحيوان تجارب على أية حال) .

لكن جروبيستين يستطرد قائلاً : « إلا أن هندسة الوراثة سوف تغير عندنا هذه النظرة ، وستقدم لنا فرصاً كثيرة فى البحوث الطبية ، خاصة فيما يتعلق بتحول الخلايا العادية ، لتصبح خلايا سرطانية » .

« والتقدم السريع فى الاتجاه الآخر - والكلام هنا لجروبيستين - هو استخدام هندسة الوراثة فى صناعة مواد كيميائية ودوائية نافعة أسرع وأكفأ من

ذى قبل ... إن هندسة الوراثة هي قفزة جد هائلة من ناحية الكم .. قفزة قد لا يصدقها عقل . وبها تتخطى الطرق التقليدية القديمة التي نحصل بها على الدوائيات بطرق الفصل أو التخليق الكيميائي .

ولكون جروبيستين عالم أجنة في المقام الأول ، نراه يذهب إلى أبعد من ذلك ، ويتحدث عن طريقة أخرى « لإنتاج » البشر ، خاصة بعد أن سيطر بعض العلماء على عمليات التلقيح في أنابيب الاختبار ، ثم زراعة بدايات الأجنة في الأرحام . إذ يذكر « أن الباحث أو العالم يستطيع أن يحصل على بويضة لأنثى البشر ، ثم يلقحها خارج الرحم ، ويحتفظ بالبويضة الملقحة في محلول غذائي خاص ، ويراقبها وهي تنقسم وتتكاثر وتميز إلى بدايات أنسجة مختلفة . ومن هذه الأنسجة يعرف موقع الغدد الجنسية (أى بدايات المبايض أو الخصى) ، ويحصل منها على بويضة ، ويلقحها بحيوان منوى يحصل عليه من المصدر ذاته (أى من غدة الجنين الذى يتشكل في الوسط الغذائى) . وعندئذ يحصل على جنين جديد من الجنين (أى الذى لا يزال في المزرعة خارج الرحم ، ضاربا بذلك كل المبادئ التى عرفناها عرض الحائط .. أى كأنما هو يريد أن يلغى الطور البالغ من أطوار الإنسان) .

إن ذلك - فى الواقع - شىء مستحيل .. لكن رغم أن جروبيستين يعتقد أن هذا الهدف سابق لأوانه ، فإنه يستطرد قائلاً « ومع ذلك فلا يجب أن نغفله على الإطلاق ، فقد يتحقق مستقبلاً » .

لكن بما لاشك فيه أن هندسة الوراثة لن تتناول في بحوثها الإنسان كجسد ، بل ستناوله كخلايا جنينية مزروعة في أوساط غذائية مناسبة ، وأنه بالإمكان تفصيل هذه الخلايا لتصبح فرادى كالميكروبات مثلاً . وعلى هذه الخلايا

سوف تتم بحوث هندسة الوراثة ، فيضيفون إلى بروجرامها الوراثة آية بروجرامات أخرى يرى فيها العلماء فائدة مباشرة للجنس البشرى . ومن الممكن بعد ذلك دفع هذه الخلية الجينية غير المميزة - أى قبل أن تتحول إلى خلية بعينها ، كأن تصبح مثلاً بداية لكبد أو عين أو غدة أو ما شابه ذلك - إلى الانقسام والتكاثر ، لتعطى بدورها بداية جنينية مميزة ومعدلة ، ثم نقلها من المزرعة إلى رحم طبيعي ، أو ربما إلى رحم صناعى قد تتمخض عنه بحوث المستقبل .. ومع وضعنا فى الاعتبار الصعوبات الضخمة التى ستقابل العلماء فى هذا المجال ، فإن التطور الهائل فى معلوماتنا وتكنيكنا قد يتخطى هذه الصعاب بعد أجيال .

النبات والحيوان .. قبل الإنسان :

ولكى ينجح العلماء فى برجة الكائنات الأرق من الفيروس والبكتيريا ، كان لابد من دراسة المخطط الوراثة لخلاياها أولاً .. لقد استمر العلماء مثلاً سنوات طويلة حتى استطاعوا رسم « خريطة » متقنة لواحد من الفيروسات التى تصيب الخلايا البكتيرية ، وحددوا فيه موقع كل جينة ، ووظيفتها بالنسبة للفيروس .. أو باختصار نقول : لقد استطاعوا أن « يقرأوا » شريط الفيروس ، وأن يتوصلوا إلى لغته التى يستخدمها لكى يصبح فيروسا . ورغم أن طول هذا الشريط لا يتجاوز جزءا من ألف جزء من المليمتر ، إلا أنه يحتوى على عشرات أو مئات الجينات ، وبروجرامه يتضمن ١٧٠ ألف شفرة . وفك الرموز أو الشفرات شفرة شفرة يحتاج بالفعل إلى وقت وجهد وصبر يفوق صبر أيوب .. قارن ذلك مثلاً بالشريط الوراثة فى البكتيريا . إذ أن طوله أكبر ألف مرة من شريط الفيروس (أى طوله مليمتر واحد لا غير ..) .. ولقد عرف العلماء منذ

عدة سنوات مضت الشفرات الكامنة في ثلث مليمتر من الشريط الوراثي للبكتيريا . واستنفذ ذلك حوالى ثلاثين عاماً . ولابد - والحال كذلك - من أعوام طويلة قادمة ، حتى يتوصل العلماء إلى فك رموز بقية المليمتر من هذا الشريط في نوع واحد من آلاف الأنواع من البكتيريا .

فإذا كان الأمر كذلك مع شريط وراثي لا يتجاوز طوله مليمترًا واحدًا . فما بالناس إذن بالأشرطة الوراثية الكثيرة التي تحتويها أية خلية جسدية من خلايا الإنسان ؟

والواقع أن المشكلة هنا أعوص مما تتصور عقول البشر ، فلكى نفاك الشفرة الوراثية الكامنة على ١٧٥ ستيمترا أو ١٧٥٠ مليمترًا ، فإن ذلك يحتاج إلى عشرات كثيرة من السنوات ، إن لم يكن مئات السنوات .. لكن لا يكتفى أيضا أن نفاك الشفرة حرفاً حرفاً ، بل علينا أيضا إعادة تكوينها وتشغيلها . وهذا في حد ذاته أدهى وأمر ، ومع ذلك فإن علماء هذا الزمان قد بدأوا بالفعل في رسم خريطة لبعض الجينات البشرية وحددوا منها حتى الآن حوالى ٣٠٠ جينة . وعرفوا مواقعها على كروموسوماتها ، ولقد تخلقت على أيديهم وفي أنابيب الاختبار شفرة جينة الأنسولين وشفرة جينة هرمون المخ ، واشتغلنا في الميكروب - كما سبق أن ذكرنا . صحيح أن هذه بدايات متواضعة ، لكن رحلة ألف الميل تبدأ عادة بخطوة . وربما تتأزر بعض المعامل المتقدمة والمتطورة في التعاون فيما بينها . بحيث تنكب كل عدة معامل على فك شفرة كروموسوم واحد من كروموسومات الإنسان . وترسم له خريطة وراثية مفصلة ، وتحدد عمل كل جينة من آلاف الجينات المنتظمة على الكروموسوم . ومن خلال هذا التعاون قد يختصر العلماء الوقت . ويتوصلون إلى أهداف أسرع ، خاصة أن عدد الجامعات والمعاهد التي تقوم بمثل هذه البحوث في الولايات المتحدة الأمريكية

وحدها يصل إلى ٨٦ جامعة ومعهدًا . بالإضافة إلى عشر شركات أدوية تهتم اهتمامًا شديدًا ببحوث هندسة الوراثة .

إن أحدًا من العلماء لم يجرؤ حتى الآن أن يمس خلية من خلايا الإنسان ، ويضع فيها بروجرامًا وراثيًا غريبًا ، كما حدث مثلاً في الخلايا الميكروبية . ويرجع ذلك إلى المتاهات الضخمة الكائنة في خلايانا . فلكي نسيطر على هذه العملية العويصة جدا كان لابد أن نفهم هذا الطوفان من الأسرار الكامن في داخلنا . فالإنسان - على أية حال - مخلوق ثمين ، ولهذا يلجأ العلماء أولاً إلى الكائنات الأقل شأنًا ، وعليها يجرؤون التجارب ، فإن نجحت فيها فإن ذلك قد يؤدي إلى تطبيقات مماثلة على خلايا الإنسان .. ذلك أن الجوهر في كل الكائنات الحية واحد ، والفكرة في تكوينها واحدة ، وشفراتها الوراثية واحدة . فالجينة المسئولة مثلاً عن صناعة الأنزيم اللازم لهضم البروتين وتحويله إلى أحماض أمينية بسيطة لا تختلف كثيراً بين ميكروب وإنسان .. غاية ما في الأمر أن الميكروب يفرز أنزيمه خارج جسمه ليحلل البروتين ، ونحن نفرز الأنزيم ذاته داخل أمعائنا ليقوم بنفس العمل .. والأمثلة بعد ذلك كثيرة جدا . وهذا يعني أننا نشترك مع الكائنات الأخرى في آلاف العمليات الكيميائية المتشابهة .. ثم أن لكل عملية أنزيمها أو خميرتها المتخصصة . والأنزيم بدوره لا يتكون إلا بنحطة وراثية موجودة في جينته . أو بمعنى آخر نستطيع أن نقول إن البرامج الموجودة في بعض الجينات ، الموزعة في كل الكائنات متشابهة .. فللنشويات والسكريات والدهون أنزيمات كثيرة متخصصة .. والكائنات الحية تعيش على هذه المركبات وتحللها إلى جزيئات بسيطة في سلسلة من العمليات الكيميائية . ولا فرق هنا بين إنسان وحيوان ونبات وميكروب ، فعناصر الغذاء بالنسبة لها كالعملة الموحدة المتداولة بيننا .

لكن مما لاشك فيه أننا نختلف في صفات كثيرة عن الحيوان والنبات . غير أن ذلك الاختلاف يرجع في المقام الأول إلى اختلاف في تنظيم البرامج الوراثية الكائنة في الكروموسومات . كما أنها في الإنسان أعقد ، بدليل أنها منحه معجاً . متطوراً ، وفكرًا صائبًا ، ولسانًا فصيحًا .. إلى آخر هذه الصفات البشرية التي لا توجد في غيره من الكائنات . لكن من الممكن - ومن حيث المبدأ - نقل وزراعة الجينات من خلية مخلوق إلى خلية مخلوق آخر ، بما في ذلك الإنسان بطبيعة الحال .

وطبيعي أن العلماء لن يلعبوا هذه اللعبة في وقتنا الحاضر . بل إن اهتمامهم الأكبر سوف ينصب على أهداف ذات نفع للبشرية .. نخذ على سبيل المثال الإنتاج النباتي الذي تعيش عليه المملكة الحيوانية بما فيها الإنسان بطبيعة الحال ، إذ لو استطاع العلماء مثلاً أن يوجهوا هندسة الوراثة لإنتاج سلالات جديدة من النباتات تمتاز بسرعة في النمو ، ومقاومة أكبر للآفات والأمراض ، وإنتاج أعظم في الحبوب والثمار ، لو استطاع العلماء ذلك ، لكان فيه خير وبركة للبشرية .

صحيح أن العلماء المتخصصين في إنتاج سلالات نباتية وحيوانية ممتازة لهم باع طويل في هذا المجال . لكن ذلك يعتمد على اختيار سلالات ذات صفات خاصة ، ثم تهجينها أو تزاوجها ، لينتج من ذلك سلالات جديدة تجمع بين الحسنيين .. أى مقاومة للأمراض في حين ، وذات محصول وافر في حين آخر . لكن هذه العملية بسيطة نسبيًا ، وأحيانًا ما تتخطى السلالات الممتازة عن بعض صفاتها المرغوبة تحت ظروف بيئية ومناخية طارئة .

إن مقاومة المرض في النبات مثلاً يعني وجود جينة أو أكثر في هذا النبات ،

لتصنع مادة أو عدة مواد كيميائية تستخدمها كسلاح مشهور في وجه الميكروبات المسببة للمرض ، في حين توجد سلالة أو أكثر من النبات ذاته تمتاز بوفرة في المحصول ، لكنها - مع ذلك - قد تصاب بالمرض . وهنا يقوم العلماء بعملية تهجين بين هذا وذاك ، أى خلط المورثات عن طريق عمليات الاخصاب المتبادل بحبوب اللقاح والبويضات . ثم زراعة البذور الناشئة وتقييم النباتات الناتجة من حيث مقاومتها للمرض في حين ، ووفرة إنتاجها في حين آخر ، ثم انتقاء بذور أحسن النباتات .. وهكذا . لكن هذه العملية تستغرق شهوراً - أو سنوات - كما ترى . ومع ذلك فهي أسرع مما يحدث في الطبيعة عشوائياً . فقد يستلزم ظهور سلالة جيدة آلاف السنوات ، لكن تدخل الإنسان بفكره وعلمه في عملية التوجيه والانتقاء قد اختصر عامل الزمن إلى أبعد الحدود .

لو دخلت هندسة الوراثة هنا بكل ثقلها لكان بالإمكان تطوير هذه العملية إلى آفاق أوسع ، وأهداف أنفع . إذ يكفى تحديد الجينة أو الجينات المقاومة للمرض في إحدى السلالات ، ثم عزلها ، أو تحليقها ، لتزرع بعد ذلك في الجهاز الوراثي لخلية أو أكثر من خلايا النبات الممتاز المحصول ، فنضرب بذلك عصفورين بحجر واحد .. أى نبات جديد معدل يعطى محصولاً أوفر ، ويقاوم الأمراض أكثر . وما يبشر هنا بالخير أن علماء النبات قد استطاعوا أن يتحكموا في خلية جسدية لنبات الجزر والتبغ . ومنها تمكنا من الحصول على نبات يافع (كما سبق أن ذكرنا في الفصل الثانى) وعن طريق تطوير هذه المزارع الخلوية في الأنابيب والأطباق (زراعة الأنسجة خارج النبات) ، يمكن التحكم في إنتاج النباتات المختلفة عن طريق الخلايا الجسدية بعد تزويدها بالبروجرامات الوراثة المرغوبة . وقد يتحقق هذا التنبؤ بحلول نهاية القرن العشرين ، أو في بداية الربع الأول من القرن الواحد والعشرين .

وبواسطة التحكم في « تعديل » أو « تفصيل » البروجرامات الوراثية حسب الطلب في النبات ، يمكن تهيئة بعض أنواع المحاصيل لتعيش في ظروف بيئية جديدة وقاسية .. فالمعروف مثلاً أن لكل بيئة نباتاتها التي تأقلمت عليها . وتكيفت بها . ولاشك أن عمليات التكيف في الكائنات الحية قد استغرقت ملايين السنين . فالذي يقاوم يعيش ، والذي ينهار يموت (ولقد انقرضت ملايين الأنواع من الكائنات لأنها لم تتكيف ولم تقاوم) . ومن أجل هذا نرى نباتات تستطيع أن تعيش بالقرب من قطبي الأرض . حيث البرودة قاسية وشديدة ، في حين أن غيرها لا يستطيع ذلك ، ولا بد له من مناخ معتدل أو حار .. كذلك تعيش بعض النباتات في البيئة الصحراوية . وغيرها في الأراضي الملحية أو شديدة الملوحة . ولاشك أن بروجراماتها الوراثية تؤهلها لمثل هذه الحياة القاسية التي لا تقدر عليها نباتات المحاصيل المعروفة . وطبيعي أن علماء زماننا هذا يعرفون ذلك حق المعرفة . لكنهم لا يستطيعون الآن تحديد المورثات التي تقف خلف النباتات . وتبيى لها الحياة في الظروف الصعبة التي لا يقدر عليها غيرها ، لكن علماء المستقبل سوف يضعون هذه المبادئ نصب أعينهم . إذ مما لا شك فيه أنهم سيعرفون أضعاف ما نعرف . وبتطوير هندسة الوراثة النباتية وصقلها قد ينجحون بعد خمسين أو مائة عام من الآن في تعديل بروجرامات نباتات المحاصيل ، بحيث تزرع في أية بيئة يشاءون . ومن الممكن - والحال كذلك - أن يستنبطوا سلالات معدلة من القمح أو الذرة أو قصب السكر .. الخ .. الخ ، لتزرع في الصحارى . وتروى بمياه البحار المالحة ، ففي بروجرامها ما يمكن أن يساعدها على تحطى هذه الظروف غير العادية ، ولونجح علماء المستقبل في ذلك لتحولت الصحارى الشاسعة إلى جنات وارقة . تجود علينا بالزرع والضرع ، خاصة وأن معظم الدول العربية تقع ضمن الحزام

الصحراوى الممتد من المحيط الأطلسى غربًا ، إلى الخليج العربى وشبه جزيرة العرب شرقًا . وسوف يكون ذلك أعظم انتصار يحققه الإنسان مستقبلاً .

الطبيعة تعلمنا مناهجها :

ومما لاشك فيه أن الحياة نفسها تعلم الإنسان ، وتفتح عقله على أسرار أخرى كثيرة . ولو أنه وعافها وأدركها ، ثم حاول أن يستفيد بها ويوجهها الوجهة التى يهواها ، لأصاب منها الخير الكثير .. لقد علمتنا الحياة مثلاً أنها استطاعت أن تشق طريقها عبر مئات الملايين من السنين دون أن يتدخل الإنسان فى شئونها . فنحن مثلاً نضيف إلى الأرض الزراعية أسمدة كيميائية عضوية وغير عضوية . ولولا ذلك لما جادت علينا بالخيرات .. لكن من التذى رعى التربة وسمدها قبل أن يظهر الإنسان على هذا الكوكب ؟

الواقع أن تسميدها يرجع إلى جيوش هائلة من الميكروبات .. بعضها كان يحلل كل مادة عضوية ميتة تسقط على الأرض ، ويطلق منها عناصرها النيتروجينية وغير النيتروجينية بصورة سهلة وميسرة لجدور النباتات . أى كأن ما يعود إليها بصورة ميتة يخرج منها بصورة حية ، أى أن الجديد يعيش على رفات القديم . والفضل فى ذلك يرجع إلى الميكروبات .

لكن هناك صورة أخرى رائعة تتمثل لنا فى «مصانع» سماد حية تعمل فى صمت تام . وهى لا تحتاج إلى أفران تشتعل . ولا إلى آلات تدور ، ولا إلى إدارات كيميائية وغير كيميائية لتشرف على تصنيع السماد ، كما هو الحال الآن فى مصانع السماد التى يديرها البشر .. بل إن بروجرام تصنيع السماد من النيتروجين الجوى موجود فى بعض أنواع الكائنات الدقيقة مثل البكتيريا والفطريات والطحالب الزرقاء .. فالبكتيريا وحدها تضيف إلى كل فدان من

الأرض الزراعية سمادا مصنعا أو مثبتا يتراوح ما بين ٥٠ - ٢٠٠ رطل سنويا .
وهذا يتوقف - بطبيعة الحال - على نوع التربة الزراعية ، وعلى أنواع الميكروبات
التي تعيش فيها ، وتقوم بتسميدها مجانا .

وليس مهما أن نتعرض هنا لهذه الأنواع ، وللا لكيفية التي تثبت بها
النيتروجين الجوى لتحوّله إلى نترات (سماد غير عضوى) ، لأن الحديث فيها قد
يتشعب ويطول . لكن يكفى أن نشير إلى نوع من التكافل أو تبادل المنفعة الذى
سبق أن تعرضنا له قبل ذلك بين طحلب وحيوان . لكن تبادل المنفعة هذه المرة
يتم بين نبات وميكروب .. لقد لاحظ الإنسان من قديم الزمن أن زراعة أرضه
بأحد النباتات البقولية كالبرسيم والبقول والتمرس والباذلاء .. الخ يجعل المحصول
الذى يليه فى الأرض يزدهر ويحود عليه بمزيد من الحبوب .. لم يكن الإنسان
وقتها يعرف أن سبب زيادة المحصول يرجع إلى نوع من البكتيريا (اسمه ريزوبيا
Rhizobium) يعيش متكافلا مع جذور النبات البقولى . ويسبب عقدا تشبه
الأورام . وفى هذه العقدة تكمن جيوش من البكتيريا التى تستطيع أن «تصطاد»
النيتروجين الجوى ، وتحوّله إلى سماد غير عضوى (نترات) تمنحه للنبات
البقولى . فيرد لها النبات الجميل ، ويعطيها سكرًا لا تستطيع له تصنيعا .. أى
كأما هناك صفقة أو تبادل تجارى بين الكائنين . فإذا جنى المحصول البقولى
تحللت الجذور بعقدها البكتيرية فى الأرض الزراعية ، واكتسبت الأرض
بدورها سمادا نيتروجينيا جاهزا . فكيون من نصيب النبات الذى يليه فى
الأرض .

والسؤال الآن : لماذا وكيف نجحت النباتات البقولية دون غيرها فى عقد
تلك الصفقة السامدية الميسرة مع الميكروب ، ودون ما حاجة إلى سماد نيتروجينى
يضاف إلى الأرض ؟

الواقع أن هناك كلمة سر كيميائية بين النبات البقولى والميكروب . فإذا زرع هذا النبات بذاته أفرز في التربة الزراعية مادة شبيهة بالهرمون ، ولها تستجيب البكتريا ، وتسعى لجذوره ، وتغزو خلاياها ، وتسبب فيها « أوراما » لكنها أورام محمودة ومرغوبة ، لأنها هنا بمثابة مصانع السماد الذاتية التى تموله بكل ما يحتاجه .

لكن كل هذا قد لا يهمننا بقدر ما يهمننا أن نعرف أن تصنيع السماد النيتروجينى بواسطة بعض أنواع الكائنات الدقيقة يتم فى سلسلة من العمليات الكيميائية الحيوية التى كشف العلماء عنها الحجاب مؤخرا . وأن كل عملية فى هذه السلسلة تتم بواسطة إنزيم متخصص ، ولكل إنزيم منها جينة أو مورثة على خط التشغيل الوراثى للميكروب .. فست عمليات مثلا تتطلب ست أنزيمات ، لها ست بروجرامات . موزعة على ست جينات .. ولقد بدأ العلماء فى وقتنا الحاضر دراسة خط التشغيل الوراثى للميكروب ، لتحديد موقع الجينات المسئولة عن تثبيت النيتروجين الجوى من بين الـ ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ جينة التى توحد على كروموسومه الوحيد ، وتشرف على جميع عملياته الحيوية . وعندما يرصدون موقع هذه الجينات القليلة ، فإنه من اليسور بعد ذلك شطرها بأدوات الخلية الحية ذاتها . ثم زرعها فى خلايا نباتات المحاصيل غير البقولية . ثم دفع هذه الخلايا المزودة بخطة تثبيت النيتروجين للنمو والتكاثر ، حتى تصبح نباتات يافعة . لتجود بالحبوب أو البذور .. ثم زراعة هذه البذور ، لتنتج نباتات تسمد نفسها بنفسها وهكذا تتعاقب أجيالها وقد اكتسبت صفة جديدة تغنيها وتغنيها عن إضافة أية أسمدة نيتروجينية للأرض الزراعية .

لكننا نعود ونعترف أن إنجاز هذه العملية ليس بالسهولة التى نكتب بها هذا

الكلام . إذ لا بد أولاً من التغلب على الصعاب الجمة التي ستقابل العلماء في هذا المجال . لكن هذه الصعاب تستلزم من العلماء أن يركبوا الصعاب . خاصة إذا علمنا أن صناعة السماد النيتروجيني بالطرق التقليدية تكلف العالم سنوياً عدة بلايين من الجنيهات . أو الدولارات إذا أحببت . أضف إلى ذلك أن احتياجات العالم من هذه الأسمدة سوف تزيد زيادة مطردة بمرور الزمن ، وسوف تزيد أسعارها ، لأن العملية مكلفة في الطاقة . وأسعار الطاقة بدورها في زيادة مستمرة . ومن هنا تبرز أمامنا أهمية بحوث هندسة الوراثة ، إذ لو نجحت لكان ذلك أيضاً من أعظم الانتصارات التي قد يحققها العلماء من أجل رفاهية هذا الكوكب . ونحن نتنبأ أن ذلك الهدف قد يتحقق في غضون ربع أو نصف قرن من الآن .

أو قد تتحقق نبوءتنا بطريقة أخرى أيسر من زرع جينات التسميد النيتروجيني رأساً في خلايا النباتات الراقية ، إذ قد يراود عقول بعض العلماء المتخصصين في بحوث هندسة الوراثة الميكروبية نقل تلك الجينات من ميكروب يحتويها إلى ميكروب آخر ليست ضمن بروجرامه الوراثي . . ففي الأرض الزراعية مئات وآلاف الأنواع من الميكروبات التي لا تستطيع للنيتروجين تثبيتاً ، ولهذا تعيش على ما يعود للأرض من مادة عضوية تحتوي على مركبات نيتروجينية . ولا شك أن نقل البروجرام النيتروجيني من ميكروب إلى آخر أيسر منالاً . وقد يتم ذلك عن طريق دمج الأشرطة الوراثية الكاملة رأساً بين الميكروبين . وبما يبشر بالخبر أن العلماء قد نجحوا في دمج خلايا نباتية كاملة بخلايا حيوانية كاملة ، أو خلايا حيوانية بأخرى حيوانية ، أو نباتية بنباتية . لكن هذا الدمج ليس من ورائه هدف واضح ، ربما فقط للعلم بالشيء ، أو لدراسة المزيد من أسرار الحياة . لكن الدمج الذي نقصده ، سوف يحول معظم ميكروبات الأرض إلى

مصانع سماد دقيقة تغنينا عن مصانعنا التي تكلفنا أموالا هائلة ، ونحن نتوقع أن يتوصل العلماء إلى هذا الهدف قبل نهاية هذا القرن .. كل هذا مرهون بتوفيقهم في هذا السبيل .

على أنه قد طرأ على بالنا تصور آخر . فمن خلال التقدم في بحوث هندسة الوراثة ، قد ينجح العلماء في نقل جينات التوابل والبهارات وزرعها في بعض النباتات . فبدلا من إضافة الفلفل أو الكمون أو النعناع إلى شرائح الطماطم ، تأتينا ثمارها وقد اكتسبت هذه الصفات .. أو منا مثلا من يجب الشاي بالنعناع ، فلا يكلف خاطره بإضافة بعض مسحوق النعناع أو أوراقه إلى الشاي ، لأن شاي المستقبل قد يحمل في تكوينه جينات النعناع أو القرنفل .. و .. إلى آخر هذه الأمور التي قد نعتبرها في عصرنا هذا نوعا من المزاح العلمي ، أو التنبؤ بأمور نحمل بذور الخيال .. لكن ماذا يدرينا حقا ما سوف تتمخض عنه هذه الهندسة الغريبة على عقولنا وزماننا ؟

أو قد نتصور أنه بالإمكان - في المستقبل البعيد - خلط خلايا النباتات التي تتبع عائلة نباتية بعينها ، ثم تربيتها في مزارع خلوية ، لتنتج نباتات جديدة تحمل ثمارا مختلفة .. كأن يزاوج مثلا بين خلايا نبات الباذنجان والطماطم والفلفل (وهي من عائلة واحدة تعرف بالباذنجانية) لينتج منها نبات جديد يمكن تربيته وتكاثره ، لتظهر فيه ثمار الطماطم بجوار الباذنجان بجوار الفلفل على النبات ذاته . أو قد تأتي ثمرة واحدة تجمع في صفاتها بين الثمار الثلاثة . وقد تطبق الفكرة على نباتات عائلات أخرى .. الفكرة قد تكون مقبولة من حيث المبدأ ، لكنها صعبة التطبيق جدا . وربما لا يفكر فيها العلماء على الاطلاق ، لأنها تعتبر إحدى رفاهيات هندسة الوراثة . ومع ذلك فكل شيء جائز .

لكن مما لاشك فيه أن علماء المستقبل سوف يحبون هذه «اللعبة» حبا جما .
فكما تتفنن ربة البيت في تقديم أنواع شهية مما لذ وطاب من الطعام ، كذلك
سيسير علماء هندسة الوراثة على نفس المنوال . فيقدمون بدورهم «كوكتيلا»
وراثيا يغيرون به طعم الحياة في عقول الناس . فلكل عصر أفكاره ، وما أكثر
الأفكار التي ما زالت غيبا في جعبة المستقبل !

الفصل السابع

تعقيب وخلاصة وخاتمة

تعقيب وخاتمة

مما لا شك فيه أن التنبؤ بمستقبل الحياة على هذا الكوكب عامة ومستقبل الإنسان خاصة لمن الأمور الصعبة والعويصة جدا . ذلك أننا كلما أدركنا من أسرار الكائنات أكثر ، وعرفنا من بزاجها الوراثية المزيد ، كانت التنبؤات أتقن . ومع ذلك ، فإن السنوات العشر الماضية قد طورت معلوماتنا بدرجة لم يكن يحلم بها الذين عاشوا في الخمسينيات أو الستينيات من هذا القرن . وبرغم ذلك ، فما زالت أسرار الحياة يكتنفها الكثير من الغموض . لكن تعاون العلماء في مئات الجامعات والمعاهد المتقدمة ، وسهولة تبادل الحوار والمناقشات وطرح الأفكار الجديدة في المؤتمرات والندوات المتخصصة ، ثم تخفيف الحصار ، وكسر القيود التي فرضت بقسوة على العلماء القائمين بتجارب هندسة الوراثة ، مع رصد الميزانيات الضخمة لمثل هذه البحوث ، خاصة بعد أن أثبتت أصالتها ، ثم ما تمخض عنها من نتائج لم تكن في الحسبان .. كل هذا وغيره قد أعطى هذه البحوث دفعة هائلة ، حتى لكأنها قد أصبحت كحصان جامح منطلق بكل قوته ، لا يستطيع أحد أن يوقف انطلاقته ، اللهم إلا برصاصة تصيبه في مقتل . ولقد كان من المقدر - منذ البداية - أن تُقبر مثل هذه البحوث في مهدها . لكن حرص العلماء ، وشغفهم بالمعرفة في أية صورة من صورها .

قد نحى «الرصاص» عن هدفها ، وانطلقت بحوث هندسة الوراثة فى سبيلها لا تلوى على شىء .

والعارفون بأسرار هذه البحوث ، أو ما يمكن أن تؤدى إليه من أهداف قد تهز أفكار الناس الموروثة يرون أنها أعظم إثارة ، وأخطر شأنًا من أى شىء آخر توصل إليه الإنسان فى عصرنا الحاضر . بما فى ذلك غزو الفضاء ، أو السيطرة على الطاقة النووية . أو تسير دفة الحياة من خلال «العقول» أو الحاسبات الأليكترونية .. الخ .

ولقد آلبنا على أنفسنا أن نأخذ جانب الحذر والحيطه فى تقديم هذا الموضوع الحساس للقارئ العربى . وابتعدنا قدر الإمكان عما يمكن أن يؤذى شعوره ، أو يهز عقيدته ، وليس هو وحده فى هذا الميدان ، لأن بعض العلماء الذين يقومون بكسر الحدود الفاصلة بين الأنواع المختلفة من الكائنات ، لاستنباط أنواع جديدة ما أنزل الله بها من سلطان ، هؤلاء العلماء تقوم الآن بينهم مجادلات مستمرة ، ومناقشات شديدة وساخنة ، وتبرز منها أسئلة تلسع العقول لسعاً .. ومن هذه الأسئلة ما طرحه آلفين توفلر فى كتابه المثير «صدمة المستقبل» . إذ يذكر أن الأسئلة المنبثقة من علم البيولوجيا الحديث ترعب العقل حقاً : فمن الذى يعيش ، ومن الذى يموت ؟ .. ومن يكون الإنسان ؟ ومن ذا الذى يتحكم فى مثل هذه البحوث ؟ . وماهى التطبيقات التى يمكن أن تتأسس على مثل هذه الاكتشافات ؟ .. وهل من الممكن تجنب الرعب الذى لم يتبأ له الإنسان ؟ .. إن كثيراً من العلماء المرموقين فى علمنا يعتقدون أن الساء تدق من جديد لقبلة هيروشيا البيولوجية .

هذا وما يستحق الذكر هنا أن كتاب «صدمة المستقبل» قد ظهر عام

١٩٧٠ ، ولم يتعرض لموضوع هندسة الوراثة إلا في عشر صفحات فقط (الكتاب يقع في ٥٠٠ صفحة) . وما جاء في هذه الصفحات كان معظمه أسئلة أو آراء بعض العلماء المهتمين بهذا الموضوع . ثم إن ما كتبه كان سابقاً لأوانه ، لأن الثورة أو الطفرة الحقيقية لهذه البحوث وما تمخض عنها من إنجازات - قدمنا بعضها في هذا الكتاب - لم تبدأ إلا منذ عشر سنوات .. صحيح أن بوادرها كانت تلوح للناس وقتذاك . أو قبلها ببضع سنين . لكن الأمور تتطور الآن تطورا هائلا لتصدم ألفين توفلر نفسه صاحب « صدمة المستقبل » .

لقد صدم توفلر الكثيرين ممن اطلعوا على كتابه بعباراته المثيرة . أو عبارات غيره من العلماء والمفكرين والفلاسفة الأكثر إثارة : لكن ذلك لم يكن إلا نوعاً من « التوايل » التي تجعل لكتابه مذاقاً خاصاً . فزاه يذكر مثلاً « أن امتلاكنا لهذه المعرفة السريعة والمتراكمة من علوم الوراثة سيجعلنا قادرين على إنتاج سلالات بشرية حسب الطلب ، خاصة في عالم لا تزال تسيطر عليه فكرة التعصب العنصرى .. واذا تم لنا ذلك ، فهل يمكن أن نناضل من أجل عالم يصبح فيه لون البشرة موحداً ؟ .. أو هل نستبدل بذلك فكرة أخرى تتناول تنوع هذه السلالات بأكثر مما هي موجودة عليه الآن ؟ . ثم ماذا عن مستويات ومقاييس الجمال الجسدى ، وعن مفهومنا للمركبات الاستعلاء أو مركبات النقص ؟ . إنا نندفع بقوة نحو مستقبل نستطيع أن ننشئ فيه سلالات ممتازة ، وسلالات أقل امتيازاً .. ثم نرى توفلر يستشهد بعبارته وردت في مجلة «المستقبل» لموضوع كتبه ثيودور جوردون ، جاء فيه « ان امتلاكنا القدرة على « تفصيل العنصر البشرى حسب الطلب » يجعلنى أتساءل بدهشة عما إذا كنا نزمع جعل كل الناس متساوين (وهذه عبارة فجة حقاً) ، أو هل نجعلهم طبقات من فوق

طبقات ؟ .. أى هل يمكن أن تكون سلالات المستقبل خليطا من جماعات فيها السادة - أى الذين يتحكمون في البرامج الوراثية ، وفيها العبيد ، وفيها الأبطال لكل الألعاب ، وفيها العلماء فائقو الذكاء ؟ .

ويضيف توفلر : إننا سنستطيع أن ننشئ أطفالا فائقى حدة البصر والسمع والشم (أطفال «سوبر» على حد التعبير الشائع) .. وفائقى البنيان الجسمانى ، أو الأداء الموسيقى ، وسنستطيع تخليق بشر بمؤهلات أرقى .. فتيات مثلا بصدر ذات مقاسات غير عادية .. الخ .

ويشير توفلر فى كتابه «صدمة المستقبل» إلى مؤتمر كان قد عقد فى لندن ، وضم عددا كبيرا من علماء البيولوجيا المشهورين ، ليتدارسوا مصير الإنسان البيولوجى والأخلاقى بعد نجاح العلماء مستقبلا فى التلاعب فى صفات الكائنات ، ومنها البشر بطبيعة الحال . يشير توفلر إلى آراء طرحها العالم الشهير ج . ب . س . هالدين عن إمكان إيجاد طرازات جديدة من البشر تتحمل الرحلات الطويلة فى الفضاء . وذلك عن طريق زراعة جينات معزولة من الحيوانات التى تقاوم ظروف هذه الأسفار (وسوف نمر بدورنا على هذه العبارة مرور الكرام ، لأنها تنطوى على خيال ليس له من أساس .. ذلك أن الذى يقتل الإنسان يقتل أيضا الحيوان) .. ويعقب توفلر على ذلك بقوله : إن أحدا من أعضاء هذا المؤتمر لم يحاول أن يناقش أو يتحدى آراء هالدين التى أشار فيها إلى أنه سيكون بالإمكان يوما ما أن نأتى ببشر ذوى ذبول إن أردنا لهم ذلك (وقد يكون هالدين قد ذكر ذلك تلميحا أو تصرحا ، لسنا ندرى) .. يستثنى من ذلك العالم البيولوجى الشهير ج . ليدر بيرج الذى قدم ملاحظة مؤداها أن ذلك أمر ممكن . وأننا نستطيع أن نهب الناس ذبولا ، ليس عن طريق هندسة

الوراثة . ولكن بطرق تجريبية أخرى ، كأن نحدث في البشر تغيرات فسيولوجية أوجينية ، أو بإحلال أجزاء آلية محل أنسجتهم أو أعضائهم الطبيعية .. فإذا أردنا إنسانا بدون ساقين ، فإن ذلك لا يستلزم أن ننشئه النشأة الأولى ليأتى بدون ساقين . بل يكفي أن نبتله ساقيه ، وإذا أردناه بذيل ، فإننا سنجد طريقة لزراعة الذيل فيه .

لقد قدمنا هذه الفقرات لنوضح بها أمرا هاما .. فليست مثل هذه الأفكار واردة في التفكير العلمي الجاد . فإذا يفيد البشرية من بشر يأتون بذبول ، أو نساء يأتين بصدور شاحخة ، أو إنسان يأتى بعضلات مفتولة ليكون في قوة الثور الهائج ، أو الحصان الجامح ؟ .. أضف إلى ذلك أن طرح هذه الأمور على الناس بتلك الصيغة المثيرة قد يحملهم على نظرة معادية للعلم والعلماء . وهذا ما تجنبناه نحن في هذا الكتاب . فلقد أنصبت معظم نبوءاتنا ونبوءات غيرنا على أهداف تفيد البشرية ، لا على أفكار جامحة قد تثير الضغينة والسخرية .

صحيح أننا قد تنبأنا بإمكان تخليق إنسان كلوروفيلي يعيش على الطاقة الشمسية ، أو يغذى نفسه تغذية ذاتية . وربما تكون هذه النبوءة قد راودت عقول بعض العلماء . وقد نراها ممعنة في الخيال ، أو نرى تحقيقها بعيد المنال . لكن الطبيعة ذاتها قد حققت ذلك في بعض الكائنات الأولية ، فجمعت بين بعض الصفات الحيوانية والنباتية في مخلوق واحد . وعلى هذا الأساس قد شيدنا نبوءتنا .. أى أنه لا تنبع من فراغ محض ، ولا تفكير علمي ضحل .. أضف إلى ذلك أن الحياة ذاتها قد قدمت لنا «أدواتها» الحية الدقيقة التي تساعدنا على نقل صفة أوجينية من خلية كائن إلى خلية كائن آخر لتشتغل فيه دون تغيير في برنامج الجينة أو دون تبديل .. وبما لا شك فيه أن أمام العلماء مشوارا طويلا لبحوث

أعمق ، وإدراك بأسرار الحياة أتقن ، ثم تطبيقات أعظم وأبدع مما يجري الآن في معامل العلماء .

وقد تكون فكرة إنتاج هذا النوع الكلوروفيلي غريبة أشد الغرابة على مستوى تفكيرنا الحالي ، لكنها لن تكون كذلك بالنسبة لأفكار المستقبل البعيد .. ثم إن الصعاب الجمة التي ستقابل العلماء في هذا المجال متفق عليها مقدما . لكن ما يدرينا أن الزمن كفيل بتذليل هذه الصعاب ، خاصة أن الهدف هنا مذهل وعظيم ، لأنه سيحرر الإنسان الكلوروفيلي من عبودية لقمة العيش التي نحسب لها الآن ألف حساب وحساب مع أخذنا في الاعتبار تلك الزيادة المطردة في السكان . ومع ذلك فقد تتحقق نبوءتنا أو لا تتحقق ، فكل هذا متروك لما ستأتي به الأيام من مفاجآت .. ولقد كان قصدنا من تقديم هذا الكتاب هو معرفة ما يجري الآن في عالمنا من بحوث غريبة ، ثم تهيئة الأذهان لمثل هذه المفاجآت ، حتى لا تؤخذ على غرة ، فقد نصاب بصدمة .

ومن قبيل الصدف الغريبة أن يظهر ملخص لكتاب جديد للعالم^(١) البريطاني كريس مورجان عنوانه «رجل المستقبل» قدمه لنا أحد محرري المادة العلمية بجريدة قاهرية واسعة الانتشار في نفس اليوم الذي كنا نكتب فيه خاتمة هذا الكتاب . ويذكر لنا أن كتاب «رجل المستقبل» (ونظن أن إنسان المستقبل هي الترجمة الأصح) يتناول التطورات المثيرة في ميادين العلوم والطب وهندسة الوراثة وزراعة الأعضاء ، ويرسم صورة لإنسان المستقبل على ضوء هذه التطورات .

ويستطرد المحرر العلمي قائلا : « ويعتقد المؤلف أن اندفاع العلم الحديث نحو

() ولا نظن أنه عالم حقا . بل ربما كان من ذلك النوع من الكتاب العلميين .

تغيير أعضاء الجسم التالفة بأخرى سليمة ، والتطور المذهل في هندسة الوراثة ، والنجاح المحوظ في إطالة عمر الإنسان ، قد يكون بسبب الرغبة القديمة في البحث عن أكسير الحياة أو الحلم المستحيل في الخلود بعد الانتصار على الموت .»

ولقد كان من المزمع منذ البداية أن أكتب في فروع كثيرة عن المستقبل .. مثل: مستقبل المخ وزراعة الأعضاء ؛ بما فيها إحلال الأجهزة الصناعية محل الأجهزة الطبيعية (أى التوصل إلى تخليق قلب كامل أو كلية كاملة أو عين كاملة ... الخ من المعادن واللدائن الصناعية التى يمكن حملها مع الجسم بدلا من تلك الأعضاء الطبيعية التالفة) ومستقبل الحاسبات الأليكترونية . ومستقبل التربة الزراعية والبحار والمناخ والثروات الطبيعية بما فيها البترول ، وتطوير المواصلات والاتصالات مستقبلا .. الخ .. الخ .

كل هذا كان واردا على الخاطر منذ البداية ، لكننا وجدنا أننا لو كتبنا كل ذلك بنفس الطريقة التى نكتب بها هذا الكتاب ، فإن تلك المواضيع بدورها لن تكفيها عدة كتب من حجم ذلك الكتاب . حتى هذا الكتاب الذى تناولنا فيه مستقبل بحوث هندسة الوراثة ، والتنبؤات التى يمكن أن نشيدها على ما بين أيدينا الآن من إنجازات تمت ، أو فى طريقها إلى التطبيق ، لم نتعرض فيه إلا للمهم أو الأهم . أى أنه بدوره ليس متكامل كما يجب أن يكون ، وإلا أصبح فى جزءين أو ثلاثة . ويكفى أن نذكر أن البحوث أو التسجيلات التى تمت فى المؤتمرات والندوات الخاصة ببحوث هندسة الوراثة تشغل الآن رفا طوله أربعة أمتار ، كما سبق أن ألقينا .

وسبب تركيزنا على موضوع هذا الكتاب أنه يحتوى على قضايا عامة تؤثر على

الدول والجماعات ، أو على الجنس البشرى ذاته تأثيراً مباشراً أو غير مباشر . وهذا بطبيعة الحال يختلف من حيث المبدأ عن عرض نبوءات تتناول حياة فرد أو أكثر .. فزراعة مخ مكان مخ آخر ليست واردة الآن على التفكير الطبي ، أو العلمى ، لأن هذه الزراعة لا تخص إلا فرداً بعينه ، أو ربما أيضاً فريق الجراحين الذين سيصبحون من المشهورين ، وللشهرة ثمن على أية حال . لكن زرع مخ أو قلب أو كلية ليس كمثل زرع جينة الأنسولين أو الهيموجلوبين أو الانترفيرون أو الكلوروفيل أو الأجسام المضادة أو التخليق النيتروجينى الذى يؤدى إلى تسميد النباتات ذاتياً . فهذه جميعاً بلاشك أكثر فائدة للبشرية عامة من إفادة حالة أو عدة حالات فردية .. لهذا فضلنا الفائدة الأعم على الأنخص .

إن هذا يختلف مثلاً عن حكاية زرع المخ التى ركز عليها ملخص كتاب «رجل المستقبل» . ففيها من الإثارة ما يجذب القارئ ، ويحبه فيما يقرأ . والناس بطبيعتهم يحبون الأخبار المثيرة ، لا الأخبار الجادة التى قد تصدع الأدمغة بأغازها وأسرارها الكثيرة . فنظراً لعلمنا أن الحكومات لن تمول أمثال هذه البحوث الباهظة التكاليف ، والتى تقع تحت بند «الرفاهية العلمية» ، وكذلك علمنا أن العلماء يفضلون بذل الجهد والعرق والفكر والمال فى بحوث أنفع للبشرية ، لا بنسها فى أمور تثير أفكار الناس . لكل ذلك نجنبنا عرض هذه الأمور فى كتابنا هذا . كما أننا نفضل الكلام فى موضوع قطع الغيار البشرية ، رغم طرافته وأهميته . فقد يؤدى ذلك مستقبلاً إلى وجود بشر نصفهم أجهزة طبيعية ، والنصف الآخر أجهزة إلكترونية ومعدنية ولدائن صناعية من صنع أيدينا .. أى قد يسير بعض من فقدوا نعمة البصر وهم يرون بعيون تليفزيونية ، أو يسمعون بميكروفونات دقيقة مزروعة فى آذانهم ، أو يعيشون بقلوب صناعية تنبض فى صدورهم ، أو بكلى تخليقية مربوطة على جنوبهم ، أو

بطاقيّة ذات أزرار ومحولات وأقطاب مثبتة على رءوسهم . ومتصلة بأسلاك جد رقيقة مغروسة في مناطق خاصّة من أمخاخهم . فسلك متصل مثلاً بمركز اللذة وآخر بمناطق الناكرة ، وثالث بمركز العاطفة ، ورابع بمركز النشاط ، أو النوم أو القلق .. الخ . فإن طلب لذة داس على زرار ، وإن أراد أن ينشط ذاكرته داس على ثان ، أو أن ينام داس على ثالث ، أو أن يحوّلاً ضغط على رابع ، أو أن يشبع بدون طعام ، أو يرتوى بدون ماء ، حرك خامسا وسادسا ليؤثرا على مركزى الشبع والعطش . وهنا يحق لنا أن نطرح أسئلة عن إرادة الإنسان ذاتها . هل ستحكمها أجهزة أليكترونية تتسلط على مخه ، فيصبح هنا بمثابة الدمية التي تتحرك بزنبك وتروس ؟ .. وهل ستتحول العواطف الجميلة إلى مجرد تيارات كهربية ضعيفة تسرى من بطارية نعملها فوق أدمغتنا ، فتؤثر على مراكز العواطف المختلفة ، فتجعلنا نذرف الدموع صناعيا في حالة موقف حزين يستدعى ذلك ، أو نشارك بقهقهة عالية لمزاح سخيف ، أو نناق غيرنا باصطناع الحزن أو السرور أو الغضب .. الخ ؟ .. وإذا حدث ذلك - وهو ممكن - فأين شخصية الإنسان من كل ذلك ؟ . وهل سيرحب الناس حقا بمثل هذه الإنجازات التي تجعلنا مخلوقات هجينة من شحم ودم ولحم وأجهزة أليكترونية تقوم بعمل المخ المذهل الذي صنعه الله فأحسن صنعه .. ومن أحسن من الله صنعا ؟ .. الخ .. الخ .

إن مثل هذه الأفكار قد يكون في ظاهرها رحمة ، لكن في باطنها نقمة . ثم هل هناك نقمة أشد على النفس من افتقادها لحرمتها ووجدانها وشخصيتها ؟ .. الواقع أن مثل هذه البحوث أو الإنجازات قد تضر ولا تنفع ، مثلها في ذلك كمثل نقل المخ وزراعته من إنسان إلى آخر . فهذه فكرة فجّة ، ورغم ذلك فقد بنى عليها مؤلف « رجل المستقبل » موضوعا كاملا بذاته .. ثم إن

الكاتب الذى علق على هذا الكتاب قد جذبته هذه الصورة المثيرة بالذات ، وراح يقول «إن قضية زراعة المخ تحتل دائما مكانا بارزا فى كتابات «المستقبليين» أى العلماء الذين يسعون إلى استشفاف ملامح المستقبل بعد مائة عام مثلا . عن طريق الدراسة العلمية للمنجزات الحالية فى مختلف النشاط الإنسانى .. ولنا على ذلك تعقيب موجز : فالمستقبليون معظمهم ليسوا علماء . وما داموا كذلك فلهم الحرية فى إطلاق عنان الخيال دون حسيب أو رقيب . لكن العلماء الذين يميلون إلى التنبؤ بالمستقبل لاشك ملتزمون بما تمليه عليهم آداب المهنة . ذلك أن البحث العلمى ليس تهريفا أو تحريفا ، وما يبنى عليه مستقبلا يجب أن يتخذ سمات الجدية ، لاسمات الشطحات أو التصورات الرديئة ، لأن التصور العلمى ذاته قد يتقمص فى أحيان كثيرة صورة النظريات العلمية التى يسعى العلماء إلى تحقيقها ، لا إلى إطلاق تصريحات جوفاء ه محاسبون عليها أمام أرباب المهنة التى يتمنون إليها .. فزراعة ذبول عن الأرداف . أو أمخاخ فى جماجم الناس ، ليس واردا فى أفكار العلماء ولا حتى عند المستقبليين منهم ، لأن ذلك لا ينطوى على فائدة للبشرية ، بل العكس هو الصحيح .

والصحيح أيضا أن العلماء فى دراساتهم لهندسة الوراثة - سواء على مستوى الكائنات أو الناس أو الأمخاخ يعلمون أن هناك مآسى ضخمة وكثيرة ناتجة عن فشل البرامج الوراثة الطبيعية فى خلايا المخ أو أنسجة الجسم المختلفة . وفشلها يعنى العديد من صور التخلف العقلى ، أو نشوء الأورام السرطانية . وهذه أولى بالبحث من تركيب ذبول ، أو زرع أمخاخ أو ارتداء طاقة إلكترونية تتحكم فى آدمغتنا .. فهناك عشرات الملايين من البشر يعانون من جراء هذه الأمراض التى تسبب مآسى عائلية واجتماعية شتى . فإذا نجح العلماء فى القضاء عليها . ولم

يجدوا بعد ذلك ما يشغلون به وقتهم (وهو لا شك وقت مشغول مادامت على الأرض حياة) ، فعليهم أن يلجأوا إلى بحوث ترفيهية من ذلك النوع الذى يؤدى إلى تخليق كائنات بشرية بذيول أو قرون أو مخالب ، أو مخلوقات جديدة تجمع بين صفات-حيوانية وبشرية . ثم يعرضونها بعد ذلك فى حدائق الحيوانات ، ليتفرج عليها الناس .

إن هذه صور بشعة ، ولا يمكن أن يفكر فيها إلا كل ذى عقل مخبول ، وليس فى العلم خبيل ، ولا فى العلماء جنوح إلى سلوك طريق الهاوية .. فلو أنك سعدت أو شقيت - لسنا ندرى - بحضور أحد المؤتمرات العلمية ، وسمعت المناقشات الهادفة ، وتبادل الآراء الصائبة ، والتخطيط بالأفكار الناضجة لإجراء مزيد من التجارب المقتنة ، للحصول على مزيد من المعرفة فى أى فرع من فروع العلم .. لو أنك عشت فى هذا المناخ لأحسست أنك فى محراب مقدس للعقل البشرى الخلاق . ولأدركت أن هذه « الروس » المحشوة بعصارة المعرفة . هى سيدة هذا الكوكب .. لا جمال ولا جاه ولا سلطان ، بل بالعلم والمعرفة .

* * *

ولقد كنا نود أن نفرّد بابا مستقلا للتنبؤ بإطالة الأعمار بين الناس . فهذا أمر يجذب اهتمام كل الناس ، لكننا لم نجد فى ذلك فائدة عامة ، بقدر ما هو فائدة فردية . ثم إن الشيخوخة المتقدمة ذاتها عبء على المجتمعات . ولهذا كان من حكمة الحياة أن تجدد نفسها باستمرار ، فتعوض القديم المتبالك بالجديد المتناسك . وذلك - فى الواقع - ناموس كوفى عادل يسرى على كل الوجود .. هذا رغم ما قد تقرأه فى بعض الكتب عن أن الإنسان فى المستقبل سيعيش

أطول مما نعيش بضعفين أو ثلاثة أو أكثر. وأحيانا ما يرد أنه لا مانع عند العلم من التوصل إلى شيء اسمه إكسير الحياة الذى يهب للناس حياة أبدية على هذا الكوكب .. وفكرة إكسير الحياة فى عصرنا هذا كفكرة حجر «الفلاسفة» الذى بحث عنه الأقدمون دون طائل ، لأنهم - على حد زعمهم - كانوا يريدون تحويل الحديد أو الرصاص أو النحاس إلى ذهب وفضة . وكما لم يعثر الفلاسفة على حجرهم المنشود حتى الآن (ولن يعثروا عليه طبعاً) ، كذلك لن يعثر علماء هذا الزمان على إكسير الشباب ، مهما تعمقت بحوثهم ، أو داعبت الأحلام خيالهم .

فواحد مثل آرثر كلارك فى كتابه «سمات المستقبل» (وهو كاتب علمى خيالى مشهور ، ولقد تحققت نبوءاته فى التكنولوجيا) ، يذكر أنه ليس مستحيلاً أن يتوصل العلماء إلى منح الناس حياة أبدية . ولقد حدد بلبلوغ هذا الهدف عام ٢٠٩٠ - ٢١٠٠ م - أى بعد قرن وربع من الآن . لكن الذى ندرجه حقاً أروع من عمر الإنسان قد زاد - فى المتوسط - فى زماننا هذا عن عمره فى الأزمنة القديمة . وسبب هذه الزيادة - كما هو معروف - يرجع فى المقام الأول إلى السيطرة على معظم الأوبئة التى كانت تحصد نسبة كبيرة من الناس فى الماضى ، بداية من سنى الطفولة حتى الكهولة ، أو فى أثناء عمليات الولادة ذاتها . ويرجع أيضاً إلى العناية الطبية ، وإلى سبل التغذية الصحيحة ، وإلى التطور العظيم الذى نشهده فى وسائل الكشف عن الأمراض وفى العمليات الجراحية .. الخ . ومع ذلك فقليلون هم الذين يتخطون سن الثمانين ، وقليلون جداً من يعيشون حتى المائة ، ونادرون للغاية الذين يعمرن حتى المائة والعشرين .

هذا ويعتقد بعض العلماء أن الحد الأقصى الذى يمكن أن يعيشه الإنسان

هو مائة وخمسون عاما . وقد يتحقق ذلك مستقبلا في نسبة قليلة من الناس .
وبحيث يصبح متوسط العمر عند البشر حوالى مائة عام لاستين ولا سبعين
عاما ، كما هو الآن .. لكن أن يتنبأ البعض بحلم الشباب الأبدى ، أو الحياة
الأبدية على الأرض ، فهنا تنبؤ من النوع الردىء .

فالعلماء الذين تخصصوا في دراسة الخلية/والنسيج والشيخوخة يجربوننا أن
الخلية ذاتها تحمل في داخلها «ساعة» بيولوجية غير منظورة ، وأنها «تدق»
خمسين دقة . وبعد الدقات الخمسين تتوقف ، وتحل الشيخوخة تدريجيا ..
صحيح أنها عملية بطيئة ، لكن اعطها عمرا ، تعطى الإنسان محصلة من
الضعف والهزال والاضطراب الذى يتبعه حلول الموت لا محالة .. و«كل نفس
ذائقة الموت» .. «وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد» .

لكن .. ماذا تعنى حقا هذه الساعة البيولوجية التى تدق وتحدد؟

تعنى أن الخلية الملقحة هى البداية الحقيقية لكل مخلوق . ولكى ينشأ منها
هذا المخلوق ، فلا بد أن تنقسم عددا محددًا من الانقسامات . أى كأنما كل
انقسام منها يمثل «دقة» أو فترة زمنية محددة .. فلو أنك أخذت بضع خلايا من
جنين أو طفل أو شاب أو رجل أو شيخ هرم ، وزرعتها في محاليل غذائية مناسبة
لوجدت أن عدد الانقسامات يقل كلما تقدم الإنسان في العمر . وهذا يعنى أن
الشيخوخة أو الموت أمر متوارث في طبائع الكائنات الحية . ولكى نسيطر على
إطالة الأعمار فلا بد أن نسيطر على هذه الساعة الخلوية ، ونجعلها تدق (أو
تنقسم) مائة أو مائتين ، أو حتى ألف مرة . لكن النتيجة هنا ستبدو مفرعة ،
لأن إطلاق هذه العملية بدون ضابط أو رابط سوف يؤدي إلى بشر في أحجام
الديناصورات ، أو قد يجاوزون النخيل الباسقة طولا ، ثم ما يتبع ذلك من

مشاكل إطعامهم ولبائهم وكسوتهم ، الخ ..

وطبيعى أن ذلك ليس من اقتصاديات الحياة فى شىء . ولهذا لا يفكر العلماء فى مثل هذه البحوث التى لو تمت لأصبحت بلاء على البشرية . إذ يكفيننا ما نحن فيه من مجاعات يتعرض لها أكثر من ثلث سكان هذا الكوكب .. فالخير هو ما اختاره الله ، أو ما شرعه فى كل صور الحياة .. أضف إلى ذلك أن العلماء يسعون دائماً إلى تصغير الأجهزة الضخمة وجعلها أجهزة صغيرة (الترانزيستور مثلاً) تؤدى نفس العمل . ويا حبذا لو فكر العلماء فى نفس هذا الاتجاه مع الإنسان .

وتنبؤ أخير قد يتحقق فى المستقبل القريب أو البعيد وهو مؤسس على بحوث كان لا بد من التقديم لها باختصار شديد .. فهناك علم يعرف باسم « علم التبريد الشديد Cryogenic » . وله استخدامات وتطبيقات كثيرة فى مجال العلوم الكيمايائية والفيزيائية والبيولوجية .. فنحن مثلاً نستطيع أن نحتفظ بالخلايا أو الأنسجة الرقيقة حية لفترات قد تطول . وذلك باستخدام التبريد الشديد ، بعد معاملة الخلايا بمواد خاصة ، حتى لا يتحول ماؤها إلى بلورات دقيقة من الثلج قد تدمر جزيئاتها الأساسية تدميراً . مثلها فى ذلك كمثل زجاجة مملوءة تماماً بالماء ، ومغلقة إغلاقاتاً محكماً ، ثم وضعت فى « صندوق » التبريد المتصل بالثلاجة . وعندما يتحول ماؤها إلى ثلج ، يتشقق زجاجها من الضغط الشديد الكائن عليها (لأن حجم الثلج هنا أكبر من حجم الماء) .

والفكرة هنا شبيهة بفكرة البيات الشتوى الذى تمارسه بعض الحيوانات ، إذ تدخل فى مرحلة شبيهة بنوم طويل . وفيها ينخفض معدل دقات القلب والتنفس ، وسرعة التفاعلات الكيمايائية الحيوية واستهلاك المادة الغذائية (لأن

الحيوان لا يتغذى وهو في بيانه الشتوى) . فثلا سجل العلماء للخفاش وهو في حالات اليقظة والنشاط معدل نبضات قلبه ، فوصلت إلى ٤٢٠ في الدقيقة الواحدة . وفي حالة البيات الشتوى تصل في المتوسط ما بين ٨ - ٩ نبضات . وكذلك تعيش بعض الحيوانات البحرية عند درجات قريبة من درجة التجمد . ثم إن بعض العمليات الجراحية الخطيرة التي تجرى في أجزاء من المخ ، أو تجرى على القلب ، تتم في درجات حرارة منخفضة (Hypothermia)

ونحن لا نريد أن نستمر في هذا الموضوع الكبير ، لضيق المجال . لكن يكفي أن نذكر أن في أمريكا جمعية غريبة شعارها «جمد الجسد وانتظر .. ثم أخرج مرة أخرى إلى الحياة» .. ولقد تأسست هذه الجمعية بعد أن ظهر كتاب اسمه «نظرات على الخلود» في عام ١٩٦٤ .. وفيه شرح مؤلفه روبرت ايتنجر كيفية حفظ الجسد قبل موته الاكلينيكي بدقائق بواسطة تبريده فجائيا بالنيتروجين السائل ، حيث تصل درجة الحرارة إلى حوالي ١٩٦ درجة مئوية تحت الصفر . ولا بد والحال كذلك من وضع الجسد في كبسولة خاصة يبلغ ثمنها حوالي ٤١٠٠ دولار (بأسعار عام ١٩٦٨) ، بالإضافة إلى عشرة آلاف دولار مصاريف التجهيز و ٤٥٠ دولارا سنويا تكلفة النيتروجين السائل .

وبدون الدخول في التفاصيل نقول إنه يوجد حتى الآن حوالي ١٤ جسدا أمريكيا محفوظا في كبسولات تحت درجة حرارة منخفضة جدا . وكان أول من أوصى بتجميده قبل موته هو دكتور جيمس بدفورد الذي كان يعمل أستاذا لعلم النفس بإحدى الجامعات الأمريكية ، ثم أصيب بالسرطان ، ولم يجد وقتها أملا في شفائه . لكن الأمل قد يتحقق بعد خمسين أو مائة عام ، ويتوصل أطباء المستقبل إلى طريقة فعالة لتخليصه من سرطانه . وترقد جثته حتى الآن في

كبسولة بولاية اريزونا . ونقول جثته هذه المرة لا جسده ، لأن عملية التبريد تمت اعتباريا ، ولا بد أنها قد دمرت معظم أنسجته ، خاصة خلايا المخ الحساسة ، ولهذا يعتبر دكتور كبريس هندرسون رئيس جمعية التبريد الفجائى بنيويورك أن تجميد الناس قبل موتهم يمثل « جريمة قتل » .

إن فكرة التجميد بهذا الشكل القاتل قد نبعت أساسا من فكرة سابقة نعرفها بينوك الدم والخلايا والأنسجة التى تحفظ لساعات أو أيام أو شهور بمعاملات كيميائية وتبريدية خاصة . لكن ان تجمد جسدا كاملا فهذه هى المشكلة الحقيقية التى قد يبحث لها العلماء عن حل جذرى ، فلو نجحوا - وهو أمل بعيد - لكان فى الإمكان حفظ الجسد عشرات أو مئات السنوات ، ثم تدفنته بعد ذلك ، ليعود من نومته الطويلة جدا ، ويعيش فى زمان غير زمانه .

لدينا مثلا سلالات ميكروبية مجمدة حياتها فى الزمان والمكان . أى أنها لا تأكل ولا تتنفس ولا تتكاثر ، لأنها محفوظة داخل كبسولات زجاجية صغيرة مغلقة تماما ، ومفرغة من الهواء أيضا .. ولو عدنا إلى أترابها فى الطبيعة لوجدنا أنها قد خلفتها آلاف من فوق آلاف من أجيالها . ذلك أن تلك الميكروبات تتكاثر وتعطى ذريتها بعد ساعة ، أو نصف أو حتى ثلث ساعة ، بمعنى أن الجيل الأول قد تخلفه ثلاثة أجيال متتابعة بعد ساعة واحدة . وإن تحسبها بعد ذلك فى يوم أو شهر أو سنة تجدها آلاف الأجيال .. مازالت هذه السلالات فى سباتها منذ أكثر من ١٥ عاما . فإذا كسرنا عليها كبسولاتها بعد ذلك العمر الطويل أحياتها (والعمر الطويل هنا نسبي - لأننا نتحدث عن أجيال الميكروباد لا الإنسان ولا الحيوان ولا النبات) فإنها تقوم من سباتها العميق ، وتتغذى وتنفس وتتكاثر ... وكأنما هى تعيد إلى أذهاننا قصة أهل الكهف بطريقة أخرى .

لكن حجم الميكروب هنا ضئيل غاية الضآلة ، ولا يقارن حجمه بحجم الإنسان ، أو تعقيداته العضوية والخلوية . ومن أجل هذا ينفع التكنيك مع الميكروب أو الخلية ، ولا ينفع مع الإنسان الآن على الأقل .

هل يعنى ذلك أنه فى المستقبل القريب أو البعيد يمكن تجميد حياة الإنسان ، خاصة بعد أن يتطور التكنيك ويصقل ؟ .

لا أحد يدري يقينا ، وإن كان هذا التفكير يراود عقول بعض العلماء . ثم إنه إذا تحقق فلن يفيد البشرية شيئا ، لأن الجديد دائما أفضل من القديم . ثم إن أهمية الإنسان تنبع من المجتمع الذى يعيش فيه . لكن أحدا لا يستطيع أن يفرض ذلك على الأجيال القادمة ، لأن أفكارنا الحالية قد لا تتناسب مع أفكار المستقبل ، ولا العادات والسلوك والتقاليد .. الخ كذلك .

ثم إن الإنسان المجد الذى يتوق إلى حياة جديدة فى عصر غير عصره ، لا يستطيع أن يهضم ويستوعب ويتقبل التغير الجذرى الذى سيحل بهذا الكوكب بعد مائة أو مائتين من السنين .. ولاشك أنه سيصبح غريبا فى هذا العالم . وعندما يرى ولا يعرف شيئا مما يدور حوله ، فقد تأتبه صدمة تودى بحياته . فالمعرفة الفجائية بدون مقدمات قد تساوى موتا فجائيا بدون مقدمات كذلك .

إنها صدمة المستقبل ، ولاشئ غير ذلك ، فكل إنسان ميسر لزمانه .. «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

الفهرس

| | |
|--------|--|
| الصفحة | |
| ٥ | تمهيد |
| | الفصل الأول |
| ١٣ | معنى التنبؤ العلمى |
| | الفصل الثانى |
| ٤٧ | مستقبل التكاثر بالخلايا الجسدية لالجنسية |
| | الفصل الثالث |
| ٩٣ | المستقبل قد يتمخض عن طراز جديد من البشر |
| | الفصل الرابع |
| ١٢٩ | إنهم يغيرون فى طبيعة المخلوقات |
| | الفصل الخامس |
| ١٥٣ | تغيير صفات الكائنات ومؤشرات المستقبل |
| | الفصل السادس |
| ١٨٥ | ميكروب يحمل بعض مورثات البشر |
| | الفصل السابع |
| ٢٢١ | تعقيب وخلاصة وخاتمة |

رقم الإيداع : ٨٨/٤٤٧٤
التقليم الدولي : ٥ - ٠٤٧ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروط

القائمة : المتاح بنوادي حشبي - هاتف ٣٣٦٤٨٤ - ٣٣٦٤٧٨ - برانيا، شديوك - الممثل EBOI SHROK UN
تسويات : ص.ب. ١٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٤٩ - ٨١٧٦١٥ - ٨١٧٦١٣ - برانيا، المديون - الممثل SHROK SHI LE